

الامام  
عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء الثالث

تأليف  
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان  
بيروت

هدية الشهيد السيد  
السيد من الدين وحر العلوم  
لمكتبة الروضة البهية

٢٩٢٩





لم يكن خافياً عليه ما بيتوا ، بل كان أمامه كما في كتاب مفتوح . . إن له عينا بكل مكان حسبوا أنهم يأمنون فيه الرقيب ، وله في أرضهم رجال لم تقدمهم الشدة عن الولاء له ، ونسوة وددن لو افتدينه وجنبه المصير الذي راح يعده أولئك الخصوم . ولئن كانت مكة لذلك العهد حصن عدوه وموئلته ، فإن حركات أهلها كانت لديه محصاة لا يغيب عنها تفصيل . وكانت الكتب ترد منها عليه وهو بظاهر المدينة في النفر القليل من رجاله الذين خرج بهم يبتغي — في البدء — أرض الشام . وإنها لتحمل له صوراً واضحة من مأساة الفتنة ، وتكشف عن كثير من الخطوط التي رسمها المتآمرون عليه من أجل السلطان . فما أغفلت الرقاع الآتية من البلدة الحرام حركات الجند المتأهب ، ولا تدبير الحزب المفتون باحتلاب السيادة ، ولا الموارد التي غدت جيش عدوه بالعتاد . . وحتى حديث الحمس والمسارة بين كبار مناوئيه لم يقف به دون علمه أن كان في خلوة بين الجدران الصماء !

فلعله أسف إذ استعرض هذه الصورة وجال بعين ذهنه فيها تومئ إليه . إنها نذر الانحلال ، وبوادر التدهور الخلقى تتجمع في أفق الإسلام كما تتجمع علامم العاصفة ولما يكديغ عن عيون الناس طيف الرسول . فما هي « الدنيا » تنتصر ثائرة أو توشك على الانتصار كأنها قد تمجلت النار . . . وما هي « المادة » ترفع ألويتها على أنقاض الروح وما جف بعد اللداد الذي سطوروا به تعاليم الدين . إن حب الحياة الذي أورد الغابرين مهاوى الهلكة قد هم يطرح أمته الناشئة في الغابرين ، وأهواء الأتقى التي ألهبها سياط الأطماع راحت ترين على صفاء القلوب . ولو أن الخلاف الناشب كان مناجزة حرة بين فكرة وفكرة لوسعه أن يقدم باسم الثغر كفارس يلقى كفؤاً له في ميدان نزال . ولكنها كانت أشبه بإغارة قطاع طريق استبيحت فيها البادية النلى وجيشت قوى الهدم والظلام

مكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية

تريد أن تطغى على البناء والنور . وهل غاب يا ترى من حقه جانب عن أولئك الذين قاموا يناصبونه العداء ؟ . . .

ليس هذا عليه بجديد : ليس هذا كله نبت ساعته بل هو قديم ممتد في غور الماضي بكذور دوحة موغلة في الأرض حتى الصخر أو نبع الماء . فقد كان دائماً فريسة بغضاء مجنونة ، وضحية اختارتها شياطين الحسد لتكون قربانا يتقدم به قومه على مذبحها البغيض . وإنه لصورة أخرى مما أريد برسول الله لولا أن عصمه ربه فأتقذه من بين مخالب الغل الفوار في الصدور . فاسمعه كيف يجيب عقيلاً أخاه حين أتاه منه ما ينبئ عن تجهيز القوم لحربه بعد نكثهم بيعته وخلعهم ما كان في رقابهم له من ولاء مفروض .

« . . . دع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال ، وتجوالم في الشقاق ، وجماحهم في التيه . فإنهم قد أجمعوا على حربى كإجماعهم على حرب رسول الله قبلى . . . جزت قريشاً عنى الجوازي . . . لقد جهلوا حقى ، وجحدوا فضلى ، وقطعوا رحمى . وسلبونى سلطان ابن أمى ، وجدوا فى إطفاء نور الله . . . » .

كان يعلم هذا كله من البدء ، ويوطن النفس على الاصطلاء بنيرانه . وما أغفل قط من حسابه أن الزمن سوف يتكشف له يوماً عن حرب تشنها عليه النفوس المقروحة وتتقدم فيها بكل سلاح وبأى سلاح تستطيع أن تشهره . فلم يعجب قط حين جاءت الأخبار بائتلاف النقاض عليه ممثلة فى الوائر وفى الموتور . . . نعم ، فقد اجتمع أولياء السم المهرق بمن عملوا جهد طاقتهم على إراقته وسفكه . . . اجتمع بنو أمية وأولياء عثمان الشهيد بأولئك الذين فرشوا الأرض تحت قدمى الخليفة الشيخ بالقتاد ووضعوا الحجر المسموم فى أيدي قاتليه ، وتآلفت من النقيضين قوة موحدة الغرض هدفها الأول هو القضاء على مظلوم جديد !

ولكنه تقبل هذا منهم بنفس راضية ، ألهمها حقها الثقة ، فلم تستشعر الخوف من المجهول القادم ، ولا أشفت مما عسى أن تنجاب عنه الأيام من مصير

مظلم أو مرهوب . أليس طريق الصواب واضح المعالم وإن اعترضه الصخر وتناثرت فيه الأشواك ؟ . . . وهل الحق إلا أولى بالبذل وإن مدت سبله المشاق والصعاب ؟ . إنه لكاف دائماً باستهداف غايته ، وإنها لأمثل الغايات ، ولن يقعه عنها حائل أو يموت . فليدع إذن أولئك المناجزين وما وطنوا عزهم عليه ، فما أهونهم عنده إذ اصطنعوا باطلا والتفوا به ينصرونه ، كأنهم عابد الوثن يصنعه بيده من حجر الأرض ثم تعنوا جبهته بالسجود له ! وما أكثر مزالقهم بعد ، لأن الخطأ الأول سوف يقود حتماً إلى سلسلة أخرى من الأخطاء والضلالات — تماماً كطليعة الإبل في القافلة يجر خلفه قطاراً طويلاً من الجمال ! وحسبه الآن ، مصداقاً لشعوره ، هذه البوادر التي أخذت تبدو له خلال أعمالهم حين حاولوا التماس المنعة بتأليب القوى عليه وساروا في الطريق الملتوية معصوبي الأعين . . . فقد تنادوا بدعوة ظالمة ، وأغروا باتباعهم كل مفتون ، وشطروا وحدة الأمة . فلما تبينوا أنفسهم في ساحة كفاح يجب أن يوفرها عتاده وعدته ، أقبلوا في لفة يمدون أيديهم إلى مال حرام فاحتجزوه ، واستباحوه ، ثم قدموه وقوداً لهذا الكفاح الحرام !

هكذا فعل القوم ، وإلى مثل هذا المنحدر انزاحت أقدامهم . . . فقد أباحهم ابن عامر ما جلبه من أموال البصرة بعد خروجه منها ، ووهبهم يعلى بن منية ما حملة من أموال صنعاء . وما كان لأى الرجلين حق فيما وهب وأباح إلا كما لرسول من رسالة مولاه . فقد كانت العادة السنوية أن يجتمع عمال الأمصار في موسم الحج بالخليفة كل عام ومعه ما وسعهم جمعه من خراج ليسلموه إياه كي يضمه إلى بيت المال ويعدده للإتفاق في الأوجة التي يراها تعود بالخير على مجموع الأمة . فهم أمناء حفاظ على ما جلبوه وليسوا يملكون توليه بالبذل ولا بالعطاء . ولكن هذين استهوتهما الدعوة التي تنادت بها عائشة في أرجاء مكة عقيب مصرع عثمان فانحازا إليها ، وأقرنهما هي وصاحبها على احتجاز أموال المسلمين لخدمة مأرب خاص ، ولتكون عدة الحرب الأهلية التي لن تلبث أن تستشري وتفكك عرى الإسلام .

لكم آلم عليا أن يرى صفوة قومه فريسة للهوى المغرض ، هم الذين كانوا  
أكرم على نفسه من أن ينزلقوا في مثل هذا الهوى الذي احتفرت له الأطماع ،  
وأولى الناس عنده بمجانبة الباطل ، وأجدرهم بمدانة التنزه والسمو على مآثم  
الحياة ... ولكنهم اختاروا لأنفسهم ، وسلكوا الطريق الذي شاءوا دون تردد  
كثير . ولعل منهم طائفة استشعروا الندم على ما اقترفوا ، واستجابت لهم ضمائرهم  
بالوخز ، ولكنها يقظة مداعة ثم راحت القلوب بعدها في سبات ! إنه دون ريب  
ندم موقوف ، ووخز كأنه مس كف حنون ! فلقد ساروا أشواطاً تعذر بعدها  
النكوص ، وبدا الهدف البراق يلتصع لهم من قريب على قيد ذراع . . .

لات حين ارتداد . . . النكوص على العقب الآن عسير وإن كان في نصرة  
واجب ، والإقدام هين يسير وإن كان في نصرة فتنة ، وما إلى وجهة الحق الذي  
خلفوه دبر الظهور منفذ بعد أن وقفت نزغات الأنفس وأحلام النصر تسد  
المسالك كمردة الظلام . . . ولكنك مع هذا لا تعدم عذرا لكل مفتون ضال  
يضيفه إلى صحيفته ، ويحرص أن تنعكس أخطاؤه من خلاله كالآثر ، لأن الإقرار  
بالذنب على النفس ثقل . . . وهذه عائشة تزعم أنها ما دعت دعوتها تلك  
إلا وهي تبتغي من ورائها توحيد الكلمة ، وما نهضت إلا لتعاجز بين أتباع  
على وبين الذين تواروا خلف الطلب بدم عثمان . . . تزعم هذا هي التي صاحت  
صيحة البسوس — غب المصرع — تستنهض الناس للثأر ، ثم سارت على رأسهم  
تحدوهم للحرب وتشحن عزائمهم ليشيروا فتنة شعواء على البلاد التي كانت تدين  
للإمام بالولاء . . . فما كان أصدق نظرة ضررتها أم سلمة وأبلغ كلماتها حين أرسلت  
إليها تقول :

« . . . ما كنت قائلة لرسول الله لو عارضك بأطراف الجبال والفلوات على  
قعود من الإبل من منهل إلى منهل ؟ . . . ما كنت قائلة وقد هتكت حجاب  
الذي ضرب الله عليك ؟ . . . ألا لو أنني أتيت الذي تريد ثم قيل لي : ادخلي  
الجنة ، لاستحييت أن ألقى الله ! . . . »

ولكن ابنة أبى بكر مضت لطيتها ، ولم تقعد لها هذه النصيحة الخالصة عما انتوته . لقد كانت تشعر أن الأقدار نصبتها لأمر خطير ، وأن فرصة العمر جاءت لها أخيراً دون تدبير . . . ولئن قامت أم سلمة تثبط همتها ، وتحاول بالحجة ومنطق اللسان أن تحول بينها وما تبتغيه فهذا من السيدة الناصحة معلوم مفهوم ولكنه غير مقبول . فتمتئ أقربها عائشة على أمر ؟ . وكيف تنتظر أن تحظى منها بالرضا والإقرار بعد كل هذه السنين الطويلة من التنافر والازورار ؟ . . . إنها لم تكن قط لها صاحبة تروح إليها النفس ، ولم يجمعهما أبداً فكر وإن جمعهما رجل ، وما زاد ما بينهما — وما نقص — عما يكون عادة بين الضرائر من تباعد المشاعر . وما هو الماضى يطل عليها فلا ترى فى ذكرياته إلا صوراً من التنافس بين الضرة التى جعلها الحسن والضرة التى جعلها الصبا والشباب ، تنهافت كلاهما على حب الزوج المحبوب . . . وأما الأمومة فقد كانا فى ميدانها سيان ، حرمتها الطبيعة نعمتها إذ ضنت عليهما معاً بنسل طاهر من صلب سيد الناس . ولكن إحداها ذاقها من قبل فلما أن احتواها بيت محمد ووسع قلبه الكبير أبناءها الذين أصابهم ذل اليتيم ، كان قلبها ما زال نابضا بعاطفة الأم فراحت تفيض من ذخرها على الزهراء المحرومة من حنان الأم . واستطاعت برقتها أن تعوض عليها بعض عواطف خديجة حتى تجاذبت روح المرأة وروح الفتاة . أما الأخرى فكانت طفلة — طفلة فى حساب الزمن وفى حساب المشاعر الناضجة . . . كان قلبها الصغير أضيق من أن تسع رقعة حب آخر إلى جوار حبها الزوج ، فبقيت عمرها كله مفتونة برجلها دون سواه ، حريصة على ألا يشركها غيرها فيه وإن كان ابنته الزهراء . . .

ولقد كان طبعياً أن تعترض أم سلمة سبيل عائشة اليوم ، وتجهد لتحوّلها عنه . فما هى إلا أم لفاطمة بالعاطفة والتآلف ، تحرص ما وسعها على إسعاد ابنتها ثم على إسعاد زوجها بعد أن غاب جدتها فى التراب . وإنها لخليقة الآن إذن بأن تحفظ ذكرى الطاهرة التى ارتحلت ، وتجدد ولاءها لها بالولاء لزوجها الإمام . بل الأليق بها فى الحنة الحاضرة أن تشهر — لو استطاعت — سيفاً

في وجوه خصومه ومبغضيه وتقود جحشاً ضحاً من الموالين لتقطع على ضررتها  
وصحبها درب الفتنة الذي ارتادوه وتدفعهم عنه بقوة الحديد ! ولكنها كانت  
امراً تعرف ما خلقت له فلم تقم نفسها في غير ما هيأتها له الطبيعة ، وآثرت  
النصح — في البدء — تزجيه عسى أن يصلح الله به نفوس من جانبوا الروية  
والحكمة ومالوا مع الهوى الدآى حيث مال . . . كانت تأمل في بقية من رشاد  
بعقول القوم العادين كفيلة بردهم إلى الصواب فعلقت أملها المخدوع بسراب .

## ٢

عاد ثانية إلى الحياة ذلك الصراع الحفى الذى طوته الأعوام . . . برز من  
الماضى بما فيه من مرارة وذكريات تهيج التنافر القديم ، واستوى قائماً على قدميه  
ليأخذ مكانه في قيادة الأحداث . فما نعة صفحة حب ولا صفحة حرب إلا سطرها  
مداد العوامل النفسية التى تتناوب القلوب الإنسانية . ولا مصير لأمة أو لفرد  
إلا استوحت الأقدار عواطف النفوس قبل إبرامه . عائشة تعلم هذا تمام العلم  
لأنها في الفتنة القائمة أمثولة الحية . . . فما بالها أغفلته من حسابها اليوم ؟ .  
أم ترى آثرت أن تنساه لحظة من زمان وهي تحسب أن فسحة الوقت التى مضت  
راكدة بعد وفاة الرسول قد سلت بذرة النفور من قلب ضررتها ؟ . . إن الزمن  
لم يفعل شيئاً ، ولم يشفها هى أيضاً من شعورها العابر ، وما استطاع فيما نرى  
إلا أن يغيب إحساسهما المتبادل تحت متر رقيق من أعوامه . فلعلها أسيت بعد  
أن تقدمت إلى أم سلمة تستنصرها على الإمام وأخفقت فيما ترجوه . ولعلها  
قد استشعرت طعم الندم بعد هذا الرد الذى جاءها ناطقاً باللام . فما كان أغناها  
عنه وعما طوى من ترفع واستعلاء . أفماشت حتى ترى تلك تزجيتها النصح وتبصرها  
بمواطن النعى والرشاد ؟ . أما زالت في عين السيدة نفس الطفلة الصغيرة  
الفريرة التى يلزمها التدبر ويعوزها حسن الإدراك ؟ .

في الحق أبداها النصح — في عين نفسها أيضاً — صغيرة ، هى السيدة



الأولى في الإسلام التي يتلقف الناس الحكمة من طرف لسانها وينهلون من علمها كما يفعل الظالم بنبع الماء ، يقبل وهو صاد ويصدر وهو ريان . . . ولكن ضررتها المتمرسة بالحياة عرفت كيف تلعب أمامها دور المؤدب، وراحت بين وقت وآخر ترسم لها طريق السداد . . . فلم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي تقدمت فيها إليها بالنصح ، ولم ينته عندها دورها الكبير ! وكم طالما بذلت لها الحكمة في رفق ، ، وبصرتها بعاقبة ما تسير فيه غير مدخرة وسعاً في الكشف لها عن الحقائق التي سترها هوى النفوس . بل قد عمدت في أحاديثها إلى صفحات من حياة الرسول قلبها أمام ناظرها لتريها آيات من إعزازه وتقديره للإمام ، ولتبدي لها صوراً واضحة المعالم بليغة الدلالات قال فيها الإلهام النبوي كلمته العليا في قدر هذا المظلوم وما سوف يترتب له به أعداؤه البغاة . . . وإن قصة واحدة مما روته لها أم سلمة كانت حرية وحدها بتنكيس السيوف المشرعة وتفريق الجند المتأهب لهذا النضال الحرام . ولكن القدر كان قد أبرم قضاءه فلم يهد النصح المبذول . وكانت القلوب الشائنة قد امتلأت إلى حاقها بأحقاد الماضي ولا بد لها أن تفيض . وعميت العيون التي عصبتها الأغراض فراح أصحابها يتخبطون في الظلمات المتراكبة حولهم ولا يشعرون أنهم يقتحمون درب الضلال .

على أي حال وضعت عائشة نصيح السيدة دبر أذنيها فلم تع منه إلا أنه أتاها على لسان ضرة . . . ومضت في سبيلها تستعدي على غريمها من توسمت فيهم الاستجابة لدعوتها مبادرين . وما كان أكثر من جمعها وأياهم وحدة الفكر واتساق الشعور . . . فلتول إذن وجهها إلى معسكرها . . . إلى الذين يدينون لها بالولاء وتنفى ذواتهم في شخصيتها القوية الطاغية . وإذا أريد لدعوة أن تبلغ الأسماع وتهفو النفوس لها بالانصياع فليتلّف بها أولاً صاحب هيبة أو اسم رنان . وكان هذا ميسوراً اليوم بعد أن انحاز الزبير وطلحة إلى الدعوة فضمنت بهما نصرة الكثير من رجالهم بالكوفة والبصرة . ولكنها شاءت أيضاً لحركتها أن تبدو لغير غرض دنيوي خاص ، وفي سبيل شيء آخر سوى التناحر على الخلافة وجاء السلطان . ولم يكن خافياً عليها أن صاحبها هذين قد أغرقتهما الأطماع

السياسية حق الأذنين ، وأن وجودها - دون سواها من ذوى الماضى البراق -  
إلى جوارها قد يدمغ الدعوة بسمة التطلع إلى زخرف المنصب . فراحت تجد لتضم  
إليها نوعاً آخر من العلية الذين لم تعلق بأذيالهم أمثال هذه الشبهات .

ولم يكن هذا عليها بعزير - هكذا لاح لها الأمر فى بدئه ومكة إذ ذاك  
تموج فى موسم الحج بنخبة من الرجال والنساء توفى سمعهم على مراتب القداسة ،  
ولأسمائهم رنة فى الأسماء تغزو لها قلوب عامة القوم بالإكبار . وهل ثمة أثر عند  
الناس من أزواج الرسول ؟ . . . إنهم يتسمعون من ثيابهن روح الهداية ويتبعونهن  
كما يتبعون مشاعل نور . وإن كانت أم سلمة قد أبت الانحياز فحسب عائشة سواها  
كثيرات . بل كفاها من يبينهن أن تضم ابنة عمر الجبار .

وكرة ثانية وحدث العاطفة بين السيدتين ابنتى أول خليفتين فى الإسلام .  
فكأنما عاد الحزب القرشى المناهض للخلافة الطبيعية إلى الحياة . وكأنما بعث  
أبو بكر وعمر إلى هذه الدنيا يعيدان ما أبرماه فى البدء ويحولان بين على وبين  
حقه فى ولاية الأمر كما فعلا غب موت الرسول . ولم يكن عجيباً أن تنهاز حفصة  
إلى جانب عائشة وتشد أزرها فى إشعال نار الفتنة المقبلة ، بل العجب لو ترددت  
أيما تردد هى التى كانت ذيلها طول حياتهما الزوجية تعمل برأيها ، وتسير على  
السنن الذى رسمه حتى فى الشئون البيتية ، وترجح كفتها على الدوام لو وقع بينها  
وبين غيرها من الزوجات أدنى خلاف . . . . إن ابنة عمر الجبار لم تنحلها الأقدار  
شيئاً من شخصية أبيها العاتية فرضيت من قبل أن تعيش فى ظلال عائشة ، وهى  
اليوم تلعب دورها السابق بنفس الإتيقان ، سواء أكان مرد هذا إلى اعتيادها  
عليه أم إلى بقية من شعورها القديم بالنفور من الرجل الذى نافس أباه ذات  
يوم على سلطان الإسلام . . . . أما بقية من كن بمكة من أزواج محمد فأمرهن  
على عائشة هين ، فقد ألفوا الانقياد لها وهى بعد طفله حين كان لها فى بيوت  
الرسول ما يشبه العرش والصولجان . . . . وها هن أولاء فى ركابها ثانية ، أشارت  
فتبعنها مسلمات الوجوه ، تماماً كما كن فى الماضى لا يصدرن عن عمل قد يغضب  
سيدة الزوجات . . . .

فلعل عائشة حسبت أنها قد كسبت بهن قوة ، وخرجت بالدعوة من دائرة الشبهة في خضوعها لشرعة السياسة إلى نطاق العمل في سبيل مطلب سام يتطلب الفداء ونكران الذات . ولكنها في الواقع ظلت بعيدة عن الرضا بما فازت به ، وظل أصحابها أيضاً كذلك . وهل فات الناس أن يتبينوا الحقائق الخفية من وراء هذا الستار الرقيق ؟ . . هل يستطيع انضمام زوجات رسول الله إلى دعوتها أن يجعلها في عيوسهم خالصة لوجه الحق بعيدة عن المطامع والآراب ؟ . . هل يستر انحيازهن إلى صفها ما كان معروفاً من تكالب كل من عداهن في ذلك الحزب على أبهة الحكم إن طلحة نفسه استشعر في حركتهم ثغرة وجب أن يسدوها حتى يستقيم لهم الأمر باطمئنان الناس إلى خلوص الدعوة من الأطماع الذاتية وبعدها عن أن تكون مطية لخدمة غرض خاص . وكاشف بهذا صاحبه الزير ذات يوم :

« . . . ليس شيء أنفع ولا أبلغ في استمالة أهواء الناس من أن نشخص لعبد الله بن عمر . . . »

فأسرع يستجيب له . وانطلقا سوياً إلى الرجل الذي لا يشك امرؤ مطلقاً في أنه قد باعد ما بينه وبين الدنيا واشترى دينه بزخرف الحياة . . . فلو أن مثله انضم إلى الحزب لكان عنواننا براقاً أمام الشعب . . .

قلنا له يبسطان الأمر بالطريقة التي يحسبانها تغريه :

« يا أبا عبد الرحمن . . إن أمنا عائشة خفت لهذا الأمر رجاء الإصلاح بين الناس . فاشخص معنا ، فإن لك بها أسوة . . فإن بايعنا الناس فأنت أحق بها . » فما أبهظ الثمن الذي يعدانه لو أنهما صدقاه القول . . . ولكنه في حساب النفوس النقية هين تافه ، وإن كان جاء للنصب ، وإن كان عز الدنيا ، وإن كان عرشاً يضم ما بين قرني الشمس . . .

وتبسم لهما ضاحكا ، ثم قال بهدوء :

« ... أتريدان أن تخرجاني من بيتي ثم تلقياني بين مخالب ابن أبي طالب ؟ »

أيها الشيخان ، إن الناس إنما يخذعون بالدينار والدرهم ، وقد تركت هذا الأمر ،  
فانصرفا عنى . . . »

فخرجا من لدنه وقد خبا في صدريهما أمل وهاج . ومع ذلك فلا بد للقافلة  
أن تسير . . . لقد قطعنا من الشوط مراحل طويلة وجب بعدها أن يتأخر الرحلة .  
أما إلى أين المسير فهذا لعائشة وحدها تبث فيه ، وما عليهما إلا الاثثار بما تراه  
لأنها تضفي بشخصيتها على حركتهما نوعا من القداسة في أعين الكثيرين وهو  
أمر له حسابه في نجاح المشروع . .

كانت ابنة أبي بكر منذ البدء ترى تسديد الضربة أولا إلى القلب فتداعى  
بعده سائر الأعضاء ، وتخف ، لو نجحت ، بقية الأمصار في الدولة الإسلامية  
إلى الخضوع . وكانت الخطة في ظاهرها معقولة ، تتفق وما قامت فيه من وجوب  
القضاء على رجال الثورة التي قضت على عثمان . وإذا رأت أولئك الغوغاء قد لاذوا  
بالمدينة ، وانتف بهم الأعراب والمبيد فيها ، فقد بان لها أن السير إليهم هو العمل  
الوحيد الذي يخلص منهم حاضرة الإسلام ويستأصل شأفتهم من بقية البلاد . .  
ولم يكن رأى الزبير وطلحة يعارض هذا التدبير — أو هكذا فهم الناس مما ردداه .  
ولكنهما اليوم يستشعران رهبة ، ويتوقعان فشلا ساحقا لهذه الحملة العسكرية  
المعدة يقضى إلى أبد الدهر على حلمهما المنشود . فما لرجالهم طاقة بأولئك التأثيرين  
التأهيبين لرد القصاص المنتظر غاية التأهب . ولن يدع ابن أبي طالب أيضا عاصمته  
نهبا مستباحا للقوى المقتتلة تفعل بها ما تشاء وهو جالس يقلب ناظريه في سكون.  
إنه صاحب الرأى الأخير ، وله حق الدفاع عن دولته أمام أى الناس تحدته  
نفسه بحمل السلاح ، وليس يملك سواه إقرار النظام فيها سواء بالقضاء على  
عناصر الشغب أو بالضرب على أيدي غيرهم ممن يحاولون الانفراد دونه بالعمل  
كأنهم قوامون عليه . ولقد أوضح لهم رأيه من قبل ، ودعاهم إلى الحذر والترث  
حق تسكن الفتنة ، ويتبين كل موقفه منها ، وتخف قبضة الثوار عن عنق الدولة  
وهو اليوم كمثل بالأمس ، لن يدع هيئته ملهاة في يدي عابث يسترعبه بالنار  
لظلم . وهبه خلى بينهم وبين ما يريدون ثم أظهرهم الله على التأثيرين .

أفئمة نتيجة سينجاب عنها النصر إلا استتباب الأمر لابن أبي طالب وتوطيد دعائم نظامه ؟ . . .

لغير هذه الحاجة جيشوا الجيوش ! . . . ولو قد كانوا حقاً مخلصين لما ادعوه من وجوب القضاء على عوامل الشعب وتخليص الأمة الإسلامية من شرورها ، إذن لو سمعهم أن يتلاقوا والإمام في نقطة يبدأون العمل منها سوياً . وما كان أهون عليهم لو أبدوا له الرغبة في الائتلاف للقضاء على العدو المشترك وأبلغوه أنهم يملكون بمكة قوى تأخر بأمره إن أشار وتنتظر كلمة منه فتقبل مدداً . ولكن قصة عملهم على حق الثوار لم تكن غاية يجدون في سبيلها لذاتها بغية إعلاء كلمة الحق أو تطهير الدولة من فساد محقق ، بل هي وسيلة أريد بها اضطراب أمره ، وذريعة للقضاء على سلطانه قبل أي شيء سواه .

فليس الصاحبان إذاً رأياً . وليجمعنا الأنصار والأتباع يعرضان عليهم خلاصة هذا التفكير عسى أن يفوزوا برأي جديد كفيل بما يرومان . وما أيسر إقناع عائشة بالتخلي عن خطتها ، إذا أجمعوا هم الرأي ، ورسوموا النهج الذي به يقضون أولاً على دولة الإمام ! . . .

### ٣

جمعتهم دار عائشة ، ندوة أصحاب الفتنة المتآمرين إذ ذاك . وغلقت أبوابها عليهم أعواناً وأولياء وكانوا بالأمس خصوماً وأعداء . . . ولكنها شرعة المطامع والأهواء تستذل النفوس حتى لتعرضها في السوق سلعة رخيصة ، تقوم بجاء منصب أو يريق دينار !

مامن رجل فيهم إلا استبق به مأربه إلى هذا الاجتماع . . . لوحت لهم الدنيا فتبعوها ، وما كانت لتقودهم إلى صواب ! . . . إن منهم من خدعته مظاهر الأمور فلم يرسل عينه لتكشف الحقائق الراسبة في الأعماق . ومنهم من أضله هواء فسار كالمفتون كأنه طائر استهوته حية رقطاع فزحف إلى جحرها وهو مبصر

وليس يفظان ! . . . ومنهم من لعله علم وقدر ثم آثر أن ينضى قدما على أشلاء صميره الملقاة في الطريق ! . . . ولكنهم كلهم جمعهم هدف ووحدتهم فكرة ، وهم اليوم يجهدون لتحقيق رغباتهم وبلوغ آراهم من أيسر سبيل .

وحين بدأوا الحديث لم يكن ثمة امرؤ بمكة يجهل أنهم قد تجهزوا لغزو المدينة ، فهذا تحدث عائشة بعد المصرع ، وإليه دعت الناس . ولعلها اليوم وهي تشهد اجتماع صحبها من خلف ستار لم يطف بخلدائها أن خطتها تلك سوف يتناولها التعديل . وإنما اجتمعت بهم لتشاورهم في الأمر ، وتعرف ماسوف ينجاب عنه النقاش بعد أن أعدت العدة ، وتزودت لحمة « التطهير » بما تستطيع .

ومن البدء ظهر جليا أن غزو المدينة ، واقتحام العرين على أسده ليس عيسور . ذهبت الآن عنهم حدة الحماس . وأفسعت المواطن الصاخبة الطريق أمام العقل والتدبر . إنهم في كفاح تتأرجح فيه مصائرهم ، ويتجاذبهم الموت والحياة من طرفين . فأولى بهم إذن أن يدرسوا الموقف بهدوء ، ويتبينوا مواقع الخطأ قبل الإقدام . وهل يجديهم أن ينفذوا إلى هدفهم من أضيق باب ؟ .

لأول مرة منذ رفعوا راية العصيان يقرون راغمين بحكمة على ، ولا ينكرون — في ضمائرهم — بعد نظره وإدراكه السليم للحقائق التي كانت خافية عليهم من قبل أو التي أضلهم عنها هواهم . إن شعورهم ليهيب بهم أن يسددوا أولى الضربات لقلب المدينة عسى أن يقضوا بهذه على غريمهم المسك بأعنة السلطة . ولكن عقولهم تأبى عليهم الانسياق مع العاطفة الهرجاء ، وتقبض على خناق هاتفيها الملحاح . فإذا بهم يرتدون إلى ما ارتآه الإمام في البدء ، وما نصح به لصاحبيهما الزبير وطلحة من وجوب التريث وإرجاء مقاتلة الثوار حتى يمد عدته وها هي الكثرة منهم — وفيها الزعميان — ذلك اليوم بدار عائشة في البلدة الحرام ، تردد رأى على ، وتتوخى الأمانة في نقله بروحه ومعناه ، فنسمعها تقول دون حرج وبغير إخفاء .

« المدينة ؟ ... ليس لنا بأهلها طاقة ، فإن من معنا لا يقرنون بما بها من غوغاء . . . »

فأعظم بها كلمة حق من لسان باطل ! . . . وأين منها ادعاؤهم السالف أنهم ما خرجوا على سلطة الإمام إلا لأنه أبى عليهم رغبتهم في المبادرة بالقضاء على رجال الثورة الذين اغتالوا عثمان ؟ . . . إنهم اليوم قد جمعوا الجند والسلاح فلم أحجموا عن المسير إلى وكر الفتنة ! . . . وكيف يؤثرون — وهم في قوتهم المتأهبة — نفس التريث الذي نصحبهم به أمير المؤمنين حين كان في وهن لا يسده عتاد وجنود ؟ . . . إن لسان العقول الذي نطقوا به اليوم قد أنصف — يرغمهم — عليا ، وغسل ما أعلقوه بثوبه من ادعائهم القديم ، ثم هلهل عنهم مسوح الرياء التي طالما خطرُوا بها أمام السذج من الجماهير . فما كانت رغبتهم في الثأر لعثمان ، ولا حرصهم على تخلص الأمة من طغيان الثوار ، ولا أى من الأسباب التي اعتسفوها هي الدافع لهم على العصيان . . .

وتداولوا فيما بينهم الآراء وعائشة من وراء سترها تنصت ولا يغيب عنها حرف . وبدأت الشام لهم ملاذاً أميناً ، وبؤرة تنتشر منها جيوشهم الغازية فتغطي بقية أمصار الدولة وتقضى على الحكم السكروه . وتلقف الزبير الرأي بحماس ، ثم راح يقول :

« نعم إلى الشام ، فيها الرجال والأموال ، وعليها ابن عم الرجل ، ومتي نجتمع يولنا معاوية . . . » .

ثم ألقى عينه على طلحة ليرى أثر هذا الحديث فيه بما احتواه من أمل معسول . ولكن يعلى بن منية كان أقدر من زعيمه على استشفاف الحقائق فصاح وفي صوته رنة تحذير :

« أيها الشيخان ، قدرا قبل أن ترحلا . . . » .

« ققل . . . » .

« إن معاوية قد سبقكم إلى الشام وفيها الجماعة ، وأنتم تقدمون عليه غدا في فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم . . . أفرايتم إن دفعكم عن الشام أو قال أجعلها شورى ، أتقاتلونه ؟ . . . أم تجعلونها شورى فتخرجوا منها ؟ . . . » .  
فلم يدريا ما يقولان . ما زال الخطر الذي يهدد أحدهما جاثماً بالشمال ! . .

وما كانا ليغفلا عن هذا ، اليوم ، وما أغفلاه من قبل ، ولكنها السياسة اللينة تعرف كيف تهادن بين الأعداء المتنافسين حتى حين ، وتدفع الألف إلى المصافحة إبداء للأمن والطمأنينة وإن انطوت القلوب على توجس مدفون . ولقد صدقهما اليوم ابن منية وأخلص لها النية . فما عبرت كلماته إلا عما انطوى ذهنهما عليه . فثمة بدمشق قد ربض الغول الأموى يتحفز للوثوب بغية اقتناص الفريسة من الغاصب المرتقب بعد المغصوب . . . .

وسار الحديث ثانية في فنون فلم يعنيا بالجدل الذى أسفر عنه . بل راحا من أفكارهما فى غمار . . . وكانت عائشة ما زالت تصغى للقوم من وراء حجابها والقلق ينهب قلبها خشية أن ينتهى بهم نقاشهم إلى خلاف يحجر التخاذل . وكان مروان بن الحكم قد زم شفثيه واكتفى ببسمة صفراء تلون ثغره وتبدى من سخريته ما أراد ألا تكشفه الكلمات : فهو مؤمن بالنتيجة المقدورة ، عالم بها قبل أن تنحسر عنها أسجاف الغيب المجهول . . . وهل راوده الشك لحظة واحدة فى أنهم الأداة الطيبة التى سيلتقط بها بنو أمية شرائح الشواء الشهية من فوق النار؟ . . . وكان ابن عامر وسعيد بن العاص يتلاحيان ، ويرمى ثانيهما الأول بنقيصة الجبن إذ فر من البصرة ولم يكفكف فتنتها عليه فيكفيهم مصرا آخر يدين اليوم بطاعة الإمام كما كفاهم معاوية الشام . . .

على أن مروان لا ينى خبثه يلح عليه ، ولا تنى رغبته فى العبث بالصاحبين تراود نفسه حتى يستجيب لها ، ويقذف الشيخين بنصيحة هى فى حقيقتها أحبولة صائد أعداء لصيد غرير . . . يقول كأنه يخلص المشورة ويمحصهما النصيح الذى يرمى بكل ما عداه :

« ما يمنعكما أن تدعوا الناس إلى بيعه مثل بيعه على ؟ . . . لأن أجاوبكما فقد عارضته ببيعه كييعته . وإن لم فقد عرفتما ما لكما فى نفوس الناس . . . » .  
فلو أجاباه لهتكا إذن الستر الذى يبقى عليهما بعض الهيبة والتقدير فى أعين الكثيرين من الأتباع . فقد حرصا دائماً على إخفاء العرض الحقيقى لهذه الحركة ونأيا جهدهما عن الظهور بمظهر الطامع فى الحكم ، المشغوف بابتزازه ولو على



حساب المبادىء . فأحر بهما لو طلبا البيعة أن يبدوا على تقيض ما يرجوان  
فينفض عنهما من أحسنوا بهما الظن فضلا عن وقوفهما من أمير المؤمنين موقف  
عداء سافر صريح .

فلعلمهما انتبها لأحبولة مروان وما تسوقهما إليه من خطر قبل أن يؤلفا  
حولها بقية الأمصار . . أو لعلمهما حسابها آية من آيات غفلته وليس العهد بحمقه  
وضعف رأيه عليهما ببعيد . . أو لعلمهما أرادا الإبقاء على المظاهر المضللة حتى  
يثين الكشف عن الأغراض المستورة . وكيفما كان ما فهماه من مرامي هذه  
النصيحة فإنهما رفضاها دون تردد ، فقال طلحة بحذر السياسى ولباقته :

« إن الناس بايعوا عليا بيعة عامة ، فبم نقضها ؟ »

وعقب الزبير ، الرجل الصريح الذى يثب قلبه دائماً إلى طرف لسانه :

« ويعننا أيضا ثناقلنا عن نصرة عثمان وخفتنا إلى بيعة على ! » .

فهز مروان كتفيه بلا مبالاة وهو يقلب بصره فى الوجوه . إنه على أى  
حال لن يعدم فرصة أخرى يستطيع أن ينصب فيها شراكه ويوقع الصيد ،  
وموعدها فى حساباته قريب . وران الصمت قليلا على القوم ، لحظات أوشك فيها  
تخاذلهم أن يتجسم حقيقة ماثلة بعد أن فشلوا حتى الآن فى الإجماع على قرار . . .  
ولكن ابن عامر أناهم فى اللحظة الأخيرة برأى يكشف الأزمة ، دبت به  
فى أذهانهم الحياة . . . قال وهو يوجه الخطاب إلى زعيمى الجمع :

« اذهبوا إلى البصرة ، فإن لى بها صنائع » .

البصرة ؟ . . . كيف فاتهما أن يفطنا إليها من قبل ؟ . . . أو الكوفة فهما  
سيان ؟ . . . وهل كشعبيهما فى الدولة الإسلامية شعوب تنضم قلوب أهلها على  
مثل ما يحسه نحوها أهل المصرين ؟ . . . ومن أولى باحتضان دعوتهما ونصرتها  
منها ، ولها هوى فى طلحة معروف ؟

أحسن إذن عبد الله ! . . . إنه قد لمح الإعجاب برأيه تلتهم به عيون الشيخين .  
ورأى أيضاً المواقفة تكاد تلعب على شفاه أكثر المجتمعين ، فسارع يعزز اقتراحه ،  
ويلقى بما يؤيده أمام القوم :

« اذهبوا إلى البصرة أيها الشيخان : فإن غلبتم علينا فلكم الشام ، وإن غلبكم على كان معاوية لكم جنة . . . وهذه كتب أهل البصرة إلى . . . »

هذه حقا هي الخطوة المثلى ، وما أجدرها بالتزامها ما دامت توفر لهما نصراً يعز في سواها . ثم هي قبل هذا كفيلة بأن تبقى هيتهما عند معاوية ، وتدنيه من الولاء لهما دون أن تقسرها على الولاء له . فيها سيصبحان في منعة ، ولن يكونا كلا على ابن أبي سفيان ينزلان عند أمره ويتبعانه كالظل . بل ستكون لهما الكلمة ، ويكون الرجل في أيديهما أداة . . .

وتدبر مروان الرأي في دخيلته . لتكاد هذه الخطوة أن تبعتها عن كف سيد بيته وعن العمل كهواه ومستطلق أيديهما ولو إلى حين . ومع ذلك فليس ثمة من حرج عليه أن يظهر الموافقة ويتبعهما أينما يسيران . فأيان ذهباً سيستطيع أن ينصب شراكه ؛ وما أهونه من حمى يقودها إليه ابن عامر الرجل الذي هان شأنه على أهل إقليمه وهو أمير مزود بالنفوذ فقام يدعى الآن القدرة على امتلاك ناصية البصرة وهو الهارب الطريد . . .

ونادى هاتف القوم عائشة من وراء الحجاب :

« يا أم المؤمنين . دعي المدينة ، فإن من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها . واشخصي معنا إلى البصرة ، فإننا نأتي بلدا مضيقا ، وسيحتجون علينا فيه ببيعة على بن أبي طالب فتنهضينهم كما أنهضت أهل مكة . . . »

## ٤

أبرموا الأمر . . . حسبهم أن أقرتهم عليه عائشة وتركتم عزمها القديم على اقتحام المدينة ، فما كان شأنهم ليستقيم لو أنها خالفتهم ولها كل هذا النفوذ الروحي عند عامة الناس . ووافقهم أيضاً مروان ، عميد الأمويين بالحجاز ، والحليف الذي لا بد سينقاد له أهل بيته ، وكل مغلوب على أطماعه من حاشية عثمان ، وكل عامل في دولته النهارية يحسب أن نفوذه لا بقاء له في ظلال حكم الإمام .

وسوف يأمن أصحاب الفتنة بهذا كله معاوية ، ويؤلفون وإياه حلفاً عاطفياً ينتهى  
حتماً لحلف سياسى تباركه وحدة الهدف واتساق العمل الجاهد لبلوغ غايتهم  
المشتركة . فهل ينتقض من عنفوانه حركة المقاومة التى دبروها ألا يتعمس لها  
سعيد بن العاص أو ينأى بجانبه كما بدا منه قبيل ختام الاجتماع ؟ .

كلا ١ . ففي غيره من زملائه غناء . بل هو أدنى إلى النزول على عزمهم  
ومتابعهم لرجد الجدد وأخذ ركبهم فى المسير . فلقد كانوا أعلم به من نفسه وأعلم  
بأمثاله من عباد الجاه . . . . حسبوا هذا حتى ركنوا إليه كأنه يقين ، وباتوا على  
ثقة من معونة أصحاب المآرب والغايات . إن الأحلام غذاء شهى لبعض الأذهان  
ولهم منها ذخير لا ينفد معينه . . . وهذا طلحة قبلهم يبسم الأمل فى خاطره  
وتهاوى عليه المنى السواطع . فلم يعد يرى طريق البصرة خطوته الأولى بعد  
كفاح مرير بقدر ما كان يراه مجازاً إلى النصر . . . . وإنه ليكاد أن يجده  
مفروشاً بالرهور ، ممتداً حتى يلتقى الأفق دون أن تعترضه العقبات والصعاب .  
وهل يسمعه أن يغفل بها حزبه القوي والدور الذى لا ريب سيلعبه فيستميل  
أهلها إلى جانبه ويخنج بهم إلى الطاعة لدولته المنتظرة ؟ . . أما الكوفة فأمرها  
وأمر أختها سواء ، وحين يطلق أولى علائم الفتنة القريبة متعنو هي الأخرى له  
وبها حزب الزبير صاحبه يعرف كيف يجذبها إلى الخضوع أو تنعذر عن أطرافها  
سيول جيشهما اللجب من البصرة فتحمل قومها على احترام منطق السيف ؟ ...  
وما أضعف حيلة ابن أبى طالب بعد هذا وما أقل خطره أمام قوة هذين الإقليمين  
وبأس حليفتهما الأموية بالشمال ١ .

ومع ذلك فقد آثر الصاحبان ألا يغفلا أثر العوامل المادية فى تدبيرهما المقرر .  
ولم ينسيا الحذر فى غمرة الحلم الجميل تمام الفسيان . فأولى بهما أن يعدا كل عدة ،  
ويضربا فى سبيل غايتهم بالظفر وبالناص . . وما دامت لابن عامر صنائع بالبصرة  
فلتكن لها مددا . وليجندا منها دعاة يشدون الأزر ويعملون وأولياءها فى نفس  
الميدان . أليس على قدر قوة الضربة المسددة إلى صدر على يكون تداعى بنيانه ؟ .  
وهل تكتيل القوى وتجميعها سوى العامل الكفيل بتعجل ساعة النصر الرقوب ؟

ومتى كان للزمن حسابه انذى يتقدم على كل حساب إن لم يكن ذلك فى أوقات الكفاح والصراع ؟ .

لهذا قادها التفكير ، وبه أغرتهم الكتب التى حدثهما ابن عامر أنها جاءت به تحمل فى طواياها رغبة صفوة البصريين فى خلع طاعة الإمام . فلم يكن عجباً أن يشاوراه ويلتمسا عنده ما يحقق الخروج بالنوايا المكتوبة إلى مجال العمل الحاسم السريع . . سأله الزبير :

« ومن رجال البصرة يا عبد الله ؟ . »

فقال :

« ثلاثة كلهم سيد مطاع . . كعب بن سور فى اليمن ، والمنذر بن ربيعة فى ربيعة ، والأحنف بن قيس فى البصرة . »

فما بارحوا مكانهم حتى كتبوا لهم يستنهضوهم ويستنهضون بهم أقوامهم للغضب من أجل عثمان ، وللقيام فى ثأره ، وللتأهب لاستقبال جيشهم السائر نحو البصرة الاستقبال المرجو منهم ، والحقيق بسادة مثلهم أن يبادروا إليه . . . وإنك لتلمح فى الكتب ما يثير النخوة ، ويتعلق حتى مفخر الجاهلية القديمة . . اسمعهم كيف أهابوا بهذه الأجداد التى تقدر الثأر فى كلمتهم المبعوثة إلى ابن ربيعة : « . . . إن أبالك كان رئيساً فى الجاهلية ، وسيدا فى الإسلام . . . وإنك من أهلك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . . . ولقد قتل عثمان من أنت خير منه ، وغضب له من هو خير منك . . . »

ومع ذلك فما أغنت عنهم كتبهم فتىلاً . . . لم تؤجج حمية النفوس ، ولم تشعل نار الفتنة المنتظرة . . . ولعل أبلغ رد جاءهم هو ما بعث به إليهم ابن ذلك الرئيس الجاهلى المجيد ! . . فقد كتب لهم فى إيجاز :

« إنه لم يلحقنى بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر ، وإنما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس وقد كان بين أظهركم نخذلتموه . . . »

فأصدق بها من كلمة صورت لهم حقيقة ما وعته عنهم القلوب . . . وهل ظنوا ، هم الذين استعدوا لهم شيعة من البصرة على عثمان وهو فى عقر داره حتى حانت ساعة مصيره ، أن الشعب بها قد فاته ما كانوا دبروه لعثمان بالأمس . . .

لو أن طلحة أنصف لما قام في الأمر بنفسه ، ولكن ومعه أن يعمل فيه من خلف قفاز يخفي كفه التي جنت على الشيخ المقتول . ولكن الأهواء لا ترى الحقائق وإن تجلت سافرة كشمس الصيف . ورجل بني تيم يستطيع النسيان حين يريد ، ويستطيع أيضاً أن يغري غيره على النسيان . فليس كصاحبه الزبير الذي يستبق الحق على لسانه فيقر بالذنب ويعلم الندم عليه . . بل هو ماهر في مداورة الناس ومداورة نفسه على السواء ! . .

لم تلق إذن دعوتهم بالبصرة أذنا سمیة ، ولم يسارع أهلها إلى طاعتهم وعونهم كما حسبوا ، وكما صور لهم حديث ابن عامر عن صنائمه . . . بان لهم الآن أن سعيد بن العاص لم يكن متجنبا على زميله كل التجنى حين لاحاه خلال اجتماعهم بدار عائشة ، ونصحهم ألا يركنوا إلى كلامه المعسول . . . وراحت كلمات سعيد تفرع ثانية آذانهم ، أعلى جرما منها من قبل ، وأحد نبرة كأنها صوت نذير : « . . . يدعوكم إلى البصرة وقد فر من أهلها فرار العبد الآبق وهم في طاعة عثمان ، ويريد أن يقاتل بهم علماً وهم في طاعة علي ! » .

إن السخرية لتقطر منها فياضة ثم يكون لها في قلبی الصاحبين مثل طعم العلم المرير . أما الحيلة فقد ولى زمنها الآن ، والنصح الذي رغبا عنه ذهب مع الماضي ولم يعد في مقدورها العودة إلى الانتفاع به . فقد جاءت مشورة ابن عامر بنقيض المرجو من ورائها . وبعد أن كانت لها بالبصرة كلمة مسموعة لعلها كانت كفيلة بلف قومها حولها لو أحسنا استغلال الظروف ، أصبحا اليوم والبلدة تكاد تجمع على استنكار الدعوة التي بثاها فيها بعد أن نهبت كتبهما أذهان كثير من أهلها — وفيهم صنائع ابن عامر نفسه ! — إلى ضعف الحجة التي توسل بها لترير العصيان . وكفاها أن كتبهما تلك قد استقبلت بالبصرة أسوأ استقبال حين ورودها عليها . فما هو أن تلقفها أولئك السادة وأظهروا عليها الناس حتى أقبلت وقودهم من كل مكان يعلنون رأيهم في الفتنة وفي مشيرها . ووقف فيهم من خطبهم فقال :

« مالنا ولهذا الحى من قريش . . . يريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد

أن دخلنا فيه ، ويدخلونا في الشرك بعد أن خرجنا منه ؟ . . . لقد قتلوا عثمان وبايعوا عليا ، فلهم ما لهم ، وعليهم ما عليهم . . . » .

هذه هي السياسة التي حددها لنفسهم أهل البصرة ، ورسوموا بها موقفهم من الفتنة المقبلة . إنها سياسة حياد صريح ، لا يتعيف ملتزموه على فريق من أجل فريق ، ولا يبادرون بالنفخ في نار لم يشعلوها هم جذوتها الأولى . فالرأى عندهم هو أن الأمر أمر العاصمة الإسلامية قبل غيرها من البلاد ، وأمر أهلها من المهاجرين والأنصار قبل غيرهم من المواطنين . . . فهم قتلوا وهم ولوا ، وعليهم التبعة من قبل ومن بعد ، وليس لسواهم أن يقحم نفسه فيما لم يكن له فيه رأى ولا مشورة . وهي ذات السياسة التي التزمها عثمان ابن حنيف عامل الإمام بالبصرة حين أقبلت عليها جيوش عائشة وكان بها معبرا عن الرأى العام في ولايته أصدق التعبير . فلم يبادر الرجل بقتال جحافل المتمردين ، ولا هز في وجوههم قناة إذ ذاك . بل صبر عليهم . وترك لشعبه أن ينضم إليهم منه من شاء دون إكراه . وأمهل لهم حتى آذوه ، وتقضوا عهده ، وجازوه شر الجزاء على هذا التسامح الكريم . . .

وعاود أصحاب الفتنة مرة ثانية شعورهم بالنقص ، وبحاجتهم إلى الشخصية التي تضي على حركتهم قوة معنوية في أعين الناس بعد هذا الخذلان الذي نهم عنه موقف البصرة . . . كرة أخرى وجب أن يقنعوا الشعب بتجرد هذه الحركة عن المطامع الذاتية وبعدها عن خدمة أغراض خاصة لا مرمى أو لسواء ، فما يتحقق النجاح لأمر لم يستهدف غاية مثلى تستجيب لها العواطف النبيلة . . . وهل أبلغ في استهالة أهواء النفوس من رجل نقي الصفحة لم تشب ماضيه شائبة ، ولم يدمع من قبل بسمة التطلع إلى زخرف الحياة ؟ . . .

وكأنما عجموا الأعواد فلم يروا فيها أقوم من ابن عمر في ذلك الوقت الذي أخذت فيه النفوس تنحرف عن الجادة وراحت الدنيا تجذب وراءها البقية الباقية من صفوة صحب رسول الله . عبد الله له وحده في قلوب أمته مكانة إذ هو وحيد رجال الشورى الذين لم يطمعوا قط في الخلافة ، ولم تجرفه تيارات السياسة

المهوجاء من قبل ، ولم يأخذ من الدنيا أبداً بنصيب لفرط ورعه وعزوفه عنها ، بل كان فيها يعيش كالغريب منطويا على نفسه ، قد اتخذها لحسب حجازا إلى آخرته . . . . . ومع أنهم أخفقوا من قبل في جذبته إلى جانبهم ، فقد رأوا الحاجة تدفعهم ثانية إليه عسى أن ينجحوا اليوم فيتخذوه علما للدعوة يلتفت به الكثير من العارفين بنقائه . فإن هو أن تحدث مروان في شأنه إلى الزبير وطلحة حتي أسرع إليه الشيخان . . . .

ولسكنهما في هذه المرة أبعدا عنهما ظنون معيها إلى ابتزاز السلطان من ابن أبي طالب ، وحاولا أن يرصما صورة جديدة أنيقة تبدى رغبتهما في جمع كلمة الأمة الإسلامية ، وتجنبيها الفرقة الوشيكة أن تقع في صفوفها بسبب اختلاف البلاد على الإمام ، وقيام بعضها بالدعوة لسواه . . . .

قالا له وهما يخلطان الذنب بالتوبة ، ويلقيان على غيرها أمر الخلاف ، ثم يبدیان الرأي الذي يريانه يحسم الأمور :

« يا أبا عبد الرحمن . . . إنه والله لرب حق ضيعناه وتركناه فلما حضر العذر قضيناه بالحق فيه . . . إن عليا يرى إتقاذ بيعته ، ومعاوية لا يرى أن يبايع له ، وإنا نردها شوري . فإن سرت معنا ومع أم المؤمنين صلحت الأمور ، وإلا فهي الهلكة . . . »

فتمهل الزاهد برهة قبل أن يجيب بنبرة اعتذار :

« إن يكن قولك حقا ففضلا ضيعت ، وإن يكن باطلا فشر منه نجوت ا » ثم ارتفع فجأة صوته ، ورمى إليهما بنظرة نقاذة ، وأردف يقول في صراحة مريفة :

« أيها الشيخان . . . اعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأنها المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف . . . لن يقاتل عليا إلا من كان خيرا منه . . . أما الشوري فقد والله كانت ، فقدم وأخرتما ، ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفياي أتنسكا . . . »

فغادراه دون أن يقدر على جواب . . . فلما أن قابلا مروان راح يوسوس لهما ثانية ، ويدفعهما إلى طريق جديد ظن أنهما يستطيعان من خلاله الفوز برضاء عبد الله . . . دفعهما إلى أم المؤمنين حفصة ورضاؤها عن خطتهم معروف ، ورأيها لرأى عائشة تبع من قبل ومن بعد في كل أمر من الأمور ، لعلها تعرف كيف تحمل أخاها على القبول .

ولكنها كانت أعلم به منهم ، وأعرف بعناده ، فردتهم عنه . وقالت تحجب الصاحبين :

« لو أطاعنى أطاع عائشة . . . دعاه . . . »

وبهذا فشل جهدهما فى التستر وراء امرئ نقى الصفحة من المطامع السياسية التى وسمهما بها القوم ووسمتهما جهودهما الدائبة من قبل على الظفر بالسيادة من كل سبيل . ولم يبق إلا أن يوجها الركب للمسير ، وحسبهما أن يكون فيه ابن عامر ، وابن عقبة ، ومروان وأضرابهم من الموغرة صدورهم ، المفتونين بالناصب وجاء السلطان . . .



دق طبل الحرب حين هتف منادى القوم فى أرجاء مكة :

« أيها الناس . . . إن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة . فمن كان يريد إعزاز الإسلام ، وقتال المحلين ، والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولا جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . . . »

فتمافت الناس من كل صوب ، قد استهوتهم الدعوة المغشاة بالجهاد كما يجتذب الضوء اللائع فراشات رقيقة . وأقبلوا يحملون رءوسهم على أكفهم ، ويلتحقون بكتائب أم المؤمنين .

وتم جهاز الجند ، وزودوا بالطايا والسلاح مما أعد ابن منيه وابن عامر بأموال اليمن والبصرة . والتأمت الصفوف ، وتهيأت قافلة القتال للمسير . . .



فإذا « عسكر » قد خلف مريضة ، وخطر أمام هذا الحشد الزاخر متلع الجيد في الفضاء ، ثم راح يدب مزهوا بين غيره من الإبل والنياق . ألعنه استيقن قدره من هذه الأنعام وعزته عليها براكته المهيبة التي هيأوه لها مطية ؟ . . . إنه ليتهادى والعيون ترمقه ، والقلوب تهفو نحوه ثم يستقر لمجها وخفقتها جميعا على هذا الهودج الفاخر المرتكز على سنامه . فهاهنا سيدة الموقف ، الصارخة الأولى في هذا الوادي وكل هذه الجموع أصداء . . . إنها تخلف اليوم الحذر إلى مهوى الأسنة والسهم المريشة . . . تترك رقة المرأة في بيتها وتخرج مع القوم فياضة القلب بحمية القتال . . . تسير بهذه الحشود إلى وديان الموت . . . حتى الهودج الذي احتواها فقد هو الآخر دلالة وبدا كحصن منيع يحمل نفوس من التفوا به على ارتقاب صراع خطير .

البلدة يتعذر أهلوها في دروبها كالسل ، رجالا ونسوة ، كأن هذه الدروب غدت أنهاراً من الناس ! فما من بيت أغلق بابه إذ ذاك على إنسان وما من أحد آثر القعود إلا القليل . بل خرحت جموعهم تسير في ظلال زوج الرسول . . . بعضهم قد التعف زرده ليكون درعا يدرأ عن السيدة قبل أن يدرأ عن نفسه ، وحمل سلاحه ليضرب في سبيلها به وإن اقتضاه الصراع أن يبل مواطئ قدمها بدمه المهرق . . . وبعضهم سار خلفها على هدى دمه ، لأن لساعة الوداع في القلوب وقعا تستجيب له العيون البوادر ، ولذا كألسنة النار هو نتاج الحشية على هذه الأمة من المصير الكامن وراء الفتنة المشبوبة . وحين انتهى بهم الموكب إلى « ذات عرق » وآن لركب القتال أن ينفصل عن مودعيه ، غامت الأعين المتطلعة ، وشرقت الحلوقة بالدموع المثالة ، وسجل القدر في كتابه ميلاد « يوم النعيب » ! . . . فلقد تجاوزت كشبان الرمل المبتوثة على الأديم بصوت بكاء القوم برج الأرض والسماء في آن . واهتزت الصحراء بأنة جامعة صدرت منهم فكأنها ندت من الفضاء الرحيب . . . لم يكن من قبل حزن كهذا ، وما أتيح للشمس أن تبرز من برجها على يوم كان أكثر منه باكياً للإسلام وباكياً عليه . - ذلك اليوم من ربيع الثاني ، الذي فتح الباب على مصراعيه أمام

الحرب الأهلية لتدلف منه أداتها الرهيبة تمزق وحدة الأمة الإسلامية وتدمر وشائج الصلات القائمة بين أولئك وهؤلاء من الإخوة في الوطن والله . . . .  
والتف زوجات محمد بصاحبتهن يذرفن الدمع أسى ولوعة ، ويبدن معه الأسف لهذا الفراق الذي لم يكن في الحسبان . . . . كن جميعا قد عاهدنها على المسير ، وأظهرن العزم ليكن في الركاب . ولكن اليوم ليس كالأمس ، والمقصد غير المقصد . وما يسمعن أن يسرن الآن وإياها على درب البصرة وقد كانت الوجهة المتفق عليها هي المدينة دون غيرها من البلدان . أما وقد اختلف المقصد فقد لدن بالعودة ، والأسى وحده يشيع السيدة الأولى عنهن ويسير خلفها حيثما تسير . والحسرة أيضاً لا تبرحها وقد رأت نفسها تنطلق في زحمة الحوادث وحيدة إلا برجال — وإن سميت بهم شجاعتهم — ليسوا ممن تطمئن القلوب التي لم تشبها الأغراض إلى نواياهم المكنونة . . . . وحتى حفصة تخلت هي الأخرى عنها . حفصة صفيتها وظلها الذي لا يغيب . . . . أم تخلفت برغمها حقاً كما أبلغوها إذ حال أخوها بينها وبين الخروج ؟ . . . . ويغفر الله لابن عمر . . . . إنه أبي أن يعد الحركة بقوة معنوية هي في أشد الحاجة إليها الآن ، فلم يقرن بها اسمه اللامع الرائق الصفاء ، ولا اسم أخته . . . . فياترى هل كان إباؤه هو الأسوة التي اتبعتها أمهات المؤمنين ؟ . . . .

لكم أضناها الفكر وهي قلب الأمر وتستعيد في ذهنها كل هذه القصة ، هذه الفصول الجريئة التي استهلتها بالتخذيل عن علي كتحذيلها عن عثمان إلى أن تصل بها الحاجة إلى اليوم الغيب القريب عندما تنطق الأسنة ويفتح الموت صدره مرحباً بالرجال . . . . إنها لا تعلم على أية هيئة سيكون ، ولكنها في دخيلتها تستشعر الرهبة حين تفكر فيه . فها هي تسير على أرض ميادة لا يستقر فوقها شيء ، خطوها المضطرب سوف يقودها دون ريب إلى مجاز رهيب ، كقطاع غاب يدلج بليل تتخطه مرايض الوحش ومسارب الأرقام كلما حرك قدميه . . . . الأفكار في خاطرها تتلاحق وتزدخر كموج اللجة في يوم عاصف مجنون الريح تختلط فيه لمحات الضوء الخاطف الرقيق بقتامة الظلال الكثيفة السود . . . . إنها تشعر أين

هي ولكنها لا ترى موقعها برأى الذهن المدرك المستنير — لا تستطيع أن تهتك كل هذه الظلمات المتراكبة طبقات فوق طبقات ، ويعسر عليها أن تفعل إذا أرادت وإن التمت في خاطرها أقباس من الضياء الضئيل بين حين وحين . . . غيظ الشعاع الحجابى الذى يرسم على صفحة الأفق الدكناء معلنا ولادة الفجر لا يكشف أحناء متاهة ملتوية الدروب أمام حيران ضال . . وهذا قبس أوقدته لها أم سلمة فما لبث أن ابتلعه الاعتداد ، وآخر جاء به ابن عمر فغاب فى ظلمة العناد . . . فلعلها الآن تحس أنها منطلقة إلى طريق ليس فيه نور ، أما اللائلاء الباهر خلف ظهرها خلفته هناك قبل أن تصرخ صرختها وقبل أن يخطر بها « عسكر » التياه الرشيق ، وتركت كل من نكصوا عنها يسبحون فيه . . .

ومع ذلك فلا معدى لها عن التقدم . . إن الهائم فى بحار الرمال يرى الموت فى المسكت ويجدد السير أمله ، ثم قد يقوده إلى راحة الأمان . . وقد سارت هى . عاودت المسير عسى أن تلمح عند حد الأفق شجرا يانع الحضرة تنعكس ظلالة على الأرض الصفراء . . فماذا يا ترى يخفى لها الزمن فى جمبته ؟ . . النبع والدوح أم السراب الخداع ؟ . .

ولكن نبع الرجاء لم يحف كله فى قلبى الصاحبين . . طلحة قبل زميله كان متفتح النفس ، يستقبل معالم الطريق مشوقا به حين ، فهو إلى منازل حزبه يسير . . . وإنه ليحس القدر ذاته فى ركابه ، يؤيده ويعمل له . وهل كان يحسب من قبل أن يتبعه من الناس كل هؤلاء ؟ . . وإذا كانت نسوة النبي قد قعدن عنه بعد اتفاق فحسبه عائشة تلتف بها الجماهير كأنها العلم والجنود . ثم ها هنا أيضاً سعيد بن العاص ، قد راجع عقله فيما يلوح ورأى الخير فى الانضمام إلى الحركة بعد أن تأبى عنها يوم الاجتماع . . وها هنا المغيرة بن شعبة سيد ثقيف ، وداهية العرب فى الجاهلية وفى الإسلام . . أقبلأ معا وهما يجهدان ليستطيعا اللحاق بالركب قبل أن يغيب .

وخف إليهما الزير وطلحة ، فإذا سعيد ينتحى بالصاحبين ناحية ، ويهمس

لها بسؤال :

« إن ظفرتما أيها الشيخان لمن تجعلان الأمر ؟ . . أصدقاني . . »  
فتوجسا شرا منه ، ولكنهما آثرا أن يجياه :  
« لأحدنا أينما اختاره الناس »

« بل اجعلوه لولد عثمان فإنكم خرجتم تطلبون بدمه . »  
« ولد عثمان ! . ندع شيوخ المهاجرين ونجعلها لأبنائهم ؟ »  
فلما وضع له أنهما يتخذان من دم الخليفة الصريح أداة تقتضى لهما السيادة ،  
هز رأسه أسفا وقال :

« لا أراني إذن أسعى لأخرجها من بني عبد مناف ! »  
وامتدار ومعه المغيرة . ولكنهما لم يعودا في التو ، بل انطلقا إلى صاحبة  
الهودج . وتقدم سعيد فسألها هي الأخرى :  
« أين تريدان يا أم المؤمنين ؟ »

« البصرة . »

« وما تصنعين بها ؟ »

« أطلب بدم عثمان . »

فاستضحك ساخرا وقال :

« فهؤلاء قتلة عثمان معك يا أم المؤمنين ؟ . . »

ومضى فالتقى بعروان بن الحكم في نفر من صحبه وأوليائه ، فيهم أبان والوليد  
ابنا عثمان ، قد انطلقوا جميعاً في ركاب طلحة والزبير ، يدعون بدعوتهما ،  
ويعملون حيث ينبغي . . فإذا سعيد يصيح فيهم وقد بدوا له مطايا إلى غايات  
الشيخين ، ويوجه أعنف حديثه إلى ابن الحكم عميد هذا الفريق :

« وأنت أيضاً تريد البصرة ؟ »

« نعم ، أطلب قتلة عثمان . . »

« فهؤلاء هم . . . »

وأشار إلى حيث كان الصحبان ، ثم أردف يقول :

« إن هذين الرجلين قتلنا عثمان وهما يريدان الأمر لأنفسهما ، فلما غلبا عليه ،  
قالا تغسل الدم بالدم ، والحوبة بالتوبة . . . »

فهل تجنى عليهما سعيد ونسب إليهما ما لم يقولا ه ؟ . . . أبدا . . . بل ليكاد  
ينقل إلينا نفس الكلمات التي بدت من أحدهما من قبل ، حين ذهب إليهما  
عبد الله بن خلف وقد علم بعزمهما السير إلى البصرة يريد لو أقعدهما عنه . . . قال  
ابن خلف إذ ذاك :

« إنه ليس أحد من أهل الحجاز كان منه في عثمان شيء إلا وقد بلغ أهل  
العراق . وقد كان منكما في عثمان من التخليب والتأليب ما لا يدفعه عنكما جحود  
ولا ينفعكما فيه عذر . وأحسن الناس فيكما قولاً من أزال عنكما القتل والزمكما  
الحذل . . . وقد بايع الناس علياً بيعة عامة . . . فإذا لاموكم غداً ، فماذا  
تقولان ؟ . . . »

فكان الجواب الذي أتاه من طلحة :

« نكر القتل ونهر بالحذل . . . ولا ينفع الإقرار بالذنب إلا مع الندم  
عليه ، وقد ندمنا على ما كان منا . . . »

وهو الجواب الذي نقلته كلمات سعيد بأمانة تمز عند الرواة . . .

وهتف سعيد ثانية بروان ومن معه :

« تذهبون وتؤركم على أعجاز الإبل . . . اقتلوهم ثم ارجعوا إلى منازلكم

يا قوم ! »

ونادى الغيرة بعده بصوت جهير :

« أيها الناس . . . من كان ها هنا من ثقيف فليرجع . . . »

ثم امتطى كل راحلته ، وتبعهما كثيرون تبيينوا من الأمر ما كان خافياً

عليهم من قبل ، وتركوا بقية الركب تسير إلى مصيرها المجهول . . .

٦

أذن مروان للصلاة . . ابن الحكم دون غيره من أتباع الجمل قام يدعو بدعوة السماء في الناس ! . . فلعلة فعل الرجل ، وسارع قبل سواه بهذا النداء . وهل كان — فيما عودنا من قبل ومن بعد — إلا مفتوناً بالتدبير ونسج خيوط الأحاييل ! . إنه نفس مروان القديم صانع الدسيسة ، وهو اليوم يعد عدته لنصب شرك جديد ؟ . .

واستجاب القوم للداعى وللدعوة . وتهيأوا لأداء شعيرة الإسلام الأولى فأقبلت حشود الجيش تنتظمها الصفوف ، وتنجه منها العيون والقلوب وجهة واحدة شطر المسجد الحرام — نحو البلد الذى خلفوه منذ قليل وشهد مولد الرسالة السماوية التى رفع محمد مشاعلها تبدد غياهب الظلام . . وران عليهم الخشوع وهم يوشكون أن يلقوا الله فى الصلاة . كل قد اتخذ مكانه فى هدوء ، ساجى البصر ، خاشع الفؤاد ، فلا حركة ولا نأمة إلا ما تهمس به الشفاه من دعاء وتسبيح . . . ولكن إمامهم وحده لم يقف موقفه — بل من هو ياترى كان ذلك الإمام ؟ . . طلحة أم الزبير ؟ . . الرجل الذى حالفته عائشة من البدء ودعت له بالإمرة حتى فى أيام عثمان ، أم الزميل الجديد الذى ربطته به حوادث الخلاف الجديد ؟ . من ذا يدرى من القوم الحاشد أى الصاحبين سيرز أمام الصفوف ليؤمهم فى الصلاة ؟ . .

لا أحد يدرى على التحقيق وإن توزعت عواطفهم بين هذا وذاك . فلكل فى الجيش حزب وأعوان . وقد أرهف التساؤل حذر الفريقين معا وخشية الواحد من تقدم زعيم الآخرين إلى الاضطلاع بالإمامة فى هذه اللحظة الحقيقة بأن ترسم المصير السياسى للصاحب ولل فريق الذى يناصره . فالإمامة عندهم زعامة على الصلاة ، وزعامة بعدها فى كل ميدان للدنيا وللدن . وأحرع من يتقلدها الآن أن يعتقد له لواء الخلافة من بعد . .

ولكنهم كبحوا عاطفتهم إلى حين . . ادخروها حتى يأتى لهم أن يروا رأى العين من سيكون صاحب الأمر ، وأى الرجلين منهما سيخطو أولى خطواته إلى السيادة إذ يتقدم الصفوف المنتظرة ويرفع صوته بتكبيره الإحرام . . . حبسوا الشعور في الصدور ، فما يحسن أن يدعوا ربح الخلاف تعصف بهم ولما يتبينوا بعد نصيبهم من النصر أو الخذلان ، وأولى بهم وأجل أن يترثوا فقد آن وقت الأداء . . .

هكذا حرك مروان رماد الغيرة بين الفريقين عسى أن يكشف نخبته عن جهر التعاسد والخلاف ، وأوقع في قلوب كل فريق التوجس من الآخر . فكلاهما الآن على حذر ، وكلاهما أيقن أنها هدية موقوتة لم تكتب لها حياة طويلة ، لأن ظلها وشيك أن يتقلص غداً إن لم يتقلص اليوم ، ثم يتجاذبون بينهم السيادة كما يحاول الصاحبان جذبها من أمير المؤمنين . أما ابن الحكم فلم يكشف شيئاً مما أضمر قلبه ، بل سار إلى طلحة والزبير وعلى وجهه من سلامة الطوية قناع كثيف . . وإذا به يسألها في هدوء :

« على أيكما أسلم بالأمرة وأؤذن بالصلاة ؟ »

على أيهما ؟ . . ذات السؤال الذى يراود الآن ذهن كل إنسان . . . ودون الجواب عليه بغضاء ودماء ! . . .

فكأنه ألقى عليهما ناراً تتسع . . . للحظة ثبتت عيونهما على وجهه نظرة ذاهلة تفصح عن عجبهما تمام الإفصاح . . هذا أمر لم يدر لهما ببال ، أو قد دار ثم أرجأ الجواب عنه حتى حين — حتى اليوم الذى يتدخل فيه القدر على نحو من الأنحاء فيخلى الميدان لأحدهما دون صاحبه ويأتيه بالإمرة له وحده دون شريك . . . لقد شغلها على عن التفكير في كل ما عدا . . . وشغلها ابتزازها إياه أريكة الحكم عن التفكير فيمن سيعقبه عليها منهما الاثنين . فالوقت لم يتسع لتدبير كل هذا ، ولا الذهن اتسع لتدبره وإعداد العدة لأى احتمال قريب وبعيد . أما الآن — هذه اللحظة التى أثار فيها ابن الحكم ما كانا يتناولانه بالمطل والتسويق فراراً من الواقع الذى يخشيان . . الآن وقد فاجأها الرجل بسؤاله العارى عن الكياسة ، أو قل عن المواربة والتمويه —

وصاح به عبد الله بن الزبير في حنق وفي اعتداد :

« على أبي عبد الله ! » .

« بل على أبي محمد ! » .

فلم تختلج لمروان جارحة . بل نقل بصره وهو ساكن بين ابن الزبير وابن طلحة ، ثم راح برمق الشيخين بثبات كأنه يستحثهما على الجواب .

ولكن طلحة كان قد حزم أمره . . العمل الحاسم السريع أجدى عليه في هذا المقام من ألف جواب . فما أسرع أن هم يريد أن ينطلق إلى مكان الإمامة ويتقدم الصفوف . فإذا الزبير بهم كذلك ، كأنما قد استجابا معاً لتوجيه ذهن واحد . وتدافع الرجلان كل يبغى أن يكون له وحده هذا الشرف المأمول ويجهد في دفع صاحبه عنه ! . وكان لابد أن يثير تدافعهما جدالاً كريهاً كانا فيه كطفلين يتجاذبان بينهما دمية ! . . . ولغط لسانهما بعلاحة ، وتلاحي أيضاً عبد الله ومحمد ، ومروان لا تفي البسمة الساخرة الخبيثة تلعب على شفثيه . . . فما كان أعمقها من هوة حفرها لهما بتدبيره ، وما كان أجداها من أحبولة ، ما نصبها حتى تخبط فيها الصيد لا يدري كيف يكون الخلاص ! . . .

وهمس معاذ بن عبيد الله لنفسه وقد شهد هذا السباق العجيب بين زعيميه على إمامة الصلاة :

« والله لو ظفرنا لافتننا ، ما خلى الزبير بين طلحة والأمر ، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر ! . . » .

فلعل هذا المشهد كان شعاعاً جديداً أرسله القدر عسى عائشة أن تستضيء به ، وترى مستقبل الحركة التي احتضنتها على هديه . ولكنه لمع هو الآخر في خاطرها كلمة البرق ثم غيبته الظلمة ، فلم تتبين شيئاً على سناه . أو هي قد آثرت أن تغضى أيضاً عنه ، كما أغضت من قبل عن سواء . وكما تفعل الأم التي تشهد الخطر يكاد أن يدهم وليدها فملت هي إذ استشعرت الخطر على حركتها من فتنة مروان التي ألبسها براءة المظهر وسلامة الطوية . . فسرعان ما أرسلت إلى الرجل الخبيث تقول :



« ويحك ! . . أتريد أن تفرق أمرنا . . »

ثم أصدرت أمرها :

« فليصل ابن أخى . »

بهذا استطاعت أن تجتاز الأزمة العارضة وتسكن الفتنة التي كاد يوقظها مروان . وسعها أن تحسم خلاف الشيخين على السيادة ثم تفق برأيها حائلا بين أعرانها وبين الافتتان بتهدئه نفوسهم المتعفزة للتناحر . . . ولكن رأيها في الواقع لم يكن حكمة كله ولا دواء ناجعا للداء . ولو قد أتيح لها النصر لتحقق قول معاذ . كذلك هي جنعت به عن موقف الحياد السليم بين صاحبها المتنافسين حتى أوشك الناس أن يعلموا إلى أين تميل وأى الرجاين تختصه بالتقديم على صاحبه ومستخصه حتما بالاجتباء لمقعد الحكم لوخلى بينها فيما بعد وبين الاختيار . أو ليس عبد الله هو ابن الزبير من أختها أسماء ؟ . إن حفيد أبي بكر قد بدأ الآن أولى خطواته نحو تحقيق الآمال الضخمة التي تملأ قلبه . مهدت له خالته صاحبة الهودج سبيل الطموح فأخذ يسير قدما فيه ، ولن يتأخر كثيرا ذلك اليوم الذي سنراه فيه قابض على ناصية الأمور ببلاد الإسلام بيد حديدية ، يناجز دولة الأمويين ويقض مضاجع ولائها ثم يشيع الهزيمة المرة في صفوف جندها حتى ليوشك أن يهدم بنيانها كله في بضعة أعوام .

كادت عائشة برأيها ذلك أن تقدم لأنصار الجمل عنوانا واضحا على موقفها القابل من الصاحبين . وهل كان يغيب عنهم المعنى الذي يضره اختيار عبد الله للصلاة ؟ . . أئن كان الولد جديرا بالزعامة السياسية فأبره منه أجدر . ولأولى بالزبير أن يتسلدها منه ثم يفوز أيضا بالزعامة السياسية بعد حين قريب .

هذه الخواطر كانت خليفة بأن تجول بأذهان الناس إذ ذاك ، وتأرجح بهم بين الرجاء والخوف حسبما كانت مشاعرهم وكان اتجاهها نحو الشيخين . ولم تكن كلها رجما بالغيب ، ولا أوهاما جسمتها أخيلتهم السباقة إلى اكتناء الخواتيم . فها هي المقدمات أمامهم جليلة ، تنبئ عما سيفر عنه حجاب المستقبل ، وتوحى إلى أميرهم المنتظر كأنه قد تسم عرشه ودان له شعبه بالولاء . . فالزبير الذي ظفر ابنه بالإمامة قد صارت له هو أيضا إمرة الجنود كأنما الأقدار تحرص على تجميع

كل مظاهر السلطان وأدواته في يديه . . انعقد له لواء الجيش السائر إلى الظفر  
المرجوف من ذا ياترى يقوى على سلبه ثمرة النصر حين يأتى قطافها وقد اجتمعت  
له قوة الجند والسلاح ؟ . هل يجرؤ أحد حينئذ على مجاهرته بالعداء ؟ . . لعل  
طلحة غدا يرى من الحكمة أن يؤثر طريق السلامة فيهادن رفيق اليوم ، ويتبع  
ركاب جبروته مشيراً أو وزيراً أو في أيما ثوب يختاره له الأمير المرقوب ١ .  
من يدري ؟ . لعله سيؤثر هذا لو جرت على سننها البادية مراكب الأحداث .  
وقد جنح منذ البدء إلى المهادنة فاستجاب لأمر عائشة ، وارتضى فتي الزبير إماماً  
يصلى خلفه ويأتم به . قمع من كل أطماعه العريضة بدور الشريك المغلوب على  
نصيبه ، يملك دون أن يكون له حق التصرف فيما يملك . . حتى مظهر هذه الشركة  
بدوا كأن قد أرادوا أن يسلبوه إياه . فكان الناس يتجهون للزبير بتحية  
الإمارة ويدعونه « أيها الأمير » ١ . أم ترى هذه دلالة على إمرته الجند فحسب ؟  
على أى حال لقد كان اللقب يقترن باسمه هو أيضاً في قليل من الأحيان كلما طاب  
لبعض أعوانه أن يشعروا أنفسهم أنهم وأعوان رفيقه بمنزلة سواء ١ .

ويبدو أن عائشة أحست أنها تحيقت أكثر مما ينبغي لها على حق مرشحها  
القديم للخلافة ، لأننا لا نلبث أن نرى مشهداً آخر في التاريخ تنجاب أنجافه  
عن أمير للصلاة سوى عبد الله . . . فقد أنبأنا بعض روايات الرواة أنها قدمت  
أيضاً عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليصلى بالناس . فلعلها أرادت بهذا أن ترد  
على طلحة بعض اعتباره ، وتوحي إليه أنها ما اختارت ابن الزبير وهي ترمى إلى  
أمر . ولعل عبد الرحمن وعبد الله كانا يتناوبان بالإمامة في فترات حسبما سمحت  
بهذا السوانح ، أو اجتزأ أحدهما بفريق واجتزأ الآخر بفريق من أولئك الأتباع  
الكثيرين . ومع ذلك فما لهذا كله من دلالة سوى تناحر الفريقين على السيادة ،  
وجريهما أبدا وراء موكبها الفاخر ١ . . ولقد كانت السمة البارزة لهذه الحقبة  
من الزمان الافتتان بيلوغ السلطان حتى أوشكت الخلافة أن تكون صيداً يطعم  
فيه كل من استشعر في نفسه قدرة على هز رمع ، أو اجتلاب أعوان ، أو انتحال  
قصة قد ترفع من قدره في أعين الناس . دع عنك طلحة فقراجه بها قديم مشهور .

ودع الزبير الذى استهواه صاحبه فأوشك أن يكون فارسها المجلى كما رأيتاه . ثم انصرف أيضاً عن عاهل الشام فله وحده حساب وكتاب ! . . . ومل بنا إلى نفر من ركب الفتنة نجد أشخاصاً قد استذلهم شهوة الحكم أيعا استذلال أو استطاع حب السيادة أن يدنى منهم العروش المؤثثة ولو فى يقظة الحيات . . . فلعلنا لا نحرّم ابنى عثمان : الوليد وأباناً ، من لذة الحكم بعد أن علما حديث سعيد بن العاص . ومن يدري ، فقد تجرى لهم ريحهما رخاء . . . وهذا أيضاً مروان بن الحكم كيف لا يأمل أن يجتمع له إمرة الإسلام والمسلمين ذات يوم قريب وهو الذى تفخ فى نيران هذه الفتنة لتفىء عليه المغنم المطلوب ؟ . . . لقد كان الرجل هو الخليفة الفعلى ردحاً من عهد عثمان ، بغيره لا تبرم الأمور ولا تساس البلاد ، فهلا يكون حقاً له الآن أن يستأنف سيادته ، يعظمرها وجوهرها كليهما ، حين تنضج ثمار تديره ؟ . . . إنه لم يتخل فط عن مطمحها حتى بعد أن ذهبت ريح فتنته وفشل تديره مع خصوم الإمام . وعندما خاتته الأيام ، وسبقه ابن أبى سفيان إلى السطوة بقى وفيّاً لحلمه يغذوه ويرعاه وهو مستيقن أنه التالى بعده على عرش الأمويين . فلما أن أكره معاوية الناس على البيعة لابنه المفسود يزيد ، كاد مروان يشيرها حرباً شعواء على سيد بيته لولا أن توصل إليه هذا بالمداينة والدهاء . . . كذلك نجد عبد الله بن الزبير بين هذا الفريق المفتون بالسيادة وإن حدثت منه . ولكنه لم يعدم اتساع أفق الآمال ولانشاط الخيال . والأمل والخيال الوثاب حليفا الشاب وها هو اليوم قد استعان بعدته منهما فطلع على الناس بقصة عجيبة ، زعم فيها أنه الخليفة الشرعى لعثمان عن وصية منه قبيل مصرعه يوم الدار . فهو إذن أولى بالأمرة من سواء وأجدر وإن كان الساعى إليها أباه .

كانوا بالركب عصبة أربها معا استلاب خلافة ابن أبى طالب ، وأرب كل فرد منها وحده احتجاجها لنفسه دون غيره . . . فأعجب به من هدف جمعهم وفرقهم فى آن ! . . . وما أضلها كتيبة تتنازع الأسلاب ولما تبدأ الحركة . ولكنهم حازوا بأخيلتهم النصر ، وأغفلوا حكم الواقع الذى لن يلبث حتى يرفع عن عيونهم غشاونها . ثم لا يكادون يتبينون مواقفهم حتى يتبدد حلمهم ، ويرقد أكثرهم صرعى على ترى البصرة . . .

٧

توالت الرقاع على الإمام تحمل له أنباء الفتنة ، والخطبة التي رسم القوم العصاة لأتقسيم كي يناوئوه . وما زالت الرسل مقبلة عليه بالأخبار ، محصية حركات حزب عائشة بين يوم ويوم ، من مكة أولا ، ثم من الطريق التي سلكوها وهم يقصدون البصرة بعد أن عقدوا العزم على السير في عصيانهم إلى مداه . وامل أكثر هذه الكتب وقعا في نفسه كان كتاب أم سلمة . إن هذه السيدة الفضلى بقيت على ولائها له لم يبدلها الزمن ، ولم تقطع وفاة فاطمة ما كان موصولا بينه وبينها من إكبار وعطف متبادلين منذ دخولها منازل رسول الله . . . فلما عادت من البلدة الحرام بعد أن أعياها رد عائشة عما أبرمته ، سارعت تلتقي الإمام فتحدثه وفي عينيها دموع :

« يا أمير المؤمنين . . . لولا أن أعصى الله عز وجل ، وأنت لا تقبله مني لخرجت معك . . . فهذا ابني عمر ، وإنه والله لأعز علي من نفسي ، يخرج معك فيشهد مشاهدك . فاستوص به خيرا يا أمير المؤمنين . . . »

فهى وما ملكت . . . نضجت عنه بمنطقها ، ثم بهذه البضعة الحية منها تذود عنه . . . وكانت بهذا صورة ناطقة للوفاء ، وللوفاء في سبيل ما تؤمن به . . . وإنك لترى أشباها منها كثيرين زخرت بهم هذه الحقبة التي غلبت الأهواء فيها على نبالة النفوس . ولكن الحق أبدا لا يعدم النصير .

ونفض على شأنه . للواجب الذي ألقته الأقدار على عاتقه ، فإذا هو أشق واجب وأكرهه لقلب سليم ، إن صبر وسالم أكلوه ، وإن قام يقايلهم عدة بعدة وسلاحاً بسلام لم يأمن أن تتفرق الأمة شيعاً بينهم وبينه ، يضرب بعضها بعضاً ، وتأتى على عنفوانها أداة الحرب . . . وها هو الخبر اليقين يأتيه من قثم بن عباس ، وكان قد بعثه إلى مكة يستنجد له سير الأحداث ، بأن التآمرين قد اختاروا الطريق الوعر ، لم يقدم عنه حله ولا تريثه بهم عسى أن ينجسوا إلى الهداية . . . أرادوها فتنة وأضرموها ، وانطلق الاله في آثارهم صوب البصرة .

فكم غمه ما بلغه ، وأثقل قلبه ، وألقى سترآ من الظلمة أمام عينيه . . . لو كانت له أزمة النفوس البشرية لمال بهم عن النى . ولو كانت بلاغته مغنية في هذا الوطن لأوسمهم النصح حتى لا يبرح المنبر . . . ولكن الحنة أينعت وأوشكت أن تثمر أشلاء . . . وها هي رائحة الحرب تعلأ الجو وتزكم الأنوف ، فما بقى غير حديث واحد يصغون إليه : حديث السبوف للسيوف . . .

ومع ذلك فتحة أمل لا يزال يبرق في خاطره ويكاد يلهمه الطمأنينة . ولعل القدر يسعفه بتحقيقه فتملو كلمة العقل الراشد على صخب الهوى العرير . . . إن المصرة تدين لسلطان عامله فهي أميل إلى الولاء له ، ومسيرهم إليها كفيل بأن يحد من غلوائهم عندما يرون أهلها لا يسارعون بالانحياز إلى فتنهم . فإذا بان للخواطر أن غالبية سكانها ليست من أصل عربي أوشك استمساكها بدولة الإمام أن يكون حقيقة واقعة بعد أن عرفوه رجلاً جمل المساواة التامة بين العناصر جميعها عماد سياسته . هذا ما قر في ذهن على وزوده بالأمل حينما علم أن العصاة لم يقصدوا الكوفة مباءة العرب الذين تسودهم شريعة المصبيات . . . وبه تحدث مظهر ارتياحه فقال لابن عباس .

« لأن يأتوا البصرة لأحب إلى من أن يأتوا الكوفة . »

« وكيف يا أمير المؤمنين ؟ »

« إن الكوفة فيها رجال العرب ويوتاتهم ؟ »

فلعل ابن عباس حسب أن رجالات العرب بالكوفة أقدر على الوقوف في وجه الفتنة وأحرص على كبحها من سواهم لو سار جيشها إليهم ، أو رأى في افتتان زعمائهم بالسيادة وتناحرهم المرتقب فيما بينهم عليها ما يفسد اتحادهم في عدااء الإمام ، فقال :

« إن الذي يسرك من ذلك ليسوءني يا أمير المؤمنين . . . الكوفة فسطاط

فيه أعلام العرب ، ولا يحملهم عدة القوم ، ولا يزال فيهم من يسمو إلى أمر لا يناله ، فإذا كان كذلك شغب على الذي قد نال فيفسد بعضهم على بعض . »

وكان رأى قيس بن سعد بن عبادة جامعاً لما أجمله أصحابه ، وكاشفاً عما ينطوى عليه قلبه نحو أصحاب الفتنة وهو يقول :

« . . والله ما غمنا بهذين الرجلين كغمنا بعائشة ، لأنهما عندنا حلالا الدم  
لكنهما بعد البيعة ، ولأنها من علمت مقامها في الإسلام ، ومكانها من رسول  
الله ، وفضلها ، ودينها ، وأمومتها منا ومنك . . »

وهز رأسه أسفاً ، ثم أردف يشير بما يراه :  
« يا أمير المؤمنين . . إنهما يقدمان البصرة وليس كل أهلها لها ، وتقدم  
الكوفة وكل أهلها لك ، وتسير بحمك إلى باطلهم . . لقد كنا نخاف أن يسيرا  
إلى الشام فيقال صاحب رسول الله وأم المؤمنين فيشتد البلاء وتعظم الفتنة . . فأما  
إذ أتيا البصرة وقد سبقت إليها طاعتك ، وسبقوا إلى بيعتك ، وحكم عليها  
عاملك — فسر فإن الله معك »

وأى وجهة انتهى إليها عزمهم فقد بقي على كدهم جانحاً إلى السلام ، يود  
لو استجاب خصومه له بالحسنى فجنبوا الأمة شر الانقسام والفرقة . لقد كان المسير  
إلى الكوفة رأياً صواباً كما قد يحمل عربها على الالتفاف حوله قبل أن تستهويهم  
مظاهر المروءة التي لبستها الدعوة العائشية ، وقبل أن يفتنهم التشيع للعصبية  
العربية ، التي يكلفون بها غاية السكف لاستعلائهم بجنسهم على بقية الأجناس ،  
والتي لا ريب كانت حرية بأن تعميل بهم إلى جوار طلحة والزبير وأضرابهما من  
رجال العصيان إذ كانوا المعبرين عن خواطر السواد من قريش الفتونة بخلاف  
المهاشميين . وكانت أيضاً موقفاً وسطاً بين الحجاز والشام ، يستطيع منه صد الفتنة  
لو غالت البصرة وانطلقت إلى الشمال لتصل ب معاوية ورجاله ، أو شاء ابن أبي  
سفيان أن يعدها بمعونه لتنتزع بقية البلاد الإسلامية من يد الإمام . . ومع ذلك  
فلم يتخل طي قط عن أمله في معالجة الأمر بالهودة ، لعل الله أن يصلح النفوس  
فتقى إلى السلم . لم يقمده عن غايته تلك حماسة أصحابه ، ولا إيمانهم بيقه وجور  
مناجزيه عليه . وإنك لتسمع منهم آيات من الوفاء كانت حقيقة بأن تبطر غيره  
في مثل هذا الوطن ، وتسحرف به عن هدفه السلمي إلى سل الحسام وهز القناة  
تعبلاً لنصر مسلح . . وإنك لترى أضراباً من أبي قتادة كثيرين ، يحملهم إليه  
الولاء وتدعوهم الرغبة الخالصة في الفناء من أجله ، يهيئون به أن يدفعهم إلى

القتال ، وأن يرمى بهم في غمرة الوغى كيف شاء ، فإذا به هادىء ساكن .  
لا يفتنه كل هذا الوفاء عما عزم عليه من الإعداد قبل تسديد ضربته ، ومن  
تقديم الهوادة والنصح على التحدث إلى أخصامه بمنطق الحرب .  
يقول له أبو قتادة وقد استغرقه حماسه وقاضت به حميته ؛ وهو يهز في يده  
حساماً مغموداً :

« يا أمير المؤمنين .. إن رسول الله قلدى هذا السيف ، فشتمه فطال شيعه .  
وقد أنى تجريده على هؤلاء القوم الظالمين الذين لم يألوا الأمة غشا ! .. فإن  
أحببت أن تقدمنى . . . » .

فلا يكون لهذا القول ولأمثاله بضعة من أثر نحوه عما اعتزم عليه . . . إن  
الحرب التى تنتظره ليست حرباً تنهاوى فى حقلها الرءوس وتتمزق الأجسام . .  
ليست صراعاً صاخباً بين الرماح والأسنة . . . ليست كقحاح يقاس فيه النصر  
بمقدار الأرض التى يحتلها فريق وتنحسر عنها جيوش الآخر ؛ بل هى فتنه  
هوجاء ويل فيها للغالب والمغلوب ، الأمة كلها حقلها ومساحتها وحين تحيق الهزيمة  
يأخذى الطائفتين فستلقى فى قلوب أفرادها بذور حقد تنمو على الزمن دوحاً  
شامخاً يظل أبداً ظامئاً للدم ! . . أما النصر فلن يكون فى يد الأخرى غير ثمرة  
فاسدة مريرة المذاق . . . ولكن الإمام يعزف عن نصر مسلح يجزى فى أعقاب  
حقداً يرسخ بأفئدة غريعه ولا يزول أو يزول الدهر الداهر . إنما غايته أن ينتصر  
على النفوس الضالة والقلوب التى ضرب الهوى عليها أكمة . أثر أن يسمو  
بالمواطن الإنسانية إلى ذروتها الطاهرة فتستجيب للنبل والحق المطلق . ويوم  
يستطيع التغلب بسلاح رفقه على عدوه فستدوى الدوحة الخبيثة فى منبتها قبل  
أن تبدو لها ساق ، وتعفى كلة الثأر من سجل العلاقات بين أبناء أمته . . وإنه  
إذن ليوم النصر المرجى الذى تعقبه وحدة وثيقة تؤلف قومه ، ويرفرف فيه على  
الرءوس لواء واحد ، ويسجل القدر فى لوحه مجداً للإسلام ليس بعده مجد .

هذا هو الأمل الذى جاش بصدره فعمل جاهداً على تحقيقه ، وبه استهدى  
وهو يسرع إلى طريق نجد بتلك النواة لجيشه الذى كان قد بدأ يعده لغزو الشام

ولما يتم اكتماله . وكانت خطته ان يسبق أصحاب الجمل ببعض الطريق ثم يردم بالحصى عن البصرة قبل ان يبلغوها ويفتنوا الناس . ولم تكن له فسحة من الوقت ليتأهب بما يكفيه من عتاد ورجال تحوطا لما عسى أن يسفر عنه عدوه من لجاج قد يشير حرباً لا تتعادل فيها القوتان . ومع ذلك فإنه لم يتردد كأنما كان موقناً بنصره السلى عند اللقاء ، وخرج بفشته القليلة دون أن يتعباً تعبته حرب تامة ، بلا كفاية من زاد ولا سلاح ، متخفين ما وسعهم كأنهم يسرون إلى مرتاد نزهة . . .

ولقيهم بالطريق عبد الله بن سلام . . . الصحابي الجليل كشفت له نفسه الصافية عن أمر فسارع يرد القوم عن مهوى القضاء المنتظر . وإنه ليندفع إلى الإمام وليأخذ بعنان دابته فيلويه كأنما أراد أن يدفعها عن السير . وكانت الدموع تلتهم في عينيه ، وكيانه كله يهتز بما انطوى عليه صدره من مشاعر كما تهز الزلزلة الأرض . . . ثم هتف وصوته للمهاج تفيض منه برة التوسل :

« لا تخرج ! . . لا تخرج منها يا أمير المؤمنين . . . فوالله لئن خرجت منها . . لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين . . . أبداً . . »

فبادرت إلى الشيخ طائفة تصده . وزجرته طائفة . . . وهمت به أخرى تؤذيه بالقول الحشن وتكاد أن تنال منه . . . فإذا على يصيح بالجمع :

« دعوه فقم الرجل ! . . . »

أفلس ياترى الصدق في كلمات هذا صاحب الكريم ؟ . . لا ريب . فذاك رأى للإمام قديم . وإن قلبه لما زال يردد — حتى في هذه اللحظة التي يستهدى فيها بأمله — نفس هذه الطيرة التي ردها إمامه عبد الله . . إنه منذ قليل طالع صعبه بذات الرأي وهم يوشكون أن يبرحوا المدينة . . . ألم يقل لهم حينذاك :

« . . . إن في سلطان الله عصمة لأمركم ، فأعطوه طاعتكم غير ملومة ولا مستكره بها . . والله انقلبن أو لينقلن الله عنكم سلطان الإسلام ثم لا ينقله إليكم أبداً . . . »

ومن له الآن بمن يضمن اعتصامهم بأمر الله في هذا الزمن الذي حكته الأهواء ؟ . . .



.. ثم سرى رجال الكتيبة والليل ، يشتدون في مشيهم قدما . . . وكان يسير على رأسهم وشعوره يعصف به ، ومع ذلك فقد دفع عنه يأسه وراح يضرب مع القوم . . . وإنهم ليتوثبون لغايتهم أينما توثب ، ويسرعون الخطا حتى ليكاد يحملهم من نشاطهم جناح : أفسكتوا والقدر أفراس رهان فجهدوا ليغلبوه في ساحة الزمن ويسبقوا تصريفه المغيب . لقد تزودوا بالرجاء في رحلتهم النبيلة فلم يأنهوا فيها بعشقة . وسلوا عزمهم مرهقا كما تسل السيوف البواتر . ومضوا مبادرين نحو ما أرادوه . . . ولكن القدر سبقهم ، وبسط الصحراء الفسيحة أمامهم كسجل مفتوح ، أقدامهم عليها أقلامه التي راحت تخط دراكا سطور المأساة القرية كلما تقدمت بهم على أنقاء الرمال ! . . .

## ٨

كانت ليلة من ليالى الخريف ، وسنانة الريح ، شف جوها دفء رقيق لعله بقية الصيف الراحل . . . ساجية كحلم هانىء ، نديه كنسمة البحر ، قد أشاع فيها السحر الطلول أنفاساً ريانة حملت لها بشار الشتاء . وكانت صافية الأفق كصقال مرآة ، برامق نجمها الساهر الرمل بلمحه فيتألق كذهب سيال . . . نقية السا لا يشوبها ظل . الصحراء الفضاء تحت صفوها بدت كلوحة الدهن الداكر ، تلاقى عليها ضياء السماء بلائلاء الأرض كالتقاء الماضى الغابر بالحاضر الغض في خيال مدكرا الكتيبة الآن تدرج على هدى النجم ، يتراءى رجالها في خفقات ضوءه كأشباح . لانتكاد السرعة البالغة تتيح لأقدامهم لمس الأرض . . . إنهم يتحدرون بين الرمال ولهم مثل صوت اللجة في بحر متلاطم ، وينتقلون كأنهم كثيب دفعته أمامها الريح حين إعصار . كلهم انطوى على الرجا . وإن أحس يد الرهبة تطرق باب قلبه ، فليس ثمة سوى فراغ وقراغ . وأينما وجهوا العيون طالعهم الرمال الجديية ، صامته خرساء لا تكشف لهم عن سر القوم الذين ركبوا المشقة ليدركوهم . . . لا أترهنا لجيش ، ولا لمدج بليل . . . وحتى مواعيق الأقدام التي

لعلها قطعت قباهم هذا المجاز لم يحفظها الرمل بل انطوت في خضمه ، ولم يبق لهم سوى أماتهم يتأرجح بخيط .

ولكنهم مضوا يغالبون الصحراء ، ويقتطعون الشقة بعد الشقة من رقعتها للبسوة لعلها تشرف بهم على الغاية الموجودة في نهاية الطواف . . . انطلقوا على أديمها المياد صامتين إلا ديبيا مكتوما ينجاب عن وطء الأرجل ، وأنقاساً لاهثة ترددها الصدور ويدهدها حفيف النسيم أما الشاعر فلها في القلوب اصطفاق بتدافع وتراجع ، وقد أثارها الكون الذي لف الكون . فما أكثر ما يهيج الهدوء ذكريات النفس فتذبح خواطرها الدفينـة فواره كماء الينبوع . وما أسرع ما يلهم الصفاء التأمل ! .

كان ينطلق في طليعة الكنيـة ، خفيفاً مبادراً ينتهب الأرض . ولكنه لم تغمره ضوضاء جيشه ولا ضجيج . . في حساب إحساسه كان نائياً عن رجاله بواد سحيق بعيداً عن دنيا الناس ، وقد احجزته لنفسها الذكري واحتواه التأمل إنه في ركاب قافلة الفكر . . ولئن ضربت به راحلته مهاد الأرض فليس لوقع أرجلها صوت . . . ولا كل هذه الجلبة النبيـة من سير جنوده تطرق سمعه . وحين ألقت عينه بصفحة هذا المكان السابح في ضوء النجم ، انبثق أمامه الماضي كأنبثاق ألوان الطيف عن وجه النسيم في يوم ماطر . . . فها هو الفضاء الرحب يزخر بمشاهد من حياته قديمة . وها هي الصحراء قد انقلبت نكـاية نحل تتر بأصوات عادت له من الغابر الغائر في أعماق ذاكرته كأنها نبت اللحظة الوليدة . . . التقى أمسه على صفحة ذهنه بيومه ، وذابت حدود الزمن وأحيازه فلا سلطان له على الذكريات . وازدحم حوله السكون بالأصداء والصور ، وكلها جلى غض . . وإنه ليتبين منها صورة قريبة إلى قلبه ، فيها صاحب جليل له وللرسول راح يدرج على بساط الرمال وقد براه الهزال وآده ضعفه ، وفيها صدى من الماضي يهتف رءوفاً حاتياً ورائه : « عشي وحده . . » . ثم تبدو له أخرى تهز مشاعره وتجعل نفسه تسيل من الأسى والتفجع . انطبع عليها ذلك الهزيل الضعيف وهو مسجى ساكن الجوارح على جلد شاة وقد نزت من أوصاله الحياة . . . فلا يلبث الصدى الرحيم أن يهمس : يموت وحده . . . »

وقد مشى الصاحب وحده ، ومات وحده مصداقا لحكمة الغيب التي أنطق الله بها لسان رسوله وأعادتها الذكرى ثمانية صدى في أسماع الإمام . وذهب مثلا خالداً في الأعصر لإنكار الذات والفناء في سبيل غاية نبيلة ، ولم يبق الزمن منه إلا لمحة في الخواطر المستعيدة ...

ويهتف الدليل الذي أم الفرقة في مسراها ، بصوت يشق السكون :  
« الربذة . . »

الربذة المسمى الذي انتجعه أبو ذر حين ضاق به عثمان فسيره نأيا به عن أصحاب الثروات . . . المثنوى الذي ضم رفاته فظهر به . . . روى الله ثرى الشهيد المرحوب ! وأصدق بمحمد إذ قرأ له مصيره هذا وهو بعد في لوح الغيب : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض . . » وها هي الفلاة . . ها هنا في ثراها انطوى الشيخ الذي فهر الدنيا لأنها نادته فأدبر ، وراودته فاستمص منها بإيمانه بالجواهر دون المظهر . . عليها كان محياه ، وفيها رقد جثمانه ، ومنها مجازاه من زيف الحياة الرخيصة إلى العيش الأبدي في عالم ليس يكدره سلطان الناس . . .

وألقاها على نظرة عجلي على وادي الرمل تروده إلى ناحية فيها اطلال وفيها آثار . . فاذا عينه تانمع بدمعة ، وإذا قلبه تملؤه رهبة ، وإذا كيانه كله يحتوى الخشوع وهو يكاد أن يسمع من جانب المثنوى الساكن ذات الكلمات القوية التي ردها صاحبه الثاوي منذ أعوام :

« رحمكم الله أهل البيت . إذا رأيته يا أبا الحسن وولديك ذكرت بكم رسول الله . . »

أما الآن فقد مضى محمد ، ومضى أبو ذر ، ومضى في أعقابهما كثيرون منتظلي أحيازهم في الدنيا فارغة لا يستطيع أن يعلوها إنسان . . فكأنما الخيول بعدهم على الأثر ، وفارق حتى هذه النفوس التي كان يرتجى منها الخير . فللدنيا اليوم سطوة على الخلق تفتتهم بزخرفها وان انطوى على ضلالة . وتسير بهم كيف تشاء فيتبعونها كأنهم ظلال . . .

وما عثم أن التوى عن الذكرى ذهنه ، وخلف قافلة الفكر ليتابع مركب الحاضر . . . فإن هي إلا لحظة حتى انفرج الأفق الأشهب عن راكب يطير نحوه مع خيوط الفجر . أهذا بعض طلائمه التي بعثها ترود السبل قد جاءه بنأ عن القوم ؟ . . .

وهذا سر الركب . وتعلقت أنظار من فيه بالفارس الذي أطلعت جوارب الظلمة الرقيقة . إن عليه لوعناء مرثحل نشر من البوادي وطوى مراحل صبغت أردانه . وهذه أذياله انبسطت على جانبيه كالجناحين . وفي وجهه وجمة محاذر ، وعلى آثاره انطلقت كتاب القلق تهم أن تغزو القلوب التي لعبت بها أكف التوجس . . . وعندما طالهم كان أملهم لا يزال معلقاً بخيطه ، ولكنه إذ قاربهم زحف إلى صدورهم خوف غامض هو طليعة ذلك القضاء المرهوب الذي يوشك أن تنفرج عنه شفتاه . . . أفآن يا ترى لهذا الأمل أن يذوى عوده ثم تسقط عمرته فتضيع بين رمال هذه التاهة كما تفيض قطرة الماء ؟ . . .

على لمح النجم تبينوه وهو يسمى مبادراً إلى مكان الإمام . وحين ترجل كانت أنفاسهم تلاحقه . فلما أن فتح بالحديث فاه سكنت تلك الأنفاس . . . تعلقت بالهواء الذي حفرهم لا تذهب ولا تروح . . . وأرهقوا حواسهم كلها في جوارحهم كلها آذان . . .

وهتف عطاء بن رثاب وفي كلامه مثل رنة النذير :

« لقد آمنوا يا أمير المؤمنين . . . » .

لما أسرع ما حملت لهم هذه اللحظة كل ما صادفهم من المشاق في الطريق الذي قطعوه واستشعرت أوصالهم إعياء كان يخفيه عنها شعورهم السالف بقرب النجاح . أما وقد غاض أملهم فإن نشاطهم ذاب في دفعة واحدة . . . رسب إلى القاع وطففت فوقه المتاعب التي كانوا ينفضونها عن كواهلهم من بدء الرحلة . إنك لتنسى أوصالك ولا تحس بها وأنت تستبق الأخطار إلى هدفك المنشود ، حتى إذا كبوت دونه وانقطع بينه وبينك الطريق حضرك من آلامك ما كان هوته أملك . . . فالأمل دائماً خفيف مفراح ، وعلى النفس اليائسة من قنوطها مثل أوثاق الصخر :

ومع ذلك فليس الشعور الذى امتلك الكتبية الصغيرة كان من خشية عدوها السباق ، ولا إشفاقاً من لقاء الأمنة التى أعدتها لها جيوشه . . . بل هو وليد الأسف على مصير الأمة التى حلت فى جوها هامة الحرب تنادى بظلمها للدماء ! إن أصابع القدر لتكاد كلها تشير إلى صراع دموى عنيف ينتظر قوى الإسلام فيفرق بين الإقليم والإقليم ، وبين البلدة والبلدة ، وبين المرء وأخيه ، وما لى الآن يد بإدراك العصاة قبل أن يشعلوا نار هذا الخلاف الرهيب ، وليس له سلطان على عقولهم يهديها كما يرجو إلى مسالك السلام . . .

أمعنوا ؟ . . . مضوا إذن لطيتهم ضاربين فى الطريق إلى وجهتهم وعمما قليل يشارفون أسوار البصرة ثم يدقونها للدخول أفيستجيب لهم أهلها ويلحقون بركب الفتنة أم يصدونهم عما جاءوا فيه ؟ . . لا معدى عن التعام الأملحة فى الحالين ، وعن ضرب الهام وتمزيق الأجسام ، وإذا تكلم السيف ساعة تحدث بعده العداوات ، وضربت معاول الفرقة فى بيان الوحدة الإسلامية ، فلن يستكين لهم عامل على هناك : عثمان بن حنيف ، على الأقل لن يدعهم يتزنون منه سلطان مولاه وهو ساكن ينظر دون أن يهز رجا أو يحاول رفع حيفهم ولو بإشارة بنان ، وحينئذ لا محيص عن اقتتال الفريقين : أحدها يضرب ليفوز ، والآخر يدنع ليزود عن كيانه وعن الولاء المفروض عليه حياى صاحب الأمر الشرعى فى البلاد .

وخفض أمير المؤمنين رأسه وهو يطوى على الرثاء جنبيه . . . ما لهذا القدر الذى سبق بالتدبير فأبرم ما شاء . . . على أنه مع ذلك لم ينفذ يديه من رجائه فتحة بقية فيه لعلها تزعزع إن ظل بالنفوس الفزالة فضل إدراك . . . ومن يدري ما عسى أن يسفر عنه القدر ؟ . . أما اليوم فواجه 'ن' يرضى على الإعياء بقوى الرجال . لزام عليه التأهب للصراع المنتظر إن طالته الظروف بالصراع . وهل كان يفوته وجوب الحيلة وأخذ حذره لكل احتمال ودون بلوغه البصرة مراحل تأكل جهد الجيوش المعبأة للحرب بخير عتاد وخير زاد مع عنك كتيبة الصغيرة هذه التى خرجت وليس فى حساباتها خوض غمرة القتال ؟ . .

على هذا حزم أمره فأثر المكث بالريذة حتى يأتيه المدد من الجند والسلاح  
واللؤونة ، ثم يزحف بأداة قتال مكتملة التعبئة إلى مواقع عدوه . . . ذلك أدنى  
إلى إرهاب العصاة ، وأدعى أن يفيثوا إلى السلم المنشود أو يقوموا صرعى إن  
ركبوا طيشهم وقتلوه . . . وكما ترك لقثم بن عباس أن يشرف على التعبئة بالحجاز  
فكذلك بعث برسله إلى بقية الأمصار الموالية يستمددها العون ، ويدعو الناس  
فيها أن ينفروا إليه غير مكرهين . . . كتب لأهل الكوفة يقول :

« أما بعد . . . فإني خرجت من حيي هذا إما ظالماً وإما مظلوماً ، وإما باغياً  
وإما مبيغياً عليه . وإني أذكر الله من بلغه كُنابى هذا لما نقر إلى . فإن كنت  
محسناً أعاننى ، وإن كنت مسيئاً استعبتى . . . » .

وإذا عزم على البقاء حط رجاله الرحال . وغار النجم تلك الليلة والريذة  
تبع بالقلوب التي عمرها الولاء للرجل الذي ائتلف على هضمه الزمن والنفوس .  
ولكنه كان راسخ الإيمان بحقه ، عظيم الثقة في أنه يسير على النهج الواضح  
المستقيم . وهل عمل قط لدنياه أو انقاد لرخارف الأباطيل التي طالما استهوت من  
الناس أشدهم أخذاً بأسلوب التوقي من إغراء الحياة ؟ . . . إن تحت الثرى قلباً  
يعلم هذا فيه — وعيه عنه منذ أعوام ، ويود لو هتف به الآن على الملاء الحاشد  
لو كان بجانب قبره لسان . . . ها هنا ذاك القلب ، في هذا الركام الذي لعبت  
به أيدي الريح وسفت عليه رمال الصحراء . . . ولو قد تستطيع أعظم الثاوى  
أن تجمع ثم تلتئم بشراً قادراً كما كان أبو ذر لبيت من رقدة العدم تنضج عن  
الإمام وتسير في ركابه أينما سار . فما علم هذا صاحب الذهاب امرءاً يستمسك  
بالحق كمثل على ويمتدبه ، ولا أحداً أكلف منه بالتزام الجادة السواء . . .  
لا أحد مطلقاً بعد رسول الله سواه . . . وليس أصدق صورة لنفس ابن أبي طالب  
من تلك التي رسمتها كلماته المزجاة للشهيد الراقد بهذه الفلاة يوم شيعه حين  
أخرجه عثمان . إنها سكة قلب ملهم مستنير قل بنا إلى قبر الزاهد نسبحها منه  
أو لعلنا نجد منها على رفاقته بقية آثار . . .

« يا أباذر . . . إنك غضبت لله فارح من غضبت له . إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك ، فانرك في أيديهم ما خافوك عليه واهرب منهم بما خفتهم عليه ، فما أحوجهم إلى ما منعهم وما أغناك عما منعوك ! وستعلم من الراج غداً والأكثر حسداً . . . يا أباذر ، لو أن السموات والأرضين كانتا على عبد رتقا ثم اتقى الله لجعل الله له منهما مخرجا . . . يا أباذر ، لا يؤنسك إلا الحق ولا يوحشك إلا الباطل . فلو قبلت دنياهم لأحبوك ، ولو قرضت منها لأمنوك . »

فهل من كلمة أبلغ دلالة على الأنفس البشرية بلونها من هذه التي نطق بها الإمام ؟ . . . إنها لترسم لنا صورة من قلبه النقي كيف كلف بالمثل الأعلى حتى رمى دبر ظهره كل فتنة الحياة ، وتصف السادر في غمرة الدنيا حتى لينسى أن نعمة نهاية لدنياء . . . ولسوف ينطلق الزمن في بروج بالجميع ، وتنطوي صحائف الرجال فلا ينشرها بعد على الأجيال إلا ذكر يرفع صاحبه أو يهوى به إلى قرار . فإذا ذهب العمر وبقي الذكر فستنشر من أمجاد على أسفار وأسفار تجعله في الموت أقرب إلى حسد عدوه منه في حياته . ذلك أنه اشترى الحق بهذه الدنيا فراجت سلعته ، وتفتت بضاعته ، وضلوا هم عن سوائه فأقبلوا على تجارة مآلها عند الأحقاب المتعاقبة ثم عند ربهم بعدهم ، خسران وبوار . . .

## ٩

بهت الليل . . . شحب ظلامه كأن يد السحر راحت ترفع أسجافه واحداً بعد واحد عن وجه الكون حتى بقي منها وشاح رقيق شفاف . وأخذت نضرة الضوء تترقق في صفحة الأفق ، على طرف الصعراء البعيد ، وتتكرر موجاتها الصغيرة خاية اللون ، عخافة إذ تهمس بالبشرى عن النهار الوليد . . . وحين جرى اسم الله على وادي الرمل شاعت فيه صخرة الحياة . ففي أركانها رنت دعوة النجر ، وانطلق داعي السماء يردد نداءه في الفضاء الرحيب فتخشع له الكائنات ، حتى الحصى والندى وسمة الريح . . . وما أسرع ما استجاب رجال الإمام للنداء ،

كأنه الصوت وهم صده . خفافا قاموا للصلاة نانضين عنهم مشقة السير واستظمتهم في عقدها الصفوف . وخفافا ألقوا قلوبهم إلى رب الكون ، متجردة إلا من خفتها الرتيب الوئيد . . .

وسرت على خيط الضوء قافلة تسير ، في خطوها الرفيق وسن وهي تدرج فوق بساط الرمل كأنها تنشى على ماء . . . إبلها المكدودة قد أعياها طول السرى حتى أوشكت أخفاقها أن تلتصق بالأرض ، ويدت لبظتها لا تقبل ولا تريم . وركبها لفهم برد النوم ونأى بهم عن دنيا الوعي . ولكن نداء الفجر شق عنهم الغطاء ، فأيقظ هاجعهم ، وأسرى الحمية في أوصال البهم فمضت تستبق إلى ذلك الحشد المتهيب لاستقبال بيت الله ، المتولى صوبه بالأفئدة وبالوجوه . . . عندما كان أصحاب الركب على مبعدة حبوا الحشد قطعة من الليل لم تلمسها يد البكور الوضىء ، ولكنه الآن في مجال عيونهم رجال . . . أصحاب وغى كما يلوحون ، فهذه أذراعهم حولهم غطت جانباً من المكان إذ خلموها وهم يهيمون للصلاة . وتلك أنعامهم على كثر رابضة في سكون وتهويم . . . ولو انجاب آخر وشاح من الظلمة لتبينهم الركب ، إلا أن غبشة السحر كانت ترد الأنظار .

مالت القافلة الصغيرة إلى النداء . . . وغمرها مع أضواء الفجر غامر الزحام فاندست فيه . . . تلك الطائفة من أهل الكوفة التي خرجت تروم العمرة قد استقبلت بالطريق أفواجا مناط آمالهم رجال الكوفة ، علقوا بقصة السواد لأم الصدع الذي يوشك أن يصيب الإسلام . . . فها هنا الإمام ، وها هنا صحبه الذين مضوا يتبعونه اتباع الظل ثم تريثوا معه حتى يأتيه المدد الذي بعث يستمده — اقتدع القافلة أمير المؤمنين وتمضى لشأنها صوب مكة ؟ . . . أم تلحق به لكفاح أعدائه الذين ركبوا السرعة فجاوزوا بها يده المدودة للصالح والسلام ؟ . . . أم الخير يا ترى في الخروج على سلطانه انحيازاً إلى الصاحبين وأم المؤمنين ؟ . . . إن طرفاً من أنباء الفتنة التي أشعلها حزب الجمل لاريب قد بلغ الركب على ظهور الرواحل التي كانت تجوب الصحراء ، وتتفامنها قد تجمعت في أخلادهم مرة من هنا ومرة من هناك . ولكنهم لم يستشعروا حقيقة الخطر الذي توشك



الأمة أن تكون هدفه إلا في هذه اللحظة ، حين رأوا العزيمة التي بدت في عيون هذا الجيش الصغير . . . سينطلق الرجال إذن ، قدما سينقلون ، إلى مكان سوف يخضبه الدم . وهذا القتال الوشيك يهز كيان الأنفس المخلصة للوطن ويزلزل القلوب . إنه يقدها قدأ وإن لم تندلع شرارته بعد ، وإن لم يشهر سلاحه ! . . . فللمشاعر عيون . والأفئدة النقية تستطيع أن ترى الأحداث قبل أن تنجاب عنها الغيوب . . .

وغشت الوجوه وجة مباغثة ، وخالط لونها الأسر مشحوب الحيرة . . . إن الشفاء لتنضم وتنفرج ثم لا يند عنها كلام ، والعيون تتذبذب قلقة في محاجرها ، والصدور تضطرب بأنفاسها المحبوسة . وحينما قامت النفوس إلى أمنها مض الفؤاد ، تردد الهمس مخافتاً بين أصحاب الركب :

« ... إنا لله وإنا إليه راجعون . »

نعم فهذه كلمة من أعبته الحيلة ، وغلب على باله الاضطراب . . . وكم من أداس في العالم الإسلامي إذ ذاك كان شأنهم كشأن رجال هذه القافلة الحيرى بين مسلك فريق عائشة وفريق الإمام ، يتجاذبهم شعورهم آونة إلى أولئك وأخرى إلى هؤلاء ، وقد غم عليهم الحق فما عرفوا أى جانب يحتويه . وما أكثر من ظلوا حيارى مضيعين في ميدان هذا الصراع الأهلى ، لا يقطعون برأى حاسم ، بل يظنون يهمسون لأنفسهم ما همس به لنفسه طارق بن شهاب وقد أوفت به قافلته على أصحاب أمير المؤمنين بالربذة ، تلك الساعة الباكرة من ذلك الصباح :

« . . . آتى علينا فأقاتل معه الرجلين وأم المؤمنين ؟ أم أخالفه وإن هذا لشديد ؟ . . . »

ولكنها حيرة تفسر لنا الأمور أجلى تفسير . فهي مرد توائى الكثيرين من عامة الناس عن نصرة الإمام ، وعن الخروج في جيشه الناهض لرد العصاة . وهى كذلك نار صهرت القوم فلم يثبت منهم لشدة حرها إلا الخلاء الذين آمنوا بحق على أثبت الإيعان . فما لحق به إلا عيوف عن الهوى ، زاهد في المرض ونشأ دنياه . وما انضم لركب أخصامه إلا كل سادر في غيه ، حريص على إشباع

نهم نفسه من مفاتن الحياة . وهذه الظاهرة النفسية لم تغفل عنها نظرة الإمام . فظالما رد الكثيرين عن السير معه . وكم من قبائل أته تعرض عليه أن تحارب تحت لوائه فأبى عليها أن تنتصر له ، وآثر أن تكف وتقعده عنه . . . كان يعلم أن ثمة — سوى الإيمان بقضيته — دوافع من الكسب والغنم في القتال هي التي استقدمتهم له ، فكان يرفض عونهم ويقول :

« . . الزموا قراركم أيها الناس . في المهاجرين كفاية ! . . »

وهذه دون شك ، من وجهيها الآخر ، خطة رجل يؤثر السلام ، ويكاد أن تسبق رغبته فيه وحرصه عليه ما نعلمه من تكالب بناء الدول على توفير كل أسباب القوة حولهم ليؤيدوا بها ملكهم ويدعموه . . . ولكنه كان صاحب رأى قبل أن يكون صاحب سلطان — صاحب مبدأ سام يعنى بشمره وإقامة دعائمه في نفوس الناس عناية الهداة من أصحاب الرسالات . فما فرح قط بما في يديه ، ولا استهواه زخرف السطوة الذي أفاءته الخلافة وتقطعت دون بلوغه أعناق سواء . إنما كان خير أمته هو شاغله والغاية التي يسعى لها ، والإمرة وسيلته . وكل دفاعه عن الإمامة كان دفاعا عن الأمة التي علمها لن تنال في ظل غيره ما تناله في ظلال سلطانه القويم . . . دخل عليه ابن عباس ، ذات يوم قابل وهو بذى قار ، وكان جالسا يخفض نعله ، فما استقر حتى رفع على إليه عينه وقال :

« يا ابن عباس . . ما قيمة هذا النعل ؟ . . »

« لا قيمة له يا أمير المؤمنين . »

فتبسم يتم الحديث :

« والله لى أحب إلى من إمرتك ، إلا أن أقيم حقا أو أدع باطلا ! »

على أن هذه السماحة وهذا الزهد لم يقعدا به عن التزام جانبنا الحزم حين تأزف الأمور . فليس بخوار . ولا رهبة تسكن قلبه من مخلوق . وعندما وجب عليه أن يختار بين الصبر على المهانة ، التي لحقته كذاكم شرعى لما خلع طلعة وأصحابه عنهم الولاء له ، وبين السير لهم حتى البصرة لردمهم ولودعت الحال بقوة السلاح . . . حين بدا ألا معدى عن المفاضلة بين العنف والتخاذل ، لم يتوان لحظة واحدة

في طروق السبيل الذي يؤتم رجولته ، ويودى به إلى قضاء الواجب المفروض عليه حيال سلامة الدولة الإسلامية وحفظ وحدتها غير مصدوعة ...  
ووقف عقيب أداء فريضة الفجر بهم أن يخطب الجميع مفضيا لهم بما قد رآه .  
فاذا ابنه الحسن ينهض له ، ويقبل نحوه على تردد واستحياء وإن حذانه وإشفاقه على أبيه ليغلبانه حتى أصابه الحسر وذاب في دموعه الكلام . وتلبث على به هنيهة ، وقطع من الحديث ما كان يتدافع على لسانه منذ لحظات . فلما رأى الفتي ممعنا في بكائه صاح :

« جئت تحن حنين الجارية ! ... » .

فاغضى الحسن حتى فاءت إليه نفسه الحزينة ، ثم أجاب :

« أمرتك فمصيتني ، فأنت اليوم تقتل بمضيعة ، لا ناصر لك ... » .

فكان بهذه الإشارة منبها عما طوى عليه نفسه من رأى قديم ... إن خواطر هذا الابن الرقيق الفؤاد لا تشغل من بال الإمام أكثر مما يشغل هذا الجمع الصغير من رقعة الصحراء ، وليست عنده بذات خطر لأنها وليدة عاطفة جياشة حساسة تجسم توافه الأوهام ... إنها رؤى أبدعتها عاطفته ولم ينجبها عقله ، وما بالقلوب تساس عظام الأمور .

ومع ذلك فقد أثر على أن يدع الحسن وما يراه ، وأن يعلل له في الكشف للناس عن خاطره المكنون حتى يتبين لهم أين الخطأ وأين الصواب ، ثم يدع الحجة وحدها تأتي بفصل الخطاب ...

قال يستعثم الفتي أن يفصح عما أراد :

« حدث القوم بما أمرتني به ... »

« أمرتك يوم أحيط عثمان أن تخرج من المدينة ، فيقتل واستبها ، وأمرتك يوم قتل ألا تبسط يدك ببيعة حتى تجول جائلة العرب وتأتيك وفود أهل الأمصار وبيعة كل مصر ... وأمرتك حين سارت هذه المرأة وصنع هؤلاء القوم ما صنعوا أن تلزم دارك حتى يسطلحوا ، فإن كان الفساد على يدي غيرك ... فمصيتني في ذلك كله ... »

وهذا حديث معاد مردود ! . . . وهل كان على يملك أن يدع عثمان محصوراً ثم يكف يده عن الدفاع عنه وتحذيل المتآمرين كلما استطاع ؟ . ألو فعل لأعفاء اعتزاله من عدل أعدائه الذين لم يعوزهم عدله حتى بعد دفعه عن الشيخ المهيش ؟ أم كان ذلك يرفع عنه التبعة أمام التاريخ ؟ . . . لقد طالما خرج لئاله بينع حين كانت تميمه الحيل في إصلاح عثمان والتوفيق بينه وبين الثوار فكان الخليفة إذا تأزمت عليه الأحداث يبعث إليه فيدعوه . فلما جرى القدر بالقضاء في القليل فر على من البيعة ، وراح يطاول الناس ويتأبى عليهم لعلمهم بختارون للإمرة سواء . ولكن تأييه لم يغن شيئاً ، ولم ينزع من قلوبهم افتتانهم به فحملوه حملاً من داره إلى المسجد فبايعوه . إنه ليرسم صورة حية من حرص الناس عليه يوم البيعة تكاد تنقلنا إلى الجماهير التي أحاطت به حينذاك ، وتحببنا في الجو الذي تم فيه السلطان له إذ يقول :

« ... ! ظم دى فكفتها ، ومددعوها فقبضتها ، ثم تدا ككم على تداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها ، حتى انقطعت النعل ، وسقطت الرداء ، ووطى الضعيف . وبلغ من سرور الناس ببيعتهم إياي أن ابتهج بها الصغير ، وهدج إليها الكبير ، وتحامل نحوها العليل ، وحسرت إليها الكعاب ... »

فما بال الحسن يقول ما قال ؟ ... وهل أنسى أن البيعة كانت من حق أهل المدينة وحدهم . وأنهم اختاروا من قبل أبا بكر ، وأقروا عمر ، وأبرموا بيعة عثمان ، فلم تأت بيعة الأمصار لكل هؤلاء إلا بعد أن تربعوا عرش الخلافة ؟ .. أم كان يرى أن يدع أبوه الأمر فوضى في يد الأقاليم الإسلامية — وليس يخلو واحد منها من طامع في السيادة — فيتفرق أمر الناس بين طائفة من نهازي الفرص والأدعاء ؟ . . . ذلك إذن رأى مردود ! . . . وأضعف منه أن يصبر الإمام على عباد المنصب فيدعهم يحتلبون الإمرة التي أولاه الشعب ولا يد يده لإقرار الأمن والنظام . . .

ونفض على فاستقبل الجمع . ونقض آراء ولده بما شاء ، حتى إذا انتهى إلى

ذكر حركة العصيان كان لا بد له أن يختار بين مذلة الجبن والتخاذل وبين العنف والاحتكام إلى السيف فصاح :

« . . . والله لا أكون كالضبع تنام على طول الدم حتى يصل إليها طالبها ويختلها راصدها . . . ولكنني أضرب بالمقبل إلى الحق المدبر عنه ، وبالسامع للطبع العاصي المريب أبدا ، حتى يأتي على بومي . . . »

## ١٠

وصل مدد المدينة ، وأخذت الربذة عوج بالرجال . ولكن الكوفة لم ترسل مددها بعد . . . الكوفة التي قدمها على الأمصار وآثر أهلها على غيرهم حتى كتب لهم يقول :

« . . . إني اخترتكم والتزول بين أظهركم . . . وفزعت إليكم لما حدث ، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا ، وانهضوا إلينا ، فإصلاح ما نريد ، لتعود الأمة إخوانا . . . »

أفقمعدوا عنه أم أريدوا على القعود ؟ . . . لا خبر . لم يأتيه من محمد بن أبي بكر نبأ عن القوم ، ولا كيف استقبلوا رسالته إليهم ومحمد آ سفيره . الظن وحده لا يشفع عنده للقطع برأى وإن كانت بنفسه شكوك من واليه أبي موسى الأشعري الذي تملك طبيعة التردد . . .

بوسعه الآن أن يبدأ الزحف ، وثيدا وثيدا ، ثم يصله رجال الكوفة وهو يبعث الطريق . إن الزمن يمر مسرعا كالغيمة وقت العاصفة التي تزار في أجوائها هوج الريح . . . وحزب الجمل لا بد قد بلغ البصرة ، وطرق أبوابها أو اغتصبها عنوة . هو لا يخشى أن يفوز طلحة دونه بالخلافة ، أو يفوز الزبير ، ولكنه يود لو استطاع أن يحمد الفتنة قبل أن يملق شررها ببقية البلاد . الصاحبان ليسا عنده بذوى خطر مرهوب لأنه بقدريهما لدى شعبه عليم ، ويمكنون تقسيمهما على بينة . الأيام كفيلة بهما وبما اتوياه ، تكشفه اليوم أو غدا أو بعد عام . حتى

لو أتيح لها الظفر لما أمهل القدر لها في الفرح به ، لأن التناحر على السيادة سيقطع ما بينهما في نهاية الأمر ، ويردها عدوين يتخاضمان . . . وما كان على بالذى تشكل عليه خبيثة الأنفس التي يشى بها الفعل وتم عن مكنونها مقدمات من الهوى والشهوات . . . وهذا حديثه عنهما يصورها كحقيقة الحال ، بما فيها من الأضواء والظلال . . . وصفهما مرة فقال :

« . . . كل واحد منهما يرجو الأمر له ، ويمطفه عليه دون صاحبه . . . لا يبتان إلى الله بحبل ، ولا يعدان إليه بسبب . . . كل واحد منهما حامل ضب لصاحبه وعمّا قليل يكشف قناعه ، والله لئن أصابوا الذى يريدون لينتزعن هذا نفس هذا ، وليأتين هذا على هذا ! . . . » .

وقر رايه على المسير فنادى مناديه فى الناس ، ورتب للأهبة جيشه الصغير . الراية لابنه محمد بن الحنفية ، وعلى المقدمة أبو ليلى ، وعلى الميمنة ابن عباس ، يقابله على ميسرة القوم عمر بن أبى سلمة الذى خرج يدرأ عن الإمام فى المقام الذى طالما تمت أمه زوج رسول الله أن تقوم فيه . . . وعندما أوشكت القوة أن تبارح الربذة نهض ابن رفاعه يستنبي السياسة التى انتهى إليها عزم أميره ، فقال يسأله :

« أى شىء تريد ، وإلى أين تسير بنا يا أمير المؤمنين . . . » .  
فأجابه دون تردد :

« إن أريد إلا الإصلاح ، إن قبلوا منا ، وأجابونا إليه . » .

« فإن لم يجيبونا ؟ . . . » .

« ندعهم بعذرهم ، ونصبر . . . » .

« فإن لم يرضوا ؟ . » .

« ندعهم ما تركونا . . . » .

« فإن لم يتركونا ؟ . » .

« امتنعنا منهم . » .

وكذلك وضع أنه ما زال يستمسك بالسلم ويحرص عليه حتى اللحظة الأخيرة وإن خالفه أعداؤه وأقاموا على العناد . وسيصبر عليهم جهده ، ويركن للحسنى

فلا ييادئهم بعدوان ، بل قد عزم أن يتمتع عنهم ما وسعه الامتناع عسى أن يكون في هذه المقاومة السلبية ما يفل من حدة افئثاتهم عليه فيرتدوا إلى حجة الصواب . . .

وهتف ابن غزيرة الأنصارى مثيلاً على هذه السباحة التي تمز في الدعاة دع عنك رجال الحرب والقتال :

« والله لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول ، ولأنصرن الله كما سمانا أنصاراً ! . . . » .

وانطلق الجيش ، يؤمه على على ناقة حمراء ، والراجز أمامه يهزج للجنود التي أفعم قلوبها الإيمان :

« سيروا أبابيل وحثوا السيرا إذ عزم السير وقولوا خيراً . . . »

إلى ذى قار كان ينو طرفه فيها يستطيع أن ينتظر مدد الكوفة وهو منها ومن البصرة قريب ، أو ينتظر من ابن أبي بكر أنباء الأشعرى ومدى اهتمامه بالدعوة إلى النهوض بالجند والسلاح . . . مضى برجاله يقطع الصحراء ، في تريت ومهل ، يكاد يستنبيء الأرض نفسها خفي الأخبار . ولم يكن طريقه موحشاً كله . بين كل مرحلة وأختها كان يطلع له الناس ، من أهل القبائل الضاربة في البيد ، يعرضون أن يستلحقهم بجيشه ليكون لهم أجر الكفاح من أجل مثله ، وتحت رايته . . . ولكنه استمسك بعزمه الأول فردهم . كان يتعرج أن يشرك معه أحداً من الأعراب خشية أن يكونوا ممن أعان على عثمان فيكون فيهم لأعدائه حجة عليه . . . أتته أسد إذ نزل بفيد يعرضون أنفسهم فأباهم ، وأتته بعدهم بكر بن وائل فلم يفوزوا في كتابته . . . وعندما بلغ من طريقه بعض مراحله ، استقبل رجلاً من أهل الكوفة فاستنبأه خبر بلدته ، لعل لديه من أمر الأشعرى نبأ قال يسأله :

« من الرجل ؟ . . . » .

« عامر بن مطر » .

« فما وراءك ؟ . . . » .

فأجاب بعد أن تحدث بطرف من أخبار المصر :  
« إن أردت الصلح فأبو موسى صاحب ذلك ، وإن أردت القتال فما هو  
بصاحبه . . . » .

فمئذ أعلم الوالى المتخاذل أن الإمام كان يضرر لأعدائه غير ما كان يتحدث  
الناس أنه يديه . . . أم هي وسيلة الأشعري إلى القمود وتبسيط همه أهل إقليمه  
عن النهوض استجابة لأمر الأمير ؟ . . . وكيف أحل نفسه أن يتصرف في  
الأمر من دون ولى أمره فيسمع حين يشاء وبالشرط الذى يرضاه ، ويرفض  
إذا شاء . . .

ولكن الأخبار ما برحت تأنيه دراكا كلما اتسع خطوه في الفلاة واقترب  
من ذى قار . . . فيفيد علم طرفا من سياسة أبي موسى يتم عن انخيازه إلى  
التخاذل والتبسيط . وفي الثعلبية بلغه نبأ المهانة التى لحقت بعمان بن حنيف ،  
عامله على البصرة ، من رجال عائشة الذين دخلوا البلدة في ثياب الغزاة . . . وفي  
الآساد عرف بما أصاب حكيم بن جبلة ، وبالمقتلة التى أشاعها حزب الجمل في  
جماعة كبيرة ألصقت بها تهمة اغتيال ابن عقان . . . الله وحده يحزى الطغاة  
الباغين ! . . . وهل يملك على في هذه الآونة إلا أن يسترجع ويردد أسفه :  
« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب . . . » . . .

ولكنه ظل يطوى نفسه على أساء فما يستطيع أن يرد الأقدار . ومضى  
بجنده عبر الصحراء . فإن هو إلا قليل حتى بداله راكب يسرع السير ، على  
وجهه وعناء رحلة طويلة ، وتكاد أن تستروح النفس المهمة من أردانه رجحاً  
تشى بسر يطويه . . . ولم تحب فراسة الإمام ولم يضلله حذسه ، فالراكب كان حقاً  
على بينة من كثير وكثير . . .

وهتف على به يدعو :

« أيها الراكب ! »

فأقبل .

« أين أتيت الظعينة ؟ . . . »



فغلبت الدهشة على سبناه . من أين لأمر المؤمنين علم ما كان ؟ . . . ولكن الرجل أحس أنه حيال امرئ بصير ، كأن الأنبياء تصل إليه على متن الريح ! . . . وحدث بمأشاهد ، لم يضمن شيئاً . . . كل تلك الرحلة التي كان هو دليلها منذ بارح ركب أم المؤمنين مكة حدثهم عنها . . . وكان حديثه قصة ضمنت الأعاجيب ! . . .

ثم أردف من بعد يتم الكلام :

« وهذه معي ناقمتها ، بعثتم بها جملي الأحمر يا أمير المؤمنين . . . »

« فهل لك دلالة بذى قار ؟ . . . »

« لعل أدل الناس . . . »

ثماني ليال مضين عليه وهو بالطريق منذ غادر المدينة ولم يعد بعد محمد ابن أبي بكر من سفارته لأهل الكوفة . إن آفة الأمر هي هذا الأشعري دون ريب ، الذي أباح نفسه ما لا يجوز من عامل مأمور بالطاعة ، وراح يبتث العقبات في سبيل الإمام . ولو أنه استجاب للدعوة فبعث من لديه يندون جيش على الصغير لبلغت كتابته البصرة قبل أن يستطيع أصحاب عائشة أن ينالوها بشيء ولو سع علياً أن ينفذ خطة الإصلاح التي انتواها ساعة الخروج . . . ولكن الوالي الماصي سدر في تردده ، وفي تقاعده ، حتى تجذمت كل أسباب الخلاف وافتتن الناس ولب العصاة في الطغيان بعد أن أغراهم النصر الرخيص الذي نالوه بالبصرة على واليها الذي صبر عليهم وجنح للسلام حتى خدعوه . . . آفة الخطة كلها هذا الأشعري المتخاذل ، وإنه عن الأحداث اللاحقة لأول مسئول . . . وها هو الإمام وقد نزل بذى قار يأتيه عنه ما يشير غضبه ، ويعلاً بالحزن والأسف قلبه . إن الشيخ المقتون يعمن في عاده إلى غير حدود . . . وهل أدل على خطئ رأيه وروز العداء من موقفه من هذه الرسالة الموجزة التي بعث بها هاشم بن عتبة إلى علي وكان قد أرسله للكوفة ليسبر غور ذلك العامل الخارج على طاعة مولاه ؟ . . . « قد قدمت على رجل غال مشاق ظاهر القمل والشنآن ! . . . »

١١

هذا حديث العرنى ، صاحب عسكر ، الذى تحدث به حين صادف الإمام  
قبيل ذى قار :

« . . بينا أنا أسير على جبل ، إذ عرض لى راكب فقال :

« يا صاحب الجمل ، أتبيع جملك ؟ »

« نعم »

« بكم ؟ »

« بألف درهم »

« ويحك ! . . . أجنون أنت ؟ . . . جمل يباع بألف ؟ . . . »

« نعم . . . جملى هذا . . . فما طلبت عليه أحداً قط إلا أدركته ، ولا طلبنى

وأنا عليه أحد قط إلا فته . . . »

على أى حال قد أروضوه فى نهاية الأمر ، ومنعوه مالا وناقة فى نظير عسكر  
الجميل . . . وسار أمام رواحلهم يدهم على الطريق . . . كلما نزل بأرض أعلن لهم  
منزله ، أو مر ببناء صاح باصمه مهونا عليهم بقية المراحل . . . إنه لم يكن رجلاً يعيل  
للتنازع الذى غمر القوم ، ولا كان يعنى مثلهم بالنشاط السياسى الذى مارسوه .  
كل همهم أن يقطع الأرض ، ويطوى دنى الصحراء الوسيعة ، ويعد بأنفه المرهف  
فيعرف الفجاج والدروب كأنه يشم ريح فريسة . . . فهذه هى حياته ، وذلك عمله  
منذ عرف الحياة ، وعندما أشرف على تلك البقعة أحس أنه قد وصلها وإن لم ترشده  
إليها المعالم ، وإن لها الظلام فى وشاح . كان شعوره هو الذى يهديه ، وكان يسبق  
نظرات عينيه فيعلن السكان قبل أن يتبين للحظة . . . وقبل أن يصل إلى مسامعه  
رغاء بعير أو ثغاء شاة أو حفيف غصن ينم عن الحياة فى جانب هذا البلقع المديد ،  
رفع العرنى صوته فأعلن السكان :

« الحوآب ! . . . »

ولكن الكلمة تاهت في دوى النباح الذى أطلقته كلاب الدائرة الساهرة ، فلم يصل جرسها إلى ساكنة الهودج صافيا يحمل لها دلالة . . . آلوأب يا ترى قال ؟ . . . سمعها ولم يسمعها ، ولم يعدها الرجل ثانية . . . للحظة قضت عائشة ترفهف السمع ، وتكاد أن تمسك الأنفاس . ودت لو أرسلت أذنها عبر هواء الأمسية لتلتقط الكلمة قبل أن تبددها الريح ! ولكن حروفها توارت عنها في ثنايا النباح . . . الكلاب الساهرة تلتفتها قبلها بأفواه منهومة ا وراحت حلوقتها تقبارى بهرير وعواء وزئير . . .

ومدت السيدة أصابعها في قلق فحسرت بمض الستر الذى كان يغشى الهودج ، وألقت نظرة على ما حولها فإذا ابن طلحة منها قريب . . .  
« أى ماء هذا يا محمد ؟ . . . »

« ماء الحوأب يا أم المؤمنين . »

فكأنما انقضت على فؤادها صخرة . . . وهتفت وهى تلهث حتى لأوشك صوتها أن يبدو قادمًا من أعماق سحابة الأغوار :  
« ما أراى إلا راجعة ! . . . »

« راجعة ؟ . . . ولم ؟ تقدمى يرحمك الله ! »

فلم تصغ إليه ، إنها لم تعد هى . مضت المرأة الراسخة القاب الثابتة الجنان وجاءت على أثرها أخرى قد ملكها هلع مجنون ! . . . كفها التى حسرت بعض الستر انطلقت تضرب عضد عسكر ، راجعة مضطربة ، بغير وعى ولا إرادة ، وصوتها الهامسى اللاهث استحال صرخة مدوية شقت هدأة الفلاة :  
« إنى لهيه ! . . . ردونى ردونى ! . . . »

فيم هذه الثورة وهذا الصراخ ؟ . . . العربى لا يدرى شيئاً ، ولم يدرك أن كلمة من بضعة أحرف تعلن موقع مكان لها مثل هذا الأثر المفزع فى نفس أم المؤمنين . لعل الركب كله كان مثله ، ليس على بينة من الدلالة التى عليها دل ماء الحوأب ، فقد تلقفوا الصرخة واجمين ، وراحت الألسنة تتجاوب بالهمس والنساءل . وقع الاضطراب فى الجيش للدل يجبرونه كأنما لقيه عدو عنيد

سوال ، وتناوبته سيوفه من كل جانب . . وأقبل الناس صوبها في دهشة غامرة ،  
فأناخوا مطيهم حيث أناخت بعيرها وما زالت تبكي . . . ودلف بينهم فوق أشم  
فارع ، صلب العود ، يتوثب في مسيره كأنه ذئب ، أطلس بونه ، على وجهة الهضم  
لمح العزم وإن حدثت به السن ، وفي عينيه ومضات رجولة وإن بدا أمره ،  
لا لحية له ولا شعر يحف وجنتيه . فما أسرع ما أسمعوا له حين تبيينوا فيه عبد الله  
ابن الزبير ، ربيب عائشة ، وحفيد الصديق . . .

« يا أمه ؟ . . »

فساحت ثانية ولما تبرحها غاشية خوفها الجياح :

« أنا والله صاحبة كلاب الحوآب ! . . ردوني . ردوني ! . . »

وكانت صاحبها حقاً ! . فلو أصفت من قبل لنصح أم سمة لما رأت نفسها  
بهذا الموقف العسير ، ولعالت قدرها وتجنبت هذا المصير . ولكنها كلمة حق  
نطق بها رسول الله ذات يوم وهو يلقي بعينه في غمرة العيب فيرى زوجه بهذا  
المكان ، ناهضة في فتنة شاء لو ارتدت عنها . . ذلك يوم منقوش بذهن عائشة ،  
لم يبدد ذكره الزمن ، ولم يغشها النسيان . منذ أيام قلائل أعادتها لذهنها ثانية  
ضرتها أم سمة وهي تحاول أن تثنيها عن عزمها في السير على رأس جيش العصاة .  
ولكنها لم تسمع منها ، ركبتها عنادها أو اعتدادها حتى أغفلت ذلك الحديث . .  
أما الآن فهو يدوي في سمعها دوى الطبول . ويعيدها بخيالها إلى ذات المشهد الذي  
مرت عليه الأعوام . . إنها ترى نفسها جالسة وأمامها إناء تأخذ من مائه فتغسل  
رأس زوجها العظيم ، وإلى جوارها أم سمة تخطط تمرأ بلبن وتمعد منه طعاما . .  
فأى خاطر إذ ذاك قفز بذهن رسول الله حتى جاوز السنين وأشرفت عينه على  
الوقوف الذي تقفه عائشة اليوم ؟ . . أو مضى إلهام ؟ . . أفرجة في ستر العيب  
انجابت أمام بصيرته الملاحظة ؟ . . لقد حرر رأسه من كنفها ، وألقى نظرة  
عجلى تنقلت بين البرأتين وهو يهتف بهما في صوته الهادئ الرزين قولاً تذكر  
من معناه أنه كان يضم مثل هذه الكلمات :

« يا ليت شعري . أيتكن صاحبة الجمل الأذن ، تنبئها كلاب الحواب فتكون ناكبة عن الصراط ؟ »

فرفعت أم سلمة يدها من الطعام مذعورة ، وسارعت تجيب :

« أعوذ بالله وبرسوله من ذلك ! »

« كأنى بإحدا كن قد نبئتها كلاب الحواب . . . »

وضرب بكفه على ظهر عائشة وهو يتم الحديث :

« إياك أن تكونيها يا حميراء . »

فكاتها . . . كاتها ولم ينفعها التحذير . . . لودت لو أصغت لنصح أم سلمة

فقد وضع كيف أخلصت لها النصح منذ أيام . أكتب عليها أن تكون حقاً

صاحبة ذلك القدر المقدور ؟ . . . أما يسعها أن تهرب منه ؟ . . . لترجمن ! ولتهربن

إذن فرار الريم . . .

أفستطيع ؟ . . . لولا ابن اختها لفعلت ، ولارتدت على عقبيها إلى مكة خلفه

ركب الفتنة بمن فيه . . . ولكن عبد الله كان يدرك الخطر الذي سينجم من فرار

عائشة — الخطر على الدعوة الباغية وعلى حزب أبيه ! . . . لقد كانت أم المؤمنين

لواء جيشهم ، من أجلها تبعهم الناس ، وبها اقتدت العامة المفتونون بالأسماء

البراقة . . . ولو خلى بينها وبين العودة فأحر بأكثر جندهم أن ينفضوا عنهم ،

فتفشل خطتهم ، وتذهب ريحهم ، وتفقوض أركان نظامهم القى وضعوا أسسها

على مناهضة سلطة الإمام .

فليتخذ القى إذن قرباناً يضعى به على هيكل غرضه ، وليكن قربانه العرني

للمسكين . . . ما كان أهون أن ينسب الغفلة إلى الدليل . ويلصق به خطأ هو

منه براء عسى أن يبقى على أم المؤمنين بين الصفوف . . . في لحظات قلائل وسعه

أن يدبر ، وأن يحكم تدبيره ، وأن ينزع بذرة الخوف من قلب خالته الخزعة . . .

فلقد أقسم لها وأنها بشهود من الأعراب أقسموا أمامها أنها واهمة ، وأن

الماء ليس بالحواب الذي كانت تخشاه ، فكانت أول شهادة زور سجلت

في الإسلام . . .

ولكن عائشة ظلت حيرى بين الشك واليقين . لم يقنعها تماماً قسم عبد الله ، ولا شهادة أعرابه الذين وضع في أفواههم حيلته الكذابة . وأوشك التردد الذى ملك السيدة أن يفسد على الفتى تديره ، وبردها ثانية ميالة إلى الرجوع حرصاً منها على التزام الصراط ، واستجابة لحديث زوجها وتحذيره . . . فإن هى إلا لحظات أخرى حتى فتح جمعته على حيلة جديدة ، نجحت حيث أخفقت سابقها وكانت أجدى عليه .

رد طرفه عن الأفق المتراعى ، ثم أقبل وهو يصيح بصوت مدوى الرنين :  
« النجاء النجاء ! . . لقد أدرككم والله على بن أبى طالب . . . »

فركبت الناس فزعة جعلتهم يستبقون إلى مطيهم ، يضربون آباطها للفرار . . . وكانت عائشة أول الناجين . . . حملها عسكر ، ومضى بها فى هودجها على رأس الركب .

أما العرنى فقد خلفوه ولم يكذ ينجو من سبابهم المقذع ، لأنه تكلم بما عرف وهو لا يعرف أنهم كانوا يؤثرون له السكوت ! . . ومضى الرجل حائراً ، وحيداً فى البيد ، حتى لقيه الإمام ، فروى له حديثه المعجيب .

وسار الركب . وجلست أم المؤمنين فى ملاذها تستعيد الأحداث ! . . لنوشك أن نراها فريسة للظنون ، يراودها الشك فيما أكده لها عبد الله . يا ترى أصدقها القول ؟ . . محمد بن طلحة ليس عندها بمتهم ، وقد قرر أنه ذلك الماء . والدليل نفسه كذلك . وقلبا أيضاً ! . . قلبها ما زال يأكله الريب . كما اهتز بها الهودج نقت ذهنها من ذكرياته شيئاً يزيد فى بناء قلقها لبنة . إنها تكاد توقن الآن أن عدوها هى غيرتها ، فلولاها لأبصرت طريقها لا يغشيه ضباب الأغراض ، ولتيينت الحقيقة ، ولرأت الحق فى جانب الإمام ثم لم تتعيف عليه إن لم تعنه وتدعوه . ولكنها نظرة المرأة . . طبيعتها الغلابية هى التى أوقفها هذا الموقف المسير . وكمن قبل أوقت بها على مثله لم تصنع لصوت العقل . . حق وزوجها بهذه الحياة كانت عاطفتها تركب بها الشطط ، أم إفراطها فى حب ذلك الزوج هو الذى

جنبها الحكمة ؟ . . . بل هو هذا الحب الذى جرفها تياره فلم تملك معه لقلبها قياداً ولا لعقلها عقلاً يسكنه أن ينصرف إلى المغالاة . . إنها لتذكر يوماً حدث هذا فيه ، ولم يجد من غلوائها ولا اندفاعها عنها فى العاطفة أن كان رسول الله منها قريباً يشهد ما تورطت فيه . أم سلمة أيضاً شهدت ، وذكرتها بخبره قبيل سير مواكب الفتنة ، فلم يغن عنها التذكير . . أما الآن وقد خلت بنفسها غيالها بهم فى الماضى حتى يلم بالحادث الذى أورثها حياء يضرج لونها لهذه الساعة . . كان رسول الله قد هبط إذ ذاك من قديد ذات الشمال ، ومعه بعض نسائه ، فهن عائشة وفيهن أم سلمة ، فخلاً بعلى ناحية يناجيه . وأسرف — فيما بدا لابنة أبى بكر — فى الحديث والناجاة . ولعبت بقلبها الغيرة فكبتها . . . ، ثم جدت ، ثم زارت ، ثم عصفت حتى غلبتها على نهاها وحكمتها . . وتوسمت أم سلمة فى صاحبها أمرا نهم أن تبرمه فردتها عنه . ولكن عائشة لم تصبر ، ولم تسمع للصاحبة الناصحة الأريية . بل انطلقت غضبي إلى الرجلين لتنفث ما اعتمل بصدرها من غل الغيرة . .

هجمت على على وصاحت به وهى لا تدرى أى خطئ تأتيه :

« . . . ليس لى من رسول الله إلا يوم من تسعة ، ألما تدعى يا ابن

أبى طالب ويومى ! . . . »

فلم يفه بكلمة . بل أغضى عنها فى هدوء وحلم . . .

ولكن محمداً لم يصبر ، حلمه الواسع ضاق هذه اللحظة عن غيرة زوجه ، فإذا وجهه يندفع إليه الدم ، وإذا بصره يشتعل بالغضب ، فينهرها بمجدة غير مألوفة منه :

« ارجعى وراءك ! . . . »

فوقفت باهتة حيرى . . الآن فقط عرفت أنها ركبت الشطط . .

وأتى رسول الله حديثه وهو ما زال غضبان :

« . . . والله لا ينفذه أحد من أهل بيتى ، ولا من غيرهم إلا وهو خازج

عن الإيمان ! . . . »

فاساقت الندم في قلبها كمثل الدمع الذي ابتدرت عيناها به ، وجرت قدميها ،  
وعادت على خزي .

أفكانت هي تبغض عليا كما تعنى كلمة البغض ؟ . . . كلا ، قطعا ! . . . وإن هي  
إلا نزوة نفسية ، أيا ما كانت وكان باعثها ، فقد كانت توقعها منه دائماً موقف  
المنافر . وحتى حين جاءها بمكة نبأ إمرأته وأبت عليه أن يؤول إليه سلطان الإسلام .  
لم تكن تبغضه . هي لا تستطيع سبيلا إلى بغضه وتحرص أبداً أن تنأى بنفسها  
عن هذه الخطيئة . فما نسيت أنه كان أدنى قومه إلى قلب محمد ، وآثرهم وأحبهم  
إليه . وهو لليوم أبقاهم معدنا وأطهرهم طبيعة . . . إنها تعلم هذا ولا يتخالجهما فيه  
شك ولكنها مغلوقة على علمها بذلك الشعور المنافر . وهل غاب عنها كيف  
أوشك زوجها ذات يوم أن يوصى له بالأمر بعده وصاة سافرة لا تحتدل التأويل  
لولا خشيته أن يتفرق عنه الناس لهذا السبب أو لذلك . . . لم تنس . لا يسمها  
إلا أن تذكر . كرة أخرى يرن في سمعها حديث أم سلمة كأن السيدة معها الآن  
بالمهودج تحدثها به . فالحادث وقع في سفر أيضاً . كسفرها هذا ، وإن طوح  
به الزمن في غور الغابر . . . وشهدته معها أم سلمة كالأخر . كانتا ذلك اليوم  
ورسول الله في خلوة عندما طرق أبو بكر وعمر الباب ، فقامت السيدتان إلى  
الحجاب . . .

وأقبل الشيخان وقد أذن لهما فسلما على محمد ، حتى إذا استقر بهما المجلس  
راحا يتحدثانه فيما جاء فيه . . . قالوا له :

« يا رسول الله ، إنا لا ندرى قدر ما تصعبنا . . . فلو أعلمتنا من يستخلف  
علينا ، ليكون لنا بعدك مفزعا . . . » .

فرمى بصره إلى بعيد ، كأنما ينظر إلى ناحية ليس تصل إليها عينا سواه ،  
ثم قال بهدوء :

« أما إني قد أرى مكانه . . . » .



وعندما توقعا أن يبلهما عنه ، باغتهما بهزة من رأسه وقال فيما يشبه صوت  
الأسف الحزين :

« . . . لو فعلت لتفرقم عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون  
ابن عمران ! . . . » .

فضا الطرف . وخرجا بعد قليل من لدنه لا يلويان . . .  
أى الناس يا ترى كان رسول الله يعنيه ؟ . . . السيدتان خلف الحجاب  
يا كلاهما الفضول . لو انساقنا مع الترجيع لوصلنا معا بذهنيهما إلى رجل واحد ..  
فرد من الصعابة المجتبين يكاد أن يوفى إليه هذا الحديث . إن نعمة دلالة أخرى  
تشير إليه . . . حلقة ها هنا تربط بين حديثه هذا وبين آخر سلف به لسان محمد  
ذات يوم إلى التصريح ووجه خطابه فيه إذ ذاك إلى ابن عمه فقال :

« . . . أنت منى بمنزلة هارون من موسى . . . » .

ذات الكلمات ، وذات التشبيه . . . أعليا كان يعنى وقد قال فيه من قبل  
نفس ما أعاد ؟ . . . لا تعلمان . لا تجبان أن تركنا في مثل هذه الأمور إلى اتباع  
الظن الذى قد يخطئ كما يصيب . وإن نهم المرأة إلى الثروة ثم إلى إشباع الفضول  
الغلاب ليدفعهما معا إلى الاستقصاء . ما عليهما من حرج لو فعلتا الآن . وهما هي  
عائشة تهيج بها قبل صاحبها الرغبة إلى المعرفة واستكناه المجهول ، فتبارح  
الستر ، وتندفع متسائلة إلى زوجها الكريم :

« يا رسول الله . . . من كنت مستخلفا عليهم ؟ . . . » .

« خاصف النعل ! . . » .

ولم يزد . وتركها لنفسها تحدى كما نشاء . . .

ولكن الظن لم يطل بها مداه . في لحظات قصار أصبح يقينا لا يغشيه من  
الشك نقاب . عرفت هذا في وجه محمد ، ومن لسانه أيضاً بعد قليل ، وقد  
خرجوا جميعاً ييارحون المكان . . . فعلى مقربة ، وفي ظل سمررة رأت بعينها  
خاصف النعل المنشود يرتق نعلا لزوجها بين يديه . وعندما ألقت على وجهه نظرة  
مستطلعة عرفته أى الرجال كان . . . لقد صدق الحدس ، وثبتت الدلالة ،  
ووضع لديها أن الحلقة بين الحديثين قائمة بلا انقصاص .

وهتفت وصوتها هذه المرة به من العجب أكثر مما فيه من الفضول :  
« . . . ما أرى إلا عليا يا رسول الله ! » .  
« هو ذاك . . . » .

ثم ها هي الآن . . . في هذا المودج على ظهر عسكر ، وبين هذا الحشد  
المحشود من الجند الشاكي السلاح ، وعلى هذا الطريق المؤدى إلى أسوار البصرة  
قد خرجت لغاية لا تعلم أى مصير سوف تجره على أمنها ، وعلى الرجل الذى  
اجتمعت عليه كلمة الشعب قبل كل الرجال . . . وأى خروج ؟ وأى رجل ؟ . .  
إنه نظير هارون الذى تفرقت عنه بنو إسرائيل !

فرسان حکیم

ألقت نظرة من خلل الستر إلى الوراء ، فإذا الصحراء مديدة ، فارغة «  
تغرق في فضاءها الرحيب العين . لا أثر لجملة جيش على ، لا إلى اليمين ولا إلى  
اليسار . ولا ما ينبئ عن اقترابه . كانت إذن صرخة ابن الزبير حيلة لجلها  
على المسير . . . .

ثم ردت الطرف فطالمت وجهة الركب . بدت الحفير لها على قيد عين . أما  
البصرة فإن هي إلا مسيرة يوم وبعضه ثم تشارفها . . . وأهلها أمنة لا يدرون  
على أى حال سوف يصبحهم أو يسيهم هذا الجيش الزاحف من البلدة الحرام . . .  
لو ترك الأمر للسيدة لتنادت تطلب من رجالها أن يلووا أعنة المطايا عابدين .  
ولكن أتستطيع ؟ . . أيسمعون ؟ . . إن كل نقلة خف تدنى جملها من الهدف  
تحس هي كأنها على فؤادها المتقل . ليست تدري كيف تبدل شعورها هكذا من  
التقيض للتقيض . وليست تدرك لم الإقدام ، والإحجام كان أولى وأمثل .  
الدلالات على خطتها قائمة لها أعلام ، والطريق إلى الحق معلم مرسوم ، يتجه إلى  
وراء لا إلى أمام ، ومع ذلك فهي تنطلق قدما على كره كأنما شدوها إلى الركب  
الزاحف ؟ . . كلما عاودتها الذكرى ورن في سمعها هاتف الرجوع دوت أصوات  
سواء فأغرقت في ضوضائها الرفيعة وراحت تزين لها دعوة الإصلاح . كلاب  
الحواب ذاتها عني على نباها الدوى الرفيع . . . وخاصف النعل ذابت صورته  
في ضباب الأبنية التي تراقصت أمامها الآن كالأشباح . . . في غمرة قلقها تشبثت  
بظنها في أن تكون ذات بركة على الناس . تؤلف بينهم ، وتردم كرة أخرى  
إخوانا على صفاء . أما كيف سيكون هذا التوفيق ، وأنى لأداة حربها هذه أن  
تكون أداة سلام ، فهذا ما لم تكن تدري . حسبا أن تضم نية نية ثم تفيد  
من مر الأحداث ا

على أن نعمة أمراً آخر كان يدفعها إلى المسير . ليس هو بالحق على أمير المؤمنين ، ولا بالرغبة في استنزاف ملكة من يديه . بل تلك الهامة التي تبدو في الخيال قائمة بناحية من حش كوكب ، على قبر تائه في اللحد احتوى جثمان الخليفة القليل . . . لتكاد الشاعر أن تعود إلى خرافة الجاهلية فتسمع روح عثمان على طرف قبره تصيح : « اسقوني » وهي ظمأى إلى الدماء ؟ . الكلف بالنار كان هو الذي يقود خطاً أم المؤمنين . إنها تنهض للقصاص . . . موقورة تسعى إلى رى الهامة الظمآن . . . فذلك وحده عذرها في المسير .

كانت تعلم أن القلة قد خلفتهم خلفها بمكان غير هذا المكان . وفي الحاضرة خلفتهم ، يملكونها بقواهم المزودة بالعديد والسلاح . وكأن أولى بها أن تضم قواها المجيشة هذه إلى صاحب الأمر الشرعى فتكون عوناً له على الخصوم . ولكنها مضت واتبته الأحرى ، قطعت الشوط كله فليس نعمة مجال إلى النكوس . على أى حال ها هنا جانب من أهل الفتنة يجدر أن ترتوي الظبا منهم فجيئها إذن لا ينقصه التبرير . . . ولو وسعها لثارت ثم رجعت خليفة الضمير ، لا يعلق بها ندم على ما سلف منها في حق الشيخ الذى ألبت عليه إنكار الناس في كل الأقاليم وكان قذفها فيه أول سلاح ماض أشهر عليه . . . ستأخذ له اليوم بقدر ما أخذت منه ثم تستريح . . .

ذلك كان ظنها أو ما عقدت النية عليه . ولكن النوايا مرايا لا تطابق دائماً بين الأصل والخيال . لطالما خالف الفعل النية وقضت الأحداث بغير ما تضرر الطوية عائشة الآن توشك أن تضلها الرآة فلا تمكس من فعالها ما لعلها حسبته نتيجة محتومة لئيتها الخالصة . ستبدي لها بعد قليل صورة قبيحة شوهاه حتى لتكرها أشد الإنكار ثم تندم أشد الندم ما عاشت في هذه الحياة . ولكن أنى لها أن تقتنع الغيب وتبين سره حتى تجنبه قبل أن تجرى به القادير ؟ ... لا حيلة لها فيما لا حيلة فيه . . . أما اليوم فصرخة الهامة يلاأت عليها الآفاق ، وأبدية البصرة قربت ما بينها وبين القصاص . . . أقتنع البلدة ؟ ... أتسير إلى ثأرها على طريق تبعده الأشلاء ؟ . كيف لها برضاء ابن حنيف

عما جاءت فيه لتجنب مقتلة قد يصلها كثير من الأبرياء ممن لا يد لهم في مصرع عثمان ؟ . . .

هذا عمير التميمي قد أقبل عليها بالجواب المطلوب . فما أسرع أن رأت نفسها قد بارحتها الحيرة حين سمعته يقول :

« يا أم المؤمنين . . . أشدك بالله أن تقدمي اليوم على قوم لم تراسلي منهم أحدا فيكفيكم . . . » .

فهمت مبسوطه الأسارير :

« إنك لامرؤ صالح . . . جئتني بالرأى . . . »

« فعجلى ابن عامر فليدخل ، فإن له صنائع يلقون الناس حتى تقدمي فيسمعوا ما جئتم فيه . . . » .

فعلت . لولا ما هي فيه من ضيق ما ألقت بدعوتها بين يدي هذا الذي تعلم أنه طريد أهل البصرة منذ وقت قصير . ولكنه على أى حال أداة . بل الأداة الوحيدة التي تملكها اليوم ولا بد لها من الضرب بها عسى أن تنجى بعض اللأمول ، فلن يعدم الرجل أن يكون له بين جدران البلدة أنصار وإن كانوا من بطانة التفت به أيام إمرته لتصيد الآراب . . . ظهوره لا ريب سيحيي الأمل في نفوس أعواته القدامى ويدفعهم إلى العمل بجانبه ومن أجل حربه لعل عهد مجدهم يعود . . .

وقد نجحت هذه الفكرة بعض النجاح ، بل كان لها أثر في تحويل جانب من الرأى العام بالبصرة لناحية عائشة ، وجانب آخر أشاعت في نفوس أصحابه التردد فما يعلمون بأى فريق من الفريقين يلحقون ، وبقيت طائفة على ولائها للإمام لا تحيد . ولم يخف هذا عن الوالى وإن ظلت بنفسه بقية من شك لا يملك معها القطع برأى فى مدى تبليل الأفكار ، فلما أراد أن يسبر غور النفوس ، دس بالمسجد رجلا قام يتحدث فى الملاء الحاشد ويقول :

« . . . أيها الناس . إن هؤلاء القوم الذين جاءوكم إن كانوا جاءوكم خائفين فقد جاءوا من للكان الذى يأمن فيه الطير . . . وإن كانوا جاءوا

يطلبون بدم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . . . أطيعوني فيهم فردوهم . . . »  
فما بلغ من كلامه هذا الموضع حتى صاح به آخر معارضا في استنكار :  
أو زعموا أنا قتلة عثمان . . . إنا فزعوا إلينا ليستعينوا بنا على قتله ، منا  
ومن غيرنا . وإن كان القوم أخرجوا من ديارهم ، فمن يمنعهم ؟ . الرجال  
أم البلدان ؟ . »

عندئذ أيقن ابن حنيف أن للزاحفين ناصراً بدار إمرته . . . نوعاً من  
جيش سرى يتأهب دونهم في الحفاء . . .

بمشت عائشة إذن بابن عامر إلى البصرة ليتألف صنائمه ويتخذ منهم دعاة  
يضمنون لحزبها بعض التأييد . وبمشت أيضاً يكتب منها إلى وجوه البصرة  
تناشدهم أن يلتفوا حولها وينصروها . . . بذرت بذرها ثم قرت في انتظار  
ساعة الحصاد . . .

أما الوالى فقد اضطرب عليه حرمه ، والتوت مسالك البت في الأمور .  
الظواهر كلها تفرعه ، وتشير إلى فتنة هوجاء تسندها الأسنة ويسمى إليها  
القوم ، وإلى عصيان سافر بغير نقاب ينتقص أولاً من هبة مولاه ثم لا يلبث  
أن يصير له عقي واحدة جد معلومة هي هدم السلطان القائم على الشعب وبالشعب  
ولكنه مع ذلك كان يشفق من إطلاق يده في التصرف حسبما توحى إليه هذه  
الظواهر . فما يعلم لو ضرب ضربته ودفع بقواه المسلحة لزد العصاة إن كان  
سوف يرضى الإمام . وما يعلم أيضاً لو صبر عليهم وكف عنهم سلاحه أنهم  
لا يثبون عليه ولا يعاجلونه بالعدوان قبل أن يصله من طى أمره الذى يحذيه .  
وبين هذين الرأيين تأرجح فكره وحارت نظرتة . ولكنه لم يستطع أن  
يسكن إلى التردد ، بل رأى لزما عليه أن يستطلع غاية أصحاب عائشة من هذا  
المسير الذى يوشك أن يحدث في الإسلام حدثاً خطيراً للغاية . فلما انتهى به هده  
إلى هذا الحد سارع فأرسل رسولين من لده تخير أن يمثلوا الوعى الأهلى أقرب  
تمثيل : عمران بن حصين ، رجل عامة ، له عاطفتها ، وفيه خفة الفكر التى  
تستهويها الأعراض قبل الجواهر ، وأبا الأسود الدؤلى ، وجل خاصة ، له عمق

التفكير وعناية بالغوص إلى العوامل الخفية حتى ليحسن استخلاص الرأى من بين غمرة العواطف ، ولا يفوته أن يحكم التدبر قبل اعتناق فكرة من الأفكار وقبل تمحيصها أشد التمحيص . . . .

وبلغ الرجال الحفير فقصدوا إلى عائشة ، فلما أذنت لها تحدثا إليها في هدوء :  
« . . . يا أم المؤمنين ، إن أميرنا بعثنا إليك نسألك عن مسيرك ، فهل أنت مخبرتنا ؟ . . . » .

فأجابتهما :

« والله ما مثلى يسير بالأمر المكتوم ، ولا يغطى لبنيه الخبر . . . » .  
ثم راحت تسرد عليهما رأيها الجديد في تقاوة صحيفة عثمان وما كان من قاتليه من استحلال دمه بغير عذر عليه . . . . نعم رأيها الجديد الذى لم يجمل بخلفها إلا بعد ولاية الإمام . . . . فلما أطنبت في حديثها بما شاءت انثنت تدعو بدعوة الثأر في لباس من رقيق الألفاظ :

« . . . إنما خرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم ، وما فيه الناس وراءنا ، وما ينبغي لهم أن يأتوا في إصلاح هذا . . . لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس . . . . . » .

« فهل معك عهد من رسول الله في هذا المسير ؟ . . . »

فردت وهى تكتم ما هم أن يشتعل بنفسها من الحق :

« غضبنا لكم من السوط والعصا ولا تغضب لعثمان من القتل ؟ . . . » .

إن ريحا من الأمانة يهب لا ريب من كلام السيدة حتى ليقرأها السامع على ما جاء فيه ، فالتقصاص كان غايتها وما لها من غاية سواء ، ولكن أعلى هذا يا ترى كان صاحبها ؟ . . . .

ويم الرسولان شطر العسكر ليعلموا رأى الرئيسين المسيطرين على مصائر هذا الجيش وناديا ، فلما أن برز لها طلحة سألاه :

« ما أقدمك علينا ؟ . . . » .

« الطلب بدم عثمان . » .



فانبرى له أبو الأسود يقول :

« يا أبا محمد ، قتلتم عثمان غير مؤمرين لنا في قتله ، وبايعتم عليا غير مؤمرين لنا في بيعته ، فلم تغضب لعثمان إذ قتل ولم تغضب لعلي إذ بويع ... ثم بدا لكم فأردتم خلع علي ، ونحن على الأمر الأول . فعليكم المخرج مما دخلتم فيه ! ... »  
وقال عمران :

« يا طلحة ، إنكم قتلتم عثمان ، ولم تغضب له إذ لم تغضبوا ! ... ثم بايعتم عليا وبايعنا من بايعتم ... فإن كان قتل عثمان صوابا فسيركم لماذا ؟ ... وإن كان خطأ فظكم منه الأوفر ! ... »  
هنا استطاع طلحة أن يقول :

« يا هذان ! ... إن صاحبكما لا يرى أن معه في هذا الأمر غيره ، وليس علي هذا بايعناه ! ... » .

فنهضا عنه . وضحت لهما طويته حتى قال أبو الأسود لصاحبه وهما في الطريق :

« أما هذا فقد صرح أنه إنما غضب للملك يا عمران ! ... » .  
وأتيا الزبير .. فإذا هو أكثر صراحة ، وإذا نفسه الشفافة لا تخفي عنهما شيئا مما يطويه ، وإذا قلبه يسبق لسانه بالحديث وهو يقول :

« ... إن طلحة وإياد كروح في جسدين . وقد كانت منا في عثمان فلتات

احتجبنا فيها إلى المعاذير ، ولو استقبلنا من أمرنا ما استدبرنا نصرناه ... » .

وكانت لهما حجة أخرى إلى جوار ما أخبرا به الرسولين ، قوامها أنهما بايعا الإمام وعنقاهما تحت شفرة السيف ! ... الله وحده يعلم إن كان هذا قد حدث ، ومتى ، وهل ليد علي فيه تدير ! ... ولكنها حجة على أي حال ساقاها تخلصا من عار النكث الذي وقعا فيه ، ما أهون شأنها ، وما أوهى بناءها كأنها نسيج عنكبوت ! ... فلقد غاب عن البيعة كثير ، وأباها كثير فلم يسر إليهم على قط ، ولم يفرضها على أحدهم كرها ، بل خلى بينهم وما اختاروه ...  
وهل موقف ابن عمر وموقف ابن أبي وقاص وموقف أسامة بن زيد غفلت عنها الأذهان ؟ ...

ولكنها كما أسلفنا حجة على أى حال ، وتبرير لنقض البيعة هو اعتذار عن الذنب بالذنب المعن في الخطيئة وفي البطلان . . عذر يخفى وراءه تبييت القوم لم يخف عن ذهن الدولى . حين مضى إلى أميره لم يزد في رواية خبرهم ورأيه على أن قال :

« يا بن حنيف قد أتيت فائتراً وطاعن القوم وجالد واصبر  
وابرز لهم مستلثماً وشمر . . . »

تلك كانت نصيحته وما هداه إليه إدراكه حقائق الأمور المستورة . دواء الداء عنده قبل استفحاله هو الكى ، ولا إمهال قبل هذا ولا تردد . وبنفس هذا رأى طاع عائشة أثناء عودته من مجادلة صاحبها ، لم يخف عنها ولم يداور . سأله إذ ذاك مستطلعة :

« بلغنى أن ابن حنيف يريد قتالى . . . »

فسارع يجابها بما يراه ، وبما ظن أن الوالى لا ريب سيأخذ به :

« نعم والله . . . قتالا أهونه تنذر منه الرءوس . . . »

ولكن ابن حنيف كان لا يزال فى غمرة من الحيرة ، فما سمع دعوة صاحبه له إلى امتشاق الحسام حتى هز رأسه كالأسيف المضيغ وهتف :

« إنا لله وإنا إليه راجعون : دارت رحى الإسلام ورب الكعبة . . »  
وقال عمران :

« . . . والله لتعركنكم عركا طويلا ثم لا يساوى ما بقى منكم كثير شيء »  
« فأشر على . . »

هنا جاء الرجل بالرأى الذى تميله العاطفة المندفعة ولا تميله الحكمة والسياسة التى تحسب قبل كل شيء حساب العواقب والمغبات . . . قال كاشفا عن فكره :

« أفعد ؟ . بل أمنعهم حتى يأتى أمير المؤمنين . . »

« بل يحكم الله ما يريد . . . »

وخرج فلحق بداره وقد أشفق أن يشهر السيف فى وجوه إخوانه فى الإسلام ، ولو تبصر لعلها حربا واجبة . . حربا مقدسة تمسك على الإسلام وحدته وترد عوادي

الشقاق عنه . ومن يدري إن كان قد عولج الأمر بالحزم قبل استفعاله أكان لا يجنب البلاد ويلات الحروب والخلافات اللاحقة الناتجة عن فتنة عائشة وطلحة والزبير . ولكن هكذا كانت نظرتة وليس على المواطف رقيب حساب ! ...  
وجمع عثمان بن حنيف صحبه من ذوى رأى يشاورهم فى الأمر . وقام فخطبهم مبينا لهم ما يراه :

« يا أيها الناس ... إنا بايعتم الله ، يد الله فوق أيديهم . فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . . . والله لو علم على أن أحدا أحق بهذا الأمر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبائع وأطاع وما به إلى أحد من صحابة رسول الله حاجة ، وما بأحد عنه غنى ، فلقد شاركهم فى محاسنهم وما شاركوه فى محاسنه . ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريد الله ، فاستجلا الفطام قبل الرضاع ، والرضاع قبل الولادة ، والولادة قبل الحمل ! .  
وطلبا ثواب الله من العباد ... » .

كان مؤمناً بدوائهما على حق مولاه وبمحبدهما إياه ، يعلم أن نكثهما البيعة له ما وراءه من الأهواء والمطامع الذاتية وإن البسوء ثوباً من التمويه . ولكنه مع ذلك لم يرد أن يركب العنف ، ولعله فى هذا كان مشفقاً من الشقاق الذى لاح أنه يوشك أن يعم أهل إقليمه ويقسمهم فريقين بين الحزبين ... فلقد شهد كيف كان موقف عمران يمارض موقف الدؤلى ، وإتھما لثلاثان لبقية الناس ... بل قد كاد يركن قليلا إلى التزام واجبه فى إطفاء الفتنة بقوة السلاح ، حتى قال له هشام بن عامر :

« يا عثمان ، إن هذا الأمر الذى تروم يسلم إلى شر مما تكره . . . إن هذا فتق لا يرتق ، وصدع لا يجبر ، فساعهم حتى يأتى أمر على ، ولا تحادهم » .  
وتفكر ملياً ودفعت الحمية حكيم بن جبلة فهتف به :

« إن دخلا علينا قاتلناهما ، وإن وقفا تلقيناها ... والله ما أبالى أن أقاتلها وحدى ! أيها الأمير ، هذه دعوة قتيها شهيد وحيا فائز ، فهل ! وهذه ربيعة معك ! ... » .

ولكنه آثر الأولى وجنح للسلام . . .

٢

تحركت قوات عائشة ، وزايلت مواقفها بالخير . لعل صبر ابن حنيف قد أطعمهم فيه . أولعلمهم رأوا أن المرید خير مكاناً من موقفهم الأول فسعوا إليه . وربما لم يكونوا قد أزمعوا بعد أخذ أخصامهم بحد السيوف وإنما ساروا ليخبروا عزم القوم . . إن في بالهم أن طائفة من البصريين حجة العديد سوف تنصرهم وإن كان الوالى قد أخذ الحيلة وتواقف جنده مدججين . . .

وتواقف عليهم أهل البلدة ، فيهم المبعض الزارى وفيهم الولى الحمى . ولم ينم عنهم عثمان بن حنيف ، بل خرج فى رجاله حتى غص المكان بأولئك وهؤلاء . أفكان أصحاب الجمل قد جاءتهم الأخبار من عيونهم بأن صنائع ابن عامر فعلوا فعلتهم وأغروا النفوس حتى خلعت أو كادت تخلع طاعة الإمام ؟ . أوشك هذا أن يكون ما عمر أخلادهم وبات إلى حسابهم أقرب من جند عتاة يملكون عليهم السالك ويدفعونهم دفعا عن استهواء الناس وتجييشهم فى صف الفتنة . . وكان حذسهم صوابا أو قريبا من الصواب إذ بدت الطريق أمامهم مكشوفة لا يعترضها حمة . وحتى حين التقوا فى نواحيها يبعض قوات الوالى لم تلقهم مقاومة ، بل أوسعت لهم دون قتال . .

على الملاينة عقد ابن حنيف العزم ، فالسلم رام . كان رأيه بعد أن شاور صحبه أن يكف عن هذه الجيوش النازحة إليه من الجنوب ما كفت عنه ، حتى يأتيه من أمير المؤمنين أمر . كبح عنها سلاحه ، ورد جماع الكثيرين من رجاله الذين كانوا يرون الخير فى المبادرة إلى قط الهام . . وبالمرید اجتمع الفريقان ، كل إلى ناحية منه : جيوش عائشة فى الميمنة ، وبالميسرة الوالى وأهل الإقليم . لاموقف سلام كان أدنى للحرب من مقامهم ذاك ، ولا أسنة كأستهم أقرب إلى صدور مشرعيها . . لو طارت شيرة واحدة فى الجو حينئذ لكانت كفيله بأن ترتد حريقا يؤجج سحر النار ، فالنفوس فى أعماقها ثورة كالبركان قبل أن يدفع حمه ، والحواس متحفزة ، والأعصاب توترت كمثل القوس عند إعدادها للتصويب .

وكان طلحة هو الذى أثار الشررة . . حينما مد بصره بين الجموع المزدخرة لم يرعة ميدانا خيراً من هذا يخرج منه ملء الكفين بالأسلاب . . . غايته وطائفته من هذه الرحلة كسب الأنصار والأولياء ، وما أقربهم الآن إليه . فقريباً كان للبصرة هوى فيه ، قريباً قبل ما دون العام ، من شهور ، خلال الأحداث التى جرت بمصرع عثمان . فيها له حزب قوى لاريب يسارع إلى نصرته إذا أشار . وفيها أيضاً صنائع ابن عامر ومن عسى أن يكونوا قد اجتذبوا لإناحيتهم من أناس استهوتهم الدعوة أو غرتهم الأمانى المبذولة بغير حساب . أما بقية الأهلين ففرقتان واحدة لن ينزع نازع من قلوبها الولاء للإمام ، وثانية حرية بأن تميل مع الهوى ومع الإغراء كل تميل ، وما الأولى عليه بذات خطر بعد أن علم أن ابن حنيف يحد من غلوائها ويكبح حميتها ليبقى على السلام .

فى هذه الحشود الزاخرة وقف طلحة بجانب المربد الأيمن يزجى الكلام رقيقاً معسولاً يدغدغ به عواطف الناس . فكأنه نسى ما سلف من عيبه على عثمان وشدته فى التأليب عليه ولم يذكر سوى أنه كان باراً ، فاضلاً ، مظلوماً جوزى من مناجزيه أسوأ الجزاء . . . أیطل دمه ياترى ويضيع ؟ . بل القصاص أولى وأقوم وأدعى إلى احترام أوامر الله واجتناب نواهيه :

« . . . أما الطلب بدم الخليفة المظلوم فحد من حدود الله ، فيه إعزاز دين الله وسلطانہ وإنکم أيها الناس إن فعلتم أصبتم وعاد أمرکم إليکم ، وإن ترکتم لم یکن لکم سلطان ولم یقم نظام . . . » .

وتكلم بعده الزبير بمثل كلامه والجموع حولها تنهاتف وتصيح بين المعارضة والتأييد . ليوشك الأمر أن يصل حد الاقتتان ، فإذا قامت عائشة تتحدث بين الناس فأحر بها أن تكسب لحزبها أولياء ، وأن تضع عن نفسها هذه المرة التى لحقتها إذ تركت ما كان أولى بها أن تلتزمه من الحجاب والتستر خلف الجدران . فما زال الناس يلعونها لهذا الخروج ، وما فتوا ينكرون منها إذ هى قدوة للنسوة المؤمنین . . .

وقامت ، وخاطبت الجموع بصوت جهير :

« أيها الناس . . . »

فقطي هتافها على الشعب المشبوب ، وألقوا إليها الأسماع .

كرة أخرى جردت عثمان من كل ما سبق أن أعلفته بثوبه حتى أعادت الثوب  
تقيا ناصع البياض . . . إن عذرها في تغيرها هذا معلوم وإن أخذت خصومه  
أن سمموا لها حتى قتلوه . . . أما الآن فالرجل مظلوم ، ودمه المطلول لا بد أن  
يرده القصاص .

وقالت للقوم :

« . . . كان الناس يتجنون على عثمان ، ويرزون على عماله ، ويأتوننا بالمدينة  
فيستشيروننا . . فننظر في ذلك فنجد برياً تقياً وفياً ، ونجدهم جرة كذبة غدرة . . »  
فلو قالت هذا قبل بضعة أشهر فلعلها كانت تؤخر نهاية الصريع الشيخ .  
ولكن عائشة اليوم غيرها بالأمس . فقد اجتثت من فؤادها دوحة الغضب  
واستتبنت على أثرها دوحة رحمة وإشفاق وتشيع لعثمان . . . من حقها دون  
ريب أن تحزن للقتيل ، وأن تدعو للثأر ممن بغوا عليه لأن القتل جريمة نكراء  
لها قصاص مفروض ، وليس يجدر أن يخلى بين قاتل وبين الحياة يستمرى فيها  
المبث بالرقاب . وإذا كان تطرفها في الغضب بالأمس قد أنساها الحكمة حتى  
أهابت بالمسلمين أن يأخذوا على يد ابن عفان بالعنف ولو قتلوه ، فذلك لم يكن في  
حسباننا إقراراً منها لشرعية الجريمة ولادعوة إليها جادة . . . كان تأليبها على الخليفة  
بصورته القاسية تلك خطأ منها بغير شك ، استشعرت له الندم فيما بعد فقامت  
بحركتها لتكفر عنه . ولكنها الآن تهم أن تعالج نتائجه بخطأ أخش منه ينصف  
الظلم بظلم برىء سواه . . . ألا تراها كيف راحت تدعو الناس ، إلى جوار  
حماهم على الثأر للقتيل ، بدعوة جائرة تعيف على حق الإمام أبلغ التعيف وتوشك  
أن توجج عليه نيران الفتنة في كل الأقطار . . . كانت تقول :

« . . . ألا إن ما ينبغي ولا ينبغي لكم غيره ، أخذ قتلة عثمان ، وإقامة

كتاب الله . . . من رأى أن تنظروا إلى قتلة عثمان فيقتلوا به . . . ثم يرد هذا

الأمر شورى على ما جمعه ابن الخطاب . . . »

فيالها من دعوة ! وياله من منطق ساقته السيدة عجيب ! . . .  
وتصايح الناس . وساد الشغب والمهرج جوانب الفريقين حتى لقد تقاذفوا  
بأقذع التهم ثم تحاثوا فيما بينهم بالحصاء . وأوشكت الفتنة أن تشيع في الصفوف  
والأكف تشتد على مقابض السيوف ثم تهم أن تهزها للنضال . ولكن عائشة  
على أي حال قد بلغت بعض شأوها أو شأو حزبها في الصحيح ؛ رجمت الجولة  
الأولى من معركة البصرة ، ووسعها أن تعدو على الصقر الهاشمي وهو بعيد قتال  
من طرف جناحه بعض ريشات ! . فما انجباب خطابها إلا عن خلاف بين رجال  
البلدة التي كانت تدين حتى ساعة بطاعة الإمام . وتفرق النفر الأكبر من أصحاب  
الوالي عنه بعد أن فتنهم السيدة عما كانوا عليه ، ثم انطوى تحت لوائها منهم  
فريق عظيم . . .

كادت الأسلحة أن تتحدث بين رجال ابن حنيف : الباقيين في أمره ومن  
انشقوا عليه وخالفوه . ولولا بقية حكمة تذرع بها الناس لشاعت فيهم المقتلة  
بأسنتهم . أما عائشة فقد انحدرت برجالها ومن تبعها من مفتوني البصريين إلى  
المربد في موضع الدباغين ، وإنها لتشهد كيف أثار وجودها هذا الشقاق بين  
الإخوة الآمنين ، ولسوف تشهد له آثارا دامية عما قريب .

وخرج جارية بن قدامة وقد بلغه نبأ هذا النزاع فلحق بالقوم . فحين وسعه  
أن يصل إلى مقام السيدة تقدم إليها وقد ران الحزن على قسما وجهه وغلفها  
أسفه ، ثم قال لها في إنكار :

« يا أم المؤمنين . والله لقتل عثمان بن عفان كان أهون علينا من خروجك  
من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . قد كان لك من الله ستر وحرمة  
فهتكت سترك وأباحت حرمتك . . . أما والله إنه من رأى قتالك فقد  
رأى قتلك ! . »

فكأنما فك حديثه عقالا كان يمسك الستة الناس ! . . . سرت فيهم الجراءة  
بعد التهييب ، وغدوا أدنى إلى معارضة أشباع السيدة وجدالم مما كانوا من قبل . .  
فاذا رجل ينفلت من بينهم يهتف باسم طلحة ، حتى إذا جاءه صاح به على ملا من  
القوم وهو يهز كتابا في يده أمام عين الزعيم :

« يا طلحة بن عبيد الله . . . أتعرف هذا الكتاب ؟ . . . »  
فترث برهة ، والقوم حوله يرهقون الأسماع ، ثم أجاب :  
« نعم » .

« فما ردك على ما كنت عليه ؟ . . . »

فلما لم يأت به جواب نزع إلى الإيضاح في غير إبهام وهو يستأنف الحديث :  
« . . . كنت أمس تكتب إلينا تؤلبنا على قتل عثمان ، وأنت اليوم تدعونا إلى  
الطلب بدمه ! . . . زعمنا أن عليا دعاك إلى أن تكون البيعة لكما قبله . . .  
فأبيناه إلا أن تقدماء وبايعناه . . . فكيف تنكثان ؟ . . . »

« إنه دعانا إلى البيعة بعد أن اغتصبها وبايعه الناس ، فعلنا حين عرض  
علينا أنه غير فاعل . . . ولو فعل لأبى ذلك المهاجرون والأنصار . . . وخفنا أن  
نرد بيعته فنقتل فبايعناه كارهين ! . . . »

« فما بدا لكما في عثمان ؟ . . . »

« ذكرنا ما كان من طعننا عليه وخذلاننا إياه فلم نجد من ذلك مخرجا  
إلا الطلب بدمه ! . . . »

« فخرجكما إذن تدم على ما سلف وتكفيرا ! . . . »

« فما تأمراني به ؟ . . . »

« بايعنا على قتال علي ونقض بيعته »

« أرايتما أن أتانا بعدكما من يدعونا إلى ما تدعون إليه ، ما نصنع ؟ . . . »  
« لا تبايعه ! » ،

فارتسمت على شفثيه بسمة ساخرة وأجاب :

« ما أنصفنا ! . . . أتأمراني أن أقاتل علياً وأنقض بيعته وهي في أعناقكما ،

وتشيانى عن بيعة من لا بيعة له عليكما ؟ . . . »

ثم استطرد وفي صوته نبرة تهكم واستنكار :

« أما إننا قد بايعنا علياً ، فإن شئنا ، بايعنا كما . . . يبسار أيدينا ! . . . »

وتوالت بعد هذا مشهد شق تؤذى أعين الرجلين وأسماعهما ثم يكون



لها في فؤاديهما مثل وخز النصال . . . أقبل عليهما فتى من بنى سعد كان سمع حديث ابن قدامة لأم المؤمنين منذ قليل ، فبادرها بهذا السؤال :

« أرى أمكما معكما ، فهل جئتما بنسائكما ؟ » .

« لا » .

فهز كتفيه دون اكتراث ، ثم لوى عنهما وجهه وهو يقول :

« ما أنا إذن منكما في شيء . . . »

ومضى يتهانف بشعر يصور سخريته ويذري بهما أشد الإزراء . . .

إن تلك الفترة من الزمن التي قضياها بالمربد ، والتي حسابها في البدء أطلعت عليهما أول خيوط شمس النصر ، قد حملت لهما من شكوك الناس ومن لحيمهم ونهكمهم أنواعا لم تجر لهم في حسابان . ولكن ثمة نوع آخر كان أقسى عليهما من سوابقه ، إذ جاءها على لسان ولي لا ينكر إخلاصة لكليهما أو لأبيه منهما في القليل . . . فلقد صك سمع طلحة إذا ذاك حديث لولده محمد جثم على صدره وأصاب من براءته ومن كبريائه حتى لأوشك أن يوقع الخلاف بينه وبين فتاه . . . كان ذلك حين أقبل شاب من جهينة ، على محمد بن طلحة ، فقال له :

« . . . أخبرني يا محمد عن قتلة عثمان . . . »

فتفكر ملياً ، ثم أجابه بالرأى الذي يرتأيه وإن عينه لتقع على البعير الأحمر الذي كان يمتطيه أبوه :

« دم عثمان ثلاثة أثلاث ، ثلث على صاحبة اليهودج ، وثلث على صاحب الجمل

الأحمر الذي كان يمتطيه أبوه ، وثلث على بن أبي طالب . . . »

فتضاحك الفتى الجهنى وقال :

« ألا أراى على ضلال ؟ . . . »

واقطب بروم عسكر الإمام ليلحق به وإنه ليهتف وهو ييارح ابن طلحة :

« . . . صدقت على الأولين ، وأخطأت في الثالث . . . » .

وإذ بلغ نبأ هذا الحديث طلحة سارع إلى ابنه يلحاه .

« أنزع عنا قولك إني قاتل عثمان وكذلك تشهد على أيك ؟ . . . »

فلما لم يأت منه إلا الصمت . صاح مغضباً به :  
« كن كعبد الله بن الزبير ، فوالله ما أنت بخير منه ، ولا أبوك بدون أبيه .  
وكف عن قولك أوفارح ، فإن نصرتك نصرة رجل واحد وفسادك فساد عامة . »  
فلم يكتف الشاب حينئذ رأيه ، وقال دون مبالاة :  
« ما قلت إلا حقاً ، ولن أعود . . . »

### ٣

ساد البصرة الاضطراب الذي يجيء عادة في أعقاب الانقسام . لا يتلاقى  
رجلان من أهلها إلا كان ثالثهما جدالاً أو ملاحاة وخصومة أو صراعاً قد يوفي  
على إراقة الدماء . ولا يبيت فيها انضم بعد ذلك اليوم على هدوء أو ذاق طعم  
السلام . ولا قبيلة بقيت لها عروتها وثيقة فأجمعت كلها الرأي على نصرة فريق  
من المتناجرين دون سواء . . . أولئك الذين فتنهم عائشة بدعوتها رأوا حقاً عليهم  
الطلب بدم عثمان المظلوم وإن جرت دونه أنهار من الدماء وأنهار . وأولئك  
الذين حالفوا الإمام ثبتوا حيث أوجب الوفاء عليهم الثبات . ولكنهم في حقيقة  
الأمر لم يصدروا في ثباتهم هذا عن الرغبة وحدها في استمساكهم بالولاء للأمير  
الذي بايعوه ، بل عن حافز أقوى وأشد هو عندهم جماع هذه الحياة . . .  
إنه التقيد بالمبدأ الذي اختطوه لأنفسهم وناخوا عنه ، والتزام محجة المثل الأعلا الذي  
كافوا طويلاً حتى أوشكت أن تبزغ في سمائهم شمس . أما اليوم فتحة غيم في  
الأفق كثيف يكاد أن يحجب الضياء . النذر تتجمع حولهم في كل مكان مشيرة إلى  
طلوع عهد جديد ، بغيض ، ثور فيه العواصف وتجمع الأعاصير . . . أم هوياترى  
عود إلى الماضي المظلم ؟ . . . أينما وجهوا العين في صفوف هذا الجيش الذي جاء  
ليغلبهم على ما كسبوه طاعتهم الوجوه البغيضة . . . بدت أشباح ذلك الماضي الذي  
انقرط ، وما كاد ، على سحن كثيرين ممن احتوتهم الصفوف . فما هو ابن عامر ،  
عاملهم القديم الذي قشروه عن البلدة ، يعود . . . وهذا ابن عقبة الفاسق

الخليج هو الآخر يعود ا . . . وها هنا أيضاً يرون مروان ابن طريد الرسول . .  
مروان الطاغية الذي أشعل النار في الديار وأودى حقه بحياة عثمان ا . . . نعمة  
هؤلاء كلهم ومن أشباههم كثر كلما تطلعت إليهم الأبصار أصابت الحلق غصة  
ورجفت القلوب مشفقة على مصائر الأمة التي نكبت بهم في العهد الخالي ونكبت  
الشعب حتى ساموه الحسف وسلبوه كرامة الحياة . . . أفما وجدت عائشة خيراً  
من أولئكم ظهيراً يسندون دعوتها ويسرون حولها في الركاب ؟ .

ليس الأمر أمر أشخاص ، يؤخر فيه هذا ثم يقدم ذاك . . . ليس قصة خليفة  
يعزل وآخر على أنقاض عرشه يقوم . بل هو أخطر من هذا وأجل . فما يفيد  
الناس أن يذهب على ويأتيهم من هو خير منه ، إن استطاعوا إليه السبيل ،  
أو مثله ، في القليل ، يقوم على أحوالهم فيحسن القيام . وهل لهم في الإمام  
هوى غير هواهم بعثله وأهدافه الكفيلة بأن تهبهم الحرية والعدل والمساواة ؟ .  
ولكن النفر القادمين من الجنوب زاحفين على صليل السيوف وقعقة السلاح  
هم عنوان الكتاب الذي تهمة السيدة أن تضمه أمام أهل الإسلام وتقول هاؤم  
اقرأوه ا . ويا شره من عنوان وأتمس به من كتاب . . .

هذا لا ريب عود إلى ظلام الماضي ، بما فيه من إحجاف بحق الشعوب  
الإسلامية في الحياة الأبية التي لا يسيطر عليها طغيان طائفة من الخاصة والأشراف .  
ليست دعوة الثأر لعثمان إلا غطاء يستر جشع السادة الذين غلبهم الشعب على  
مآربهم وتحرو من ربقتهم ونأى برقابه أن تطأها أقدامهم الثقيلة . . . إنها غشاء  
لأنهم إلى السلطان والتملك والتحكم كيفما يوحى لأفرادها الاستعلاء . ولو قد أتيح  
ثانية لهذه الطعمة أن تعود سيرتها الأولى لعرفت كيف تسوس من أبوا أن يقرأوا  
لها بذلة العبيد .

ما من رجل بين الذين أوجسوا من حركة عائشة إلا كان يرادو خاطره  
من هذا التفكير نصيب ، كلهم لا ينكرون عليها دعوة القصاص ، ولكنهم  
يعدونه قصاصاً ظاهراً عدل وباطنه هدم . . هو هدم للأسس التي جاهد الشعب

جهاده حتى أقامها بعد مشقة وجلاد وطول كفاح . وهو هدم للمبادئ التي أريد بها لم الأمة بطبقاتها جميعاً في وحدة تسودها العدالة الاجتماعية وتنمى منها فوارق الجنس وفوارق الطبقات . وهو هدم للرجل الفرد الذي يستطيع أن يحقق وحده هذه المثل الكريمة لكل من جمع بينهم الإسلام ثم ينافح عنها ما أنسحت له في رحابها الحياة . . . وإذا كان الأسى قد أخذ بقلوب فريق من أهل البصرة إذ ذاك إذ يشهدون كيف فرقت دعوة أم المؤمنين بينهم وبين إخوانهم . فإن أشد الأسى وآلمه لدعاً أنها باعدت بينهم جميعاً وبين تحقيق المبادئ التي صبوا إليها لأن دونها اليوم ميادين وسعة من الخلاف والمناجزات . . .

نعم فقد هبت الريح ، وأوشكت النذر المتجمعة أن تشير إلى جو عاصف ونوء قاصف تودى بسفينة الإصلاح . فتعوان الكتاب معروف . . . والمستقبل الذي تحدث عنه صفحاته صورة من الأمس الراحل الذي حسبه قد ذهب وانطوى ولن يعود . . . ثم ها هم الآن ، فكيف الخلاص ؟ . . .

من استطاع من أهل البصرة صبراً قهر نفسه على الصبر المر ، وقليل استطاع ؛ ومن دان لأمره ابن حنيف بالطاعة سكن كمثل مؤثراً الإبقاء على السلام أن يتمزق إهابه وتتقطع أسبابه ؛ هؤلاء انحرفوا عن جيش عائشة ، ومن لاذوا به ، ووقفوا على فم السكة فاحية المسجد عن عيين الدباغين يمنعون الناس ويأخذون عليهم الطريق . ولكن ثمة طائفة أثارته خيانة ذلك الفريق من مواطنهم الذي تنكر لمبدئه وانحاز لعسكر الغزاة ، فلم يملكهم الصبر ، وآدم الصمت والقفود . . أولئك نفذت أبصارهم إلى ما خلف المظاهر البادية ، وما وراء السلم الذي يلبسهم ثوب تخاذل ثم قد تكون له مغبة تضيق فيها المبادئ التي ناضلوا عليها من قبل ، ويأتيهم غدهم بشر مما كانوا فيه بالأمس في عهد عثمان الذي كان مروان وأضرابه يتربعون عرشه . . لم يستطيعوا صبراً على ما يشهدون ، وهذه أعمار جهادهم توشك أن يترها حزب عائشة ، وتلك الطغمة من مواطنهم الخائنين ، وتلك الشرذمة من الولاة النبوذيين . فحين تسامعوا بالأنباء كان يعمل في صدورهم مثل إحساس الأسد يتأهب لحماية عرينه ، ويدفع عنه العاديات بالظفر والناب . وكانت الأتفة

في دمائهم تضطرم كنار . فليس لعل غضبتهم بقدر ما هي لكيانهم القوي وكرامتهم  
كشعب له منزلته الواجبة في نفوس حكامهم وإن كانوا عرباً خلصاً من ذلك العنصر  
الذي حسب لنفسه السيادة على بقية الأجناس . فما عادت العنصرية شيئاً يؤمنون به ،  
بل الإسلام . فلقد علمهم كيف يكون الناس كلهم سواسية ، إخواناً على سواء ،  
فلا سادة بعد ولا دهاء . . . .

بهذا دارت الأمور في الخواطر ذلك اليوم عند المربد وأصحاب الحمية يرون  
تلك الطغمة من الحونة ومن الولاة القدامى أهل الطغيان . . . . ومنه استشعروا  
قوة غامرة تدفعهم دفعاً إلى النضال ، حماية لحريتهم وقوميتهم أن تطأها أقدام  
الأشراف . . . . وإنك لتكاد أن تشهد كيف يتوثب بهم حماسهم فلا يستقرون ،  
ولتسمع أصواتهم اللاغطة تبدأ همساً مخافتاً ثم تسرى قليلاً قليلاً ، وتشتد قليلاً قليلاً ،  
حتى تعلو فتشبه الصياح . فإذا انزاح عن صدورهم وقر الصبر الذي اصطنعوه ،  
تبدلت بهم الحال غير الحال ، فلم يصغوا لنصح ناصح ، ولا لردع رادع وإن كان  
عاملهم وصاحب الأمر فيهم بعد الإمام . بل يتهافتون مغضبين ، وتلعب بهم نائرة  
الثورة ، وترتجف في أكفهم رماحهم ثم يكرون كالسيل الدافق على عسكر  
عائشة ليس يردهم ولا يرهبهم أنهم قلة أمام كثرة حسنة العتاد . . . .

ويصيح حكيم بن جبلة ، الرجل الذي ود لو قاتل وحده جموع الجمل الغزاة ،  
فيهتف بمن تبعوه من الفرسان :

« إنها قریش ! إنها قریش ! . . . ليردينها جنبها والطيش ! . . »

فما أسرع ما يستجيبون لندائه فتتحدر بهم خيلهم حتى ركب زمر الملتحقين  
بعائشة وجندها حتى لتذهلهم المفاجأة فيقفوا كأنهم حيارى مضيعين . ويشد  
عليهم حكيم ، وتنزاح قدامهم رويداً رويداً عن الأرض التي كانوا قد اتخذوها  
لمنزلهم . فاعمل فريقاً منهم حسب لولقي المهاجرين بالأناة وكف عنهم اتشوا  
عنه . ولكنها كانت دفعة ليس يسكها صبر ، فإذا الأمنة بعد قليل تمتق  
وتتشابك في العمرة الفريقان . ثم يلك الحساس طائفة أخرى ممن شهد  
هذا القتال من أهل البصرة ، أولئك الذين كانت دورهم تشرف على ميدانه ،

فيحصبون بالحجارة وهم بأعلى بيوتهم من كان على قيد مرماها من هذا الفريق أو من ذاك . هنالك سالت السماء على قم السكة عند المربد حتى أوشك لونها أن يغلب الناس على حكمتهم وكادت الفتنة أن تتم فياً كلهم القتال . ولقد كان أقرب إلى الحدوث أن يتقهقر الفرسان بعد قليل أمام عدوهم حين يرتد إليه جنانه الذي طاشت به المفاجأة في البدء ، ولكن ما حدث كان القيص . فإذا برجال عائشة الكثر ينجحون للانسحاب وما تزال الحيل تشد عليهم وتضغط أبما ضغط ، ولولا أن وقعت عليهم ظلمة الليل ما تجاوزوا ولا اثنى عنهم فرسان حكيم . أمرت عائشة إذن رجالها بالتقهقر إبقاء على هيبته أمام الناس أن تنال منها مثل هذه القلة ، أو رغبة في الظهور كمن يحرص على السلام . فتيامنوا حتى انتهوا إلى مقبرة بنى مازن يلقفون أنفاسهم مليا ويستريحون . وكان الليل قد غشاهم هالك بستر وجدوا فيه الأمن والطمأنينة . وبدت لهم من بعيد أشباح خصومهم تنحسر رويدا رويدا عن الساحة التي خلفوها ، وتثوب راجعة إلى البلدة تنفض عنها وعثاء القتال . وإذا حسبوا أنهم الآن قد باتوا بمعتصم يعسر على عدوهم أن يفاجئهم فيه ، فقد أوشكوا أن يجعلوه مثابا . غير أن رجلا من عجم عليا بمواقع الأرض في أرجاء البصرة ، جاءهم فدعاهم إلى مكان سواء أمثل وأحصن ، فتابعوا رأيه . ومضوا خلفه في وادي الموت ، خلال القبور ، تحت ستر المساء حتى انتهوا إلى دار الرزق فضربوا في ساحها معسكرهم ، ثم أقبلوا في همة وجلد يعدون العدة ويتأهبون لمركة الغد . لقد عزموا أمرهم على الأخذ بالنار حين يسفر النهار .

فأى مشاعر كانت تتناوب الوالى تلك الليلة وقد ثاب إلى دار الإمارة ؟ . إنه يرى بعينه كيف اشتبكت عليه الأمور وغدت هواته شراً لن يسلم معه هو أو امرؤ ممن بايعه على السلام . فعددهم جميعاً قليل ، وعدوهم في منعة بمن أجلب معه ومن حالفوه من رجال الإقليم . لقد حقق حقاً حكيم إذ ركب حزب الجمل بفرسانه وإن أوشك أن تظهره عليهم شجاعته وكادت تدنيه من النصر . ولكنها كانت دفعة ، وكانت غمرة حقيق يجندهم الضخم أن يشوب من غشيتها فيعود

أقوى على معاودة الصراع بعد قليل . وها هم لا ريب قد ملكوا أعصابهم ،  
وراحوا يتأهبون . أفهجمون ؟ . أيسرون إليه في جحافلهم عند إشراقة الصبح  
ليقهروه ؟ . ومن له بقتالهم لو عقدوا العزم حقاً على القتال ؟ ...

نعة أمل واحد كان ما زال يداعب قلب ابن حنيف : أن يثبتوا عند عهدهم  
له فيصبروا عليه حتى يأتيه رد من الإمام . فقد كان ذلك عهدهم قبل أن يفجأهم  
حكيم ... لفهم الوالى غب قدومهم فسألهم :

« ما تقمتم على صاحبكم ؟ ... » .

فقال له الصاحبان :

« لم نره أولى بها منا . وقد صنع ما صنع ... » .

فلم يحاجهما فى شىء ، وإنما أجاب وهو يبغي أن يسود بينه وبينهما  
الأمن والصفاء :

« ... فإن الرجل أمرنى . فأكتب إليه فأعلمه ما جئتم له ، على أن أصلى  
بالناس حتى يأتينا كتابه ... » .

فأظهرا الرضا ووافقاه ، وكتب بهذا إلى أمير المؤمنين ...

ولكنه الآن لا يأمن أن يظلا على ذلك العهد بعد ما كان من ثورة حكيم .  
بل هو لم يأمنه كذلك من قبل وفى حزبهما كل أولئك الرجال أصحاب الخدع  
المفتونين بالغدر وتدمير المؤامرات أم يصبر يا ترى مروان . ويخرج للسلم أشياعه  
من صنائع العهد البائد ولن يأتي من على إلا ما يفضح تبييتهم ويكشفهم أمام الناس  
عرايا لا يستر غاياتهم تمويه ؟ ... قلبه يقول لا ، وماضيهم أيضا ، وميرى كيف  
يفقدون ...

وغدا الرجل فسار والشمس ، كلما قطع من الطريق شوطا تكاثرت عليه  
الأنباء عن تأهب القوم للقتال . ولكنه رأى لزما عليه أن يلقاهم عسى أن يؤيدوا  
له عهدهم بالسكون . وسار فوجدهم يساحة دار الرزق على رجل ، مدججين شاكين .  
وما نحسبه قد مشى إليهم يبغي قتالا وهو أعلم بما صار إليه من فقر فى السلاح  
والنصير بعد أن فتنوا عنه كل أولئك الجموع من أهل الإقليم . لقد كان كل أربه

أن يقفوا موافقهم ، بسلام ، حتى يأتيه جواب أمير المؤمنين وما نحسب أيضاً أن  
ثمة طائفة من أهل البصرة كانوا يطمعون أن يفوزوا على خصومهم بحد السيوف .  
ولكن ابن جبلة كان لا يقر هذه السياسة ومن تابعه من عبد القيس ، وإنهم  
لهة . غير أنه كان أتقى من صاحبه بصرأ وأجلى بصيرة ولو أطاعه ابن حنيف  
منذ البدء فاقى جموع عائشة بالعنف لما وسعها أن تقص هكذا جناحيه ، وتجعل  
لها اليد العليا في مصائر الأمور . . . .

وفي لحظة عين تبدل الجو ، وذاعت في ثنايا رائحة الحرب . . . فما بدا حكيم  
ورجاله أمام أصحاب الجمل حتى طارت الشررة التي أجمت النار . . . لم يصبر هو  
أن يدع أعوان الباطل وأمنهم ، ولم يصبروا أن يدعوه ولا ينالوا منه ثأر ليلة  
الأمس . وكان شديد الإيمان بما يقوم فيه وإن أوردته هلكه . وكان مشبوب الحدة  
فوار الغضبة فما يطيق أن يعترض سبيله شيء . وإنه ليضئ إلى القوم وهو يزجر  
كالكليث ، ويندفع سخطه من فيه كسم الرقطاء ينوش عائشة التي يراها أصل كل  
هذا البلاء . . . وعندما يلحاه رجل من الناس على نيله من السيدة بلسانه الهدار  
بالزراية يسرع فيلقمه الرمح جواباً على هذا اللوم . . . نعم قد فعل ، ثم عاود  
أيضاً فطمعن امرأة قدحت فيه كما قدح ذاك وصاحت به في إنكار :  
« يا ابن الحبيثة . . . الأم المؤمنين تقول هذا ؟ . . . »

على أي حال ، ملاح حكيم ورجال له لأشياء الجمل حتى شب القتال . الله يدرى  
أيهم أنشبه ، وإن كان لصعب عائشة دم عند عبد القيس قد يتأديهم للثأر ، وكانت  
لابن جبلة دفعة قد لا يطيق معها الصبر على قناتة أن تظل نظيفة لا يلوئها دم . . .  
وقعت الواقعة . وحى فيها الصراع والشمس تخطو أولى الخطا نحو الضحوة  
وتأور لهبه وهي تنجح للغرب . قضوا النهار كله يتقاتلون ، ولا يصغون لغير صليل  
السلاح . لم يصح منهم واحد لصوت العقل كأنما همهم أن يحيلوا مواقع الأقدام  
تحتهم بركة قانية . . . وحين بلغ من جزع عائشة أن دفعت مناديا يدعوهم للكف  
غرق صوته في هدير المركة . ويقوا على حالهم مفتونين عن التبصر حتى كثر  
القتلى فيهم وشاعت الجراحة . . .



ثم تداعوا إلى الصلح حين لم يعد منه محيص بعد أن نالت الوغى منهم أيعا منال ثابت نفوسهم أخيراً إلى قرار ، فأوقفوا عجلة الموت . . . شدوا على رجاها الدائرة وقد كادت أن تردهم إلى مهل و تراب . . . وتواقفوا على أشلاء صرعاهم متعاجزين ، منكسى القنا والرماح . . .

كذلك جاءت هدتهم غب محنة ولأواء ، فكتبوا عهداً بينهم وأبرموه أن يقيم كل فريق منهما حيث أدركه الصلح على مافى يده لا يضار في مسجد ولا سوق ولا طريق ، على أن يبعثوا أمينا إلى المدينة يأتيهم بمحققة مبايعة الزبير وطلحة أمير المؤمنين ، فإن كانت عن رضا دخلا فيما دخل فيه الناس أو غادرا البصرة ، وإن كانت كرها فلهما الأمر في البلدة وخرج منها عثمان بن حنيف .  
وعلى هذه الهدنة جفت الصحف ورفعت الأقلام . . .

## {

أقرت السيوف في أغمادها بعد الهدنة ؟ . . أبقيت صفحة الماء هادئة لا يحرکہا شيء ؟ . . لم يتح ذلك ، وجاء الأمر على نقيض ما كان الناس يرجون كأنما إذ أنسوا للسلم من وراء ذلك العهد المكتوب إنما كانوا في حلم سوف تبدده يقظة مباغنة يذوب بها في أضواء النهار .

وكان أولى القوم بعلم زيف عهدهم أولئك الذين جاءوا في ذيل عسكري يقطعون الفلاة لأمرهم وخدمهم مبيتوه . فهذا الحزب من قريش رسم خطاه قبل أن يسير ورتب مواطىء أقدامه بحيث تقوده في نهاية الشوط إلى الهدف المأمول . ما كان لهم من غاية إلا نقض بيعة الإمام واحتلاب سلطنة تحت ستر موهوه بدم الخليفة القتل . استباحوا في البدء ذلك الدم ثم قاموا من بعد ينوحون عليه كالثواكل وذوو الغايات ، في سبيل مآربهم ، لا يأتفون من ركوب كل محذور أرسلوا إذن أمينهم عقب الهدنة إلى المدينة ليأتى لهم من لدن أهلها بمحققة مبايعة الصاحبين أمير المؤمنين . . . فكان هذين قد غابت عنهما الحقيقة

أو البست بشبهة . . . ولو قد آثرا تجنب الانحياز إلى هواها لطالما الناس بالصدق الذى لا يغشاه زيف ولا تمويه ، ولصار حاهم بما يعلمان أو بما يكتمان . . . إن فى جعبتهما كتاباً يجيد رسم هذه الحقيقة ، ولكنهما ليسا من الإحلاص لههدئدنة فى درجة تدفعهما للنشر ذلك الكتاب . . . من خطل الرأى — فيما يظنان — أن ينشراه ، ومن الإدراك السياسى — الذى لا يتكلم بغير لغة التوصل إلى الغايات بأىما سبيل — بحيث يقدمان الكتمان ويطويان على مسطوره الوفاض . . . وإذا أتبع لا مرىء أن يقرأ ما فيه لرآه جاءهما من أمير المؤمنين ، يلزمهما به الحجة ويلزمهما البيعة التى أرادها بالنكث إذ كانت كاعأهما من غير رضا واقتناع . . كتب لهما على يدحض زعمهما ويقيم الأمور حيث يجب أن تقام :

« . . . قد علمتا — وإن كتمتا — أنى لم أرد الناس حتى أرادونى ، ولم أبايعهم حتى بايعونى . . وإنكما ممن أرادنى وبايعنى . . . فإن كتمتا بايعتاني طائعين فارجعا وتوبا إلى الله من قريب . وإن كتمتا بايعتانا كارهين فقد جعلتما لى عليكما السبيل بإظهاركما الطاعة وإسراركما المعصية . . . ولعمرى ما كتمتا بأحق المهاجرين بالتقية والكتمان ، وإن دفعكما هذا الأمر من قبل أن تدخلا فيه كان أوسع عليكما من خروجكما منه بعد إقراركما به . . . »

ثم عرج على قصة مصرع سلفه ، فأ نصف غاية الإنصاف إذ أراد أن يجعل الحكم بينه وبينهما فيها كل رجل من المدينة آثر أن ينأى بجانبه عن التشيع له والانحياز لصفهما ، لعاهما بهذا التحكيم بأمان أن يتعيف عليهما الناس بالاتهام . قال بنذيل ذلك الخطاب ولم يغفل أن يسديهما النصح خالصا لوجه الله : « . . . وقد زعمتا أنى قتلت عثمان . فبيئى وبينكما من تخف عنى وعنكما من أهل المدينة ، ثم يلزم كل امرىء بقدر ما احتعل . . . فارجعا أيها الشيخان عن رأيكما ، فإن الآن أعظم أمركما العار من قبل أن يجتمع العار والنار . . . »

ولكنهما آثرا أن يطويا الكتاب عن الأنظار كما طويا من قبل حقيقة ما كان من بيعتهما التى كانت عن رضا واختيار . . . أفأما ياترى الناس أن يعلموا ما أخفياه .

بل الحق معلم له نور يهتك دائماً حجب الظلمات . وإذا كانت البصرة ، موثلهما الآن ، بعيدة عن يد الإمام . فما هي بعيدة عن الأخبار تسرى إليها مع الركبان من كل إقليم ، ومن جارتها الكوفة قبل غيرها من البلدان . فإلى هذه كتب على يروي نبأ صاحبيه ، وموقفهما وموقفه من عثمان بن عفان ، لم يستر شيئاً إلا رواه في هوادة وترفق وإن وسعه أن يعنف ولا يجاوز بالعنف حد الإنصاف :

« إني محبركم عن أمر عثمان حتى يكون سمعه كعيانه . إن الناس طعنوا عليه ، فكنت رجلاً من المهاجرين . أكثر استعتابه ، وأقل عتابه ، وكان طلحة والزبير أهون سيرها فيه الوجيف ، وأرفق حدأهما العنيف . وكان من عائشة فيه فلتة غضب فأتبج له قوم فقتلوه ، وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين ، بل طائعين مخيرين . . . » .

بمثل هذا تناقلت الألسنة حقيقة القضية التي أخفوا خلفها المطامع والآراب . وبأعنف منه وأقرب إلى الصراحة التي ترسم مكان الصاحبين في مأساة المصراع فلا تغفل أدق الخطوط ، كان الأمام يتحدث فتطير أحاديثه إلى كل مكان . . . وصلهما طرف من كلامه هذا بغير شك ، ووصل أيضاً حليفتهما فجعلهم جميعاً أدنى إلى مجالس الانهام . . . ولقد ألقاه ذات مرة حديثاً مدوياً زلزل تحتهم أركان الأرض ، وجاوز فيه الهوادة إلى الصراحة الريبة ، فهل ارعوا وسالموه ؟ .

كلا ، بل لجوا في اتني . . . ومضوا في طريقهم — وهم الفئة الباغية كما طبعهم بلفظه — يطلبون حقاً هم تركوه ، ودماهم سفكوه . . . فلعلمهم — إذ فتنوا أهل البصرة — قد حسبوا أن قد ملكوا في أيمانهم الشمس ، لو شاءوا أطلعوها أو شاءوا طمسوها . . . فكذلك كان شأنهم من البيعة ، قالوا قلدناه إياها كرها وعلى الناس أن يؤمنوا بما يقولون ، على الأمة جمعاء أن تخلوها من أعناقها لأنهم أرادوا النكث وحنث اليمين . . . أما الهدنة فإنها نظرة إلى خلاص أو تلبث إلى خلاص أو تلبث إلى حين . وهل كانت إلا عهداً كييعتهم تلك يجوز عليها نفس ما جاز على سابقتها منذ قليل ؟ .

إنك لن تحسب أن الحال قرت بالبصرة تلو ذلك العهد المكتوب ، وساد  
في جنبات البلدة الهدوء . . . عشا تضع الخطب بين السنة النار ثم تكف عنه  
الاشتعال . . . عشا تسكت زمزمة الريح . . . عشا تقف محازرا في مسيل  
الطوفان . . .

لم يهدأ الخلاف بالبلدة وإن خفت حدته بين الحزبين . ففي النفوس نزع  
ليس للعقول عليه سلطان . وقد بقي من فريق الولاء ابن جبلة وفرسانه ، وأهله  
وشيعة من عبد القيس ، لا يزالون يضطربون غيظا وموجدة أن يروا دولة الحق  
هكذا تدول تحت أبصارهم وتعدم الولي والنصير . وبقي الفريق الثاني على ما كان  
عليه من خططه المرسومة ، يرتب ويبيت وينتظر ساعة التنفيذ . كل طائفة كانت  
تتوجس شراً من غريمتها ، وتتوقع منها العذر في كل حركة . فإذا اقترب بعض  
الموالين عفواً من منازل الغزاة كانوا في حسابان هؤلاء قادمين في شر ، أو مرت  
بضعة من أصحاب الجمل دانية من رجال عامل الاقليم استقبلوها بالتحفز إذ يحسبونها  
تحمل العذر . واقد حدث يوماً أن أقبل محمد بن طلحة فقام مقاما قريباً من عثمان  
ابن حنيف ، فأسرع نحوه الحرس فنحوه خشية أن يكون قد أقبل ينتزع حياة  
واليهم غيلة . ولو شهد هذا الحديث فريق مسلح من أعوان محمد لما انجاب  
إلا عن معركة خطيرة . . . .

على هذا التوتر كانت الحال بين الحزبين ، لم تهدأ ثأرتها الهدوء الذي كان  
تحتمه الهدنة . بل بقي الناس يتوشهم قلق خفي كأنما تشيع في الجو أنفاس  
الفتنة ، ويمتلىء الهواء حولهم برائحة الدم . وما كانوا في شعورهم هذا إلا صادقين  
لأن الزمن كان يشب بهم وثباً إلى محنة مجتاحة . فإن هي إلا ليلة ذات ظلام ورياح  
حتى زار قصف الأحداث .

كانت العاصفة تدوى زمزمتها بين دروب البلدة حتى بدت معها البصرة  
كغاب ملأته إيوث هائجة وأسود غضاب . والليل في بكوره ذاعت فيه وحشة  
السعر المتأخر . وكانت أعين السماء وسنانه ، رانت عليها كسف من الغيم حتى  
طمست النجوم . وأسبل الظلام أستاره على الطرقات ، كشيقة لا تنم عن شيء ،

فلا أضواء ولا ظلال . ولولا حركة الريح وهى تذرع المكان فى خطوات نشوان لا يعرف إلى أين يتجه به السير ، لكان أشبه بقبرة ثقيلة الصمت ، ساعة هجوع الأحياء ، لا تسودها إلا هدأة الموت . . .

وكان المسجد بادی الفراغ ، يوشك أن يخلو من الناس إلا نقرأ تفرقوا فى جنباته ، لفوا أردانهم حولهم اتقاء قررة الليلة ، والتصقت لحام بركبهم وهم منكشون فى جلسة القرفصاء . . . ولكن شئمة أيضا أشياء غير الجسوم المرتجفة أحتوتها الثياب — شئمة سيوفا ونصالا مخبوءة ، أعدت للحظة الطعان .

إنك لو كنت معهم يومذاك ، لشهدت من مجلسك فى عيون هذا الفريق من المنكشين لمة تمحز ، ولأوشكت أن تقرأ لغتها فلا يفوتك أن تراها حروفا . إذا التأمت لكونت لفظة الغدرا . . . كيف استباحوا هذا ؟ . . . وفى وقت هدنة ؟ . . . وفى بيت الله ؟ . . . ولكنها شريعة السياسة تستهين حين نشاء بكل الشرائع ، ولا يقعدنها عن تحقيق آراها وازع أو دافع . . .

اجتمعت تلك الطائفة من رجال الجمل بمسجد البصرة ، تلك الأمسية المظلمة من أماسى الشتاء ، لا يعلم عنهم غيرهم إلا أنهم جاءوا يصلون . وكان موعد العشاء لم يحن ، فأهل البلدة درجوا على تأخيرها منذ دخلهم الإسلام . والليل ما زال فى بكوره وإن تقدمت الظلمة السابعة بغمره . . . ولم يكن كثيرون من أهل الولاء للإمام قد حضروا بعد ، فبالوقت فسحة ممدودة ، والرياح الهوجاء تروى طرقات البلدة وتعوقهم بعض التعويق . ولم يكن الوالى نفسه قد حضر لإمامة المصلين ، وإنما انتشر نفر من حرمه خارج المسجد وبمقربة منه يسهرون على سلامته حين يحى . . . وها قد أوشك أن يبدو لهم خلال ساعة أو بعضها ليقوم بفريضة الله ، ويؤدى بالناس الصلاة . . .

ولكنها صلاة لم يكتب لها الأداء فى موعدها المفروض . لأمر أو لآخر حسب النفر من أصحاب الجمل أن ابن حنيف قد أبطأ فدفعوا ولياً لهم هو عبد الرحمن ابن عتاب ، ليأخذ مكانه أمام صفوف المصلين . . . أكان ذلك حرصاً منهم ألا يؤخروا الصلاة أم لغاية عزموا عزمهم عليها من قبل ؟ . . . على أى حال كان

فعلهم نكثاً لما عاهدوا عليه الوالى من قيامه وحده بالإمامة . فإذا أضفنا إلى هذا ما تواضع الناس عليه بالبصرة من تأخير العشاء ، لتوقنا كيف يستقبل حرس ابن حنيف هذا الخرق للهدنة بين أميرهم وهؤلاء الخصوم . نعم قد استقبلوه بالغضبة الواجبة منهم لحق ولى أمرهم أن يضيع ويسلبه أعداؤه تحت مستر الصلاة ، فما أن رأوا عبد الرحمن يتقدم نحو المحراب حتى أشهروا السلاح فى الوجوه لعل أصحابها يفيثون إلى العهد ويرتدعون عما أوشكوا أن يقترفوه .

فإذا المسجد فى الحال ينقلب إلى ساحة قتال . . . فى لحظة عين ظهر السلاح الحبيب تحت الأتواب ليعمل فى الصدور والرقاب ، وفى لحظة ضاق المسجد الواسع بمن كانوا فيه ، وانقلب القلة من أصحاب الجمل المتفرقين بجناباته إلى كثرة غالبية عملاً رحابه حتى يضيق بها ، كأما أطلعتها الأرض أو أمطرتها السماء . . . وهل يسع الحرس أن يردوا كل هذه الجموع المبتوثة حولهم فى كل مكان تنوشهم من كل جانب ، وما يعدون أربعين رجلاً أمام قوة مناجزة تستطيع لو شاءت أن تقتلع حصناً باذخاً ذا معازل وأسوار ؟ .

ولكنهم مع ذلك جالدوا القوم جلاداً شديداً ، وصبروا لهم ما أمكنتهم أمستهم وما بقيت أقدامهم تمس بطونها صفحة الأرض . فلم يلقوا السلاح من أكفهم قط ، ولا نبت بهم مواقفهم أو ترحزحوا قيد شبر ، بل ظلوا حيث كانوا لا يريعون حتى تخطفهم الموت ، واحداً إثر واحد ، كراماً ، ووقعوا صرعى بأحناء المسجد ، تروى دماؤهم رحابه . . .

فلعل رجال عائشة قد ازدهام هذا النصر الذى أحرزوه وإن جاءهم على حساب هية بيت الله والمفروض من توقيره . إنهم لا ريب كانوا يدفعون عن حياتهم أن يسترخصها حرص ابن حنيف ، أو هكذا بدوا فى عيون أنفسهم وهم يغفلون أنه لولا عدواهم على حق الوالى فى إمامة الصلاة لم يكن ذلك الدفاع . . ولكنه نصر حازوه كيفما كانت المقدمات والأسباب ، وسواء أكانوا قد بيتوا من قبل عزمهم عليه أو جاءهم عفواً بغير تبذير ، فإنهم راحوا يفيدون منه ، ويتبعونه الخطوات الباقية التى توفى بهم على تمام الانتصار .

نسوا وشيكاً فريضة العشاء ، ونسوا هذه الإمامة التي خاضوا من أجلها نهراً من دم ، وذكروا عامل الإقليم . في هذه الآونة التي قضوا فيها على فرقة حرسه ذكروه . ولم يشاءوا أن يصبروا هنية حتى يأتهم فينبثوه لو كانوا قد عدى عليهم وهم براء لوسعهم الصبر والانتظار لأن العنف ليس شيعة البريء المتصر بل التعذير . ولو ساروا إلى ابن حنيف — إذ استبطأوه — يشكون إليه ما كان من حرسه الملقى برحبة المسجد لا تسع لهم تبرير سفك تلك الدماء . ولكنهم لغير هذا مشوا إليه ، تحت خمة الليل . . . إنما ليتبعوا الضربة الضربة ، أقوى هذه المرة وأشد ، عسى أن يفرغوا من أمر هذه البلدة ، ووالها ، وما بقي في أحنائها من قوى ما زالت تصدم عن السلطان المطلوب . . .

إلى قصر الإمرة مضوا في غاشية المساء والريح حولهم تدرى وتعصف ، لا يترثون ولا يعهلون . وكان ابن حنيف لم يبرحها بعد لأداء العشاء ، وبضعة من جنوده على حوافها تسهر عليه أن يناله بعد تأزم الأحداث مكروه . . . ولم يكن الرجل يعلم شيئاً عن وقعة المسجد ، ولا ما أصاب حرسه ، فهو بهذه الغفلة في طمأنينة وأمان ، وكانت فرقته الساهرة برحبة الدار قد لاذت بمواضع منها تمتنع فيها من قصف الريح ، والسماء تمطر غيثاً كأنه الطوفان . كل ما حول القصر لا يشي بمحنة وشيكة ولا ينبئ عن اقتراب خطر الهدوء في جنباته ، والسلام في قلوب ساكنيه .

ولكن ظلالاً ، تحركت في أطراف الرحبة ، خافية في ثنايا الظلام السابغ عن العيون ، مضت تزدلف كالأشباح ، ليس لسيورها على الأرض وقع مسموع ، ضلت عنها أسماع فرقة الحراسة وأبصارها الحديدية ، بين زجاجة العاصفة وجهامة المساء الضرير . كذلك تسلل رجال عائشة إلى دار الإمرة ، وكذلك باغتوا الجنود . . . وعندما أوشكت حركاتهم أن تنبه إليهم الحرس ، كانت أسياقهم قد سبقت إلى الرقاب تطيح بها ولما يكد فرد من جند الوالى يبعث من صدره صيحة استغاثة . . .

وعلى الأثر عصف الهاجمون بالدار ، على رأسهم قائدهم رائد القدر مروان

ومن خلفه طلحة ورديفة الزبير . . . من عجب أن يخرج الشيخان مخرجا كهذا لا محمد عند أضرابهما من ذوى القلوب التى تدين بشرعة الفروسية وهى مروءة وإيثار ولكنهما الآن حقيقان بأن ينسبا ما هو أمثل بهما فى غمرة النصر . حريان بأن يركبا فى سبيل هدفهما كل صعب ومحذور . . .

ألقوا قياد رحلتها إذن إلى ابن الحكم يفعل كما على عليه طبعه فلما أمكنهم الحظ من حرس القصر وتركوهم صرعى برحبته بعد أن أضافوا إلى سجل القتلى من ضحاياهم تلك الليلة أربعين جثة جديدة ، وجهوا نحو ابن حنيف وهو وحيد مهيض النصر . . .

ولكن كرامة الوالى أوقفته أمامهم على قدميه ، يذود كريعا عن نفسه ويدفعهم حسبا يستطيع . . . ونال منهم ونالوا منه ، وتكاثر عليه أعوانهم حتى ضيقوا الحلقة عليه ، فوقع أسيرا فى يد مروان .

واستقبله الطاغية ببسمة حاقدة ، وبنظرة أفعى رقطاع . ما لأعزل عند ابن الحكم حرمة تمنعه منه ، ولغير الرفق بهذا الضعيف يتسع قلبه ، فالرحمة على أموى مثله حرام . . . وإنك لترى كيف يخلص الرجل لطبعه فيفعل كوحش الفلاة إذ يلغ فى دماء فريسته وإن لم تهمد بهد فى قبضة الموت . . . يقبل فيأخذ بمخانق الأمير . ويدفع به إلى بضعة من رجاله كزبانية النار يقيدونه ويشلون حراكه . فإذا رآه قد فقد القدرة على مقاومته أخذ سوطه وراح يجلده حتى كلت يده فلعل مروءة الفروسية قد استيقظت هذه الآونة بجنبى طلحة والزبير وهما يشهدان المنظر الأليم . ولكنها كانت يقظة موقوتة لم تغن شيئا عن ابن حنيف ولم تنقذه من قسوة جلاده . بل ومضت لحظة بأعين الصاحبين فى نظرة إنكار ثم توارت نكطفة البرق . . . الوحش الأموى كان إذ ذاك أجدى على قضيتهما من الوالى المغلوب . . .

وعند ما حسب الناس أن خطوط الدم التى رسمها السوط على جسد الأسير قد روى غليل مروان ، كانوا لا يدركون نزوات طبعه الكلف بالنكال . . . قد أكب على الوالى ، المهيض كأنه حطام ، وراح يتم رسالة التعذيب . . . مضى



وأنيابه منفرجة عن بسمة شامة ، يشد شعر الرجل ، ويسله شعرة شعرة ، من رأسه ، ومن لحيته ، ومن حاجبيه ، وحتى من أهداب عينيه . وإنه ليستعذب أن يشهد كيف يتجسم الألم الصارخ في ملامح الوجه الذي خضبته الدموع والدماء ، ويحس في تعذيب غريعه لذة ساذجة ، ومسلاة أى مسلاة . . .

ويستقبل ابن حنيف قدره وهو يجاهد ليحكم وجهه ، ثم يرفع إلى معذبه عينين تبديان الجلد والتصبر من وراء ضباب الدمع ، ويهتف بصوت خافت كالأنين : « أما أنك إن فتني بها في الدنيا يامروان ، لم تفتني بها في الآخرة . . . » . ولكنها شكاية لا تحمد من طغيان الجبار ، يعضى لشأنه ، يعذب فريسته وإن راحت في غشية ، ليم ما لم يؤده بعد من رسالة النكال ! . .

## ٥

أضحت البصرة لقي مستباحا لحزب عائشة بعد أسر ابن حنيف ، فقد عملوا وفق خطتهم ، وأخذوا القصر ، وسيطروا على جند الوالى ، وأمكنهم الليل من إنفاذ بقية المؤامرة فلم يصبح الصباح إلا وفي أيديهم أيضاً بيت المال . . . وغشيت البلدة غشية من القلق والتردد ، ثم لم يلبث أكثر سكانها المسالين أن عرفوا إلى أى جانب يميلون . وهل يسعهم اليوم خلاف قد شهدوا مغيبته ، وأمثولته البادية عاملهم المسكين ؟ . . اليد العليا الآن لأصحاب عسكر ، ومال للناس بساحة غيرهم ملاذ . . .

ووقف طلحة وقد تملك السلطة بين أصابعه كالحبوط ، نخطب الجموع التي التأمت بدافع من الخوف وبدافع من الفضول ، فقال :

« أيها الناس . . . يا أهل البصرة . . . توبة بحوبة ! . . . » .

فدعاهم إذن أن يتوبوا عما اقترفوه ، أم كان يرى أن الخليفة القليل قد أثم ثم تاب فلا عليه من بأس ؟ . . هذا رأى لعائشة قديم ، يردده الشيخ التيمى بألفاظ أبدتها أم المؤمنين في رسم آخر يوم قالت : « استنابوه ثم قتلوه . . . » .

وسرت همهمة مخافة من أفواه الحشد ، ولكنها لم تقطع على الخطيب الكلام :  
« .. إنما أردنا أن يستعقب أمير المؤمنين عثمان ، ولم نرد قتله ، فغلب سفهاء  
الناس الحلاء حتى قتلوه . . . » .

فلم يصبر بعض السامعين على هذه المغالطة الصارخة وموقف طلحة من ابن  
عفان معروف . فصاح أحدهم به مجاهراً بكلمة الحق التي لا ينبغي أن تضيع بين  
زخرف الأحاديث :

« يا أبا محمد ! .. قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا ! ... »

فأرتج على الشيخ وأصابه الحسر ! .. ورأى الزبير أن أمرها يوشك بهذه  
الفتنة القديمة من صاحبه أن ينقلب وبالا ساعة النصر الحاسم ، فسارع يتبوأ مكان  
زميله ، وقال لذلك المجادل العنيد :

« فهل جاءكم منى كتاب ؟ . . » .

واستطاع بهذه الفتنة أن ينأى بأفكار القوم عما أوشكوا أن يلجوا فيه .  
ولكنها أيضاً كانت بادرة الاختلاف ، أو نقطة التحول في ذلك الوفاق الظاهر  
بينه وبين صاحبه لو أتيح للزمن أن يمتد بهما وهما على الحلف الذي أملتته وحدة  
الهدف . فالزبير لا ريب أنقى صحيفة من صاحبه لو كانت النقاوة عنواناً لموقفهما  
من عثمان . وهو بهذا ادعى أن يلتف به الناس دونه وأدنى أن يتبموه . ومن  
قبل آثره معاوية بالتقدم ، لنفس السبب فيما حسب ، فدعاء بلقب الإمارة ، وآثرته  
أيضاً عائشة قدمت ابنه للصلاة بالناس ! ...

ولكنه مع ذلك لم يكن موقفاً تمام التوفيق في خطابه . . . ازدهاه نصره  
المفاجيء فأنساه كيف يجب عليه في هذه الآونة الفاصلة أن يمسخ على رؤوس  
الجاهير المفتونين ببطولة الأبطال فيحدثهم الحديث الذي لا يسىء إلى مشاعرهم ،  
وكلهم دون ريب منضم على هوى للإمام وتقدير وإن خشوا القوة الظافرة  
فكتموا عواطفهم . نعم ، فقد زلق لسان الزبير ، ومضى به في غمرة زهوه  
بظفره ينال من على — من بطلهم ويلجأه ، والقوم يشدون على صدورهم أن  
تنفث في وجهه حقيقة ما يشعرون . حتى إذا بلغ من ذمه ولحيه مبلغاً ترخص فيه

الحشية على الحياة ، انتفض امرؤ قائماً من بين الجمع ، يصيح مغضبا بلا مبالاة :  
« أيها الرجل ! .. أنصت حتى تسكلم ... » .

فاضطرب على الأثر حبل الهدوء . كل من في الحشد ألقى عيناً على هذا الجريء  
من عبد القيس أتبعها كلمة إعجاب أو نفثة عجب ، فقد وضع الرجل في هذه اللحظة  
رأسه على كفه .

وكان عبد الله بن الزبير في الحاضرين ، فبداه أن ترك العبدى وشأنه كفيف  
بأن يفسد عليهم الأمر ويطمع فيهم الجوع ... هذا « ابن جبلة » جديد ... من  
نفس القبيلة التي ما فتئت تربع عليهم علم العصيان ، فليرده إذن عما يروم ...  
وهتف به عبد الله :

« ومالك أنت ولل كلام ! .. »

فلم يأبه له . بل مضى وما أراد ، يجبههم باستشارهم وخدمهم باختيار الخلفاء —  
وقتلهم أيضاً ! — دون مشورة من البصريين ، فكيف بهم اليوم يسألون البصرة  
في أمر لم تكن لها يد فيه ؟ .

وأصغى الناس للعبدى وهو يتم حجته :

« ... ثم اخترتم عثمان ، وبايعتموه عن غير مشورة منا . ثم أنكرتم منه  
شيئاً فقتلتموه ، عن غير مشورة منا ! .. ثم بايعتم علياً ، عن غير مشورة منا ،  
فما الذي نفعنا عليه فقتلناه ؟ .. هل امتأثر بفيء ؟ .. أو عمل بغير الحق ؟ ..  
أو عمل شيئاً تنكرونه فنكون معكم عليه ؟ .. »

فاستمعى عليهم الجواب ! .. ولكن للقوى لغة أخرى غير منطق الحجة  
هي حديث السيف . وهل كانت القوة المادية إلا ضعفا يستتر دائماً خلف مظاهره  
التي تشيع الرهبة ولا تشيع قط الرضا والافتناع ؟ ..

لذلك ملك أصحاب الجمل ما يملك أشباههم من الأقوياء الضعفاء في مثل هذا  
الموطن الذي يزرى بالمتاد والسلاح ، فقاموا إلى الرجل يهيمون أن يقتلوه عسى  
أن يخرسوا لسانه عن كلمة حق يستطيع أن يقف بها رافع الرأس وهو يهزأ بأعق  
الأسلحة والجيوش ! .. أفعبد الله بن الزبير ياترى قد أغراهم به ليأمن أن تهدر  
أمام الناس هيبة حزبه الكبير ؟ ..

ولكنهم على أى حال لم يقدرُوا على النيل من العبدى ذلك النهار، فقد وقفت لهم عشيرته تحميه ، وتغنيه أن يصديه عدوان العادين . وعندما بدا لأخصامه أن انسياقهم لدفعتهم قد يؤجج عليهم النار فى وقتهم فيه أحوج إلى اكتساب رضوان الناس ، كفروا أيديهم عن الرجل ، سكنوا عنه وهم يضرعون فى نفوسهم أن يؤخروا ضربتهم المسددة إلى قلبه حتى حين ...

ولم يطل بهم الإضممار ولا الانتظار ، فما أن جاء الغد حتى نالوا منه وطرحهم فقتلوه . لم تغن عنه عشيرته شيئاً هذه المرة ولم تحاجز دونه ، شهدتهم الشمس فى شروقها صرعى على الثرى مجندين ، سبعين رجلاً ، حول جثة صاحبهم الشجاع . ليست هذه قصة الغدر الأولى بصحائف البصرة فى تلك الحقبة القصيرة من أحقاب التاريخ ، لا ولا الأخيرة فمثلاً حدث كثير ، وامل العذر الذى يقف بجانب الشيخين فى أمثال هذا العدوان أنهما كانا يبنيان ملكاً جديداً فليس يضير إن قام البناء على جث وأشلأ ، وأنهما أيضاً كانا أمام سيل عرم من أعوان لهما انضمت نفوسهم على حب الغدر وأفعمها الكلف بالدس والتآمر . . . وهل من عجب أن تصدر هذه الأفعال من رجال كان فيهم مروان وأشباه له كثيرون ؟ . . . إنما العجب أن تمر الصفحات التى سطرناها تية لا يدونها قلم غمسه فى مداد من دم . .

ثم ها هم الآن . . . البصرة اليوم قد غدت تحت الأقدام وإن هى إلا فترة من الزمن وجيزة ثم تدين لهم بالطاعة . كل ما كان يعنيه فى البدء أن يملكوا مواردها . وقد فعلوا الآن سيطروا على تواها المادية جميعاً فغدت فى أيديهم مصائر الأمور . استولوا على السلاح ، وأخضعوا الحرس ، وملكوا روة الإقليم بعد أن استولوا على بيت المال . ولم تعد ثمة حيالهم غير نفوس يسير عليهم ابتزاز ولائها أو حياتها لو عرفوا كيف يذرون الذهب أو يهزون السيف . . . فعلى الشدة والمال تقوى دعائم الملك العضود المنشود . .

ومضوا إلى بيت المال خفاً على أجنحة النصر وقد عزموا أن يشتروا الولاء بالسخاء ويذلوا لأعوانهم من أهل البصرة ممن الطاعة أرزاقاً وأعطية .

ولكن ابن الزبير وحده ليس يرى ما يرون . أبى عليه شحه وغل كفيه أن يرتضى سياستهم المرسومة ، فراح يحاج أباه :

« إن ارتزق الناس تفرقوا . . »

فلم يأبه له . وأقبل وصحبه يفرقون الأموال ويغدقون منها على صنائعهم وأوليائهم وقد قر في أخلادهم أن البصرة كلها رهينة بهذه الدنانير ، آتية على رنينها ولمعها لتلقى لديهم السمع والخضوع . وهل من رجل فيها يجسر الآن على مجاهرتهم بخلاف ؟ . . لقد تقاص منها اليوم ظل الإمام ، وغدا واليه في أيديهم لا يملك من نفسه غير ما يشاءون . وسوف ينال منهم كفاء عنته جزاء آ يستنزفه ما بقي فيه من دماء . .

تركوه لقية في يد عائشة تختار له المصير الذي تراه حقيقاً بأمثاله من العصاة ، لعله يكون أمثلة تردع عنهم من تحدثه نفسه بعده بمناجزة حزبهم الظافر . وكانت السيدة اليوم غيرها بالأمس ، أوتها الحرب قسوة العنف ، بعد رقة الضعف ، فلم ترفق بأسيرها المخدول ، ولم ترع فيه الأمن الذي يفيثه الأسر ولا الرحمة الواجبة من القوى القاهر على المهيض المقهور ، بل اصطنعت شدة الطغاة وهتفت بابان ابن عثمان إذ جاءها يسئلهمها رأيها في ابن حنيف :

« اقتلوه ! . »

فأسرع الفتى يتعجل في الرجل قضاء الله ، بل قضاء السيدة التي لبست ثوب الخصم وثوب الحكم في آن ، وأوشك أن يتلون سيفه بدم الضحية . ولكن امرأة أخرى — امرأة لم تأكل الأحداث من قلبها رقة الأنوثة ولم يحف فيها نبع الرحمة ، هالها الحكم فصاحت منكرة ، ومتوسلة ، في رنة بها ضراعة وبها تأنيب :

« نشدتك بالله يأم المؤمنين في عثمان وصحبته لرسول الله . . نشدتك بالله ! . »

فأغضت عائشة ، ثم تحدثت هامسة بعد قليل :

« ردوا أباناً . . . »

فردوه . وألقت إليه بأمرها الجديد . هذه المرة بدت قمات وجهها

البن وأرق :

« احبسوه ولا تقتلوه . »

فأحنى لها الفتى رأسه موافقا ، ومضى عنها كارهاً لأمرها وإن لم يسمعه العريان ، حتى لقد قال قبل أن يبرح :

« لو علمت أنك تدعينى لهذا لم أرجع . . . »

على أن العذرة التي نزلت برجل عبد القيس وعشيرته السبعين ، والمؤامرة التي قضت على الحرس ساعة المساء وعصفت بقصر الإمارة ومن فيه ، والجزاء الباغي الذي أصاب الوالى المخذول لم تذهب كلها هباء في ربع خال ، بل كان لها صدى له دوى شديد . ابن جبلة ساهر لم تنم عينه ، ولم يطر جناحه ، ولم تذهب الأمثلة القاسية التي رسموها على صفحة وجه أميره بشجاعة قلبه الثابت الركين . فما جاءت أخبار البغي حتى هب كالليث وقد أثاره من أولئك القوم انحذارهم مع الطغيان ، ونقضهم الهدنة التي عاهدوا عليها ابن حنيف . ووقف غاضبا يزار في أعوانه وفرسانه :

« لست أخاف الله إن لم أنصره . . . »

وتأهب للمسير نحو مجتمع القوم وهو يهدر هديره . وعلمت عائشة نبأه فتأشها القلق خشية أن تستشرى فتنته ويتألب على حزبها الناس . ورأت من الحكمة أن تسكن الثورة قبل أن تضطرم وتتسع فأرسلت إلى صاحبها تقول :

« إن حكما في الجمع . لا تحبسا عثمان ودعاه ... »

وتناقلت الألسن رسالة أم المؤمنين وما احتوت من رفق على الوالى الأسير . فلعل السيدة رأت أن تحرير هذا الذى نكلوا به كان كفيلا أن يهدى، ثورة من غضبوا له ، ويفرق الناس عن حكيم . . .

على أنها ضربة سياسية — لو كانت السيدة قد عنتها حقاً — لم تأخذ من تدبير ابن جبلة ، ولم تصبه على غرة منه ، فقد كان أسعن في المكر وأقدر على إحسان التدبير . نظر الرجل فيما حوله فهاله أن يسير هكذا إلى قوم كثر كمالى التعبئة وهو فى نفر من فرسانه قليل ، فهدهاه دهاؤه أن يستغل نزوة النفس البشرية وكلفها بعرض الحياة . فإذا به يذيع على الطوائف المضمرة بقية من غضب على

المتصرين أن هؤلاء قد زووا عنهم ما يستحقونه من عطاء وأباحوه أولياءهم  
فحسب . . . فمن أراد رزقا فليسر خلفه إذن إلى بيت المال ؟ . . .

فهذه حرب تكافأ فيها سلاح الفريقين . . . تألفوا الناس بالمال فأغراهم  
هو أيضاً بالطمع فيه . وكذلك زاد عديده ، وانطلق على رأس كوكبة فرسانه  
الأجلاد ، وسائفة من أفناء ربيعة ، ورجال عبد القيس الموتورين ، وجموع  
أخرى من بكر بن وائل ، سار أكثرهم حباً في الثروة قبل مسيرهم في حق  
أو بغية الانتصاف لمظلوم . . .

وكرة ثانية غلبت الدفعة على ما في نفس حكيم من الحذر والتبصر . تماماً كما  
حدث بالأمس . . . إنه ليهدر هديره ويخوض بتقذع سبابه في أم المؤمنين إذ يراها  
خالقة الفتنة المشبوبة ، فتقف له امرأة فتلجأ . فإذا سيفه يسبق إليها لسانه فيردها  
صريرة . . . عندئذ يملك الغضب قومها من أوليائه فيثورون به :

« فعلت بالأمس وتعود لثلاثها اليوم ؟ .. والله لندعنك حتى يقيدك الله . . . »  
ويتخلفون عن صفوفه راجعين ، فلعلمهم إذ عادوا قد حالفوا القدر عليه ،  
وقربوا هلاكه الوشيك . ومن يدرى كيف تكون مغبة الصراع المنتظر بينه  
وبين أصحاب الجمل لو لم يتدخل عنه كل أولئك الأعوان في لحظة كان فيها أشد  
حاجة إلى تألف النصير . . .

ومع ذلك فلم يفل هذا من عزمه ، ولم يردده عما أراد . وإنما سار في الفلول  
الباقية له وهو أمضى عزيمته منه قبل ، لا يخيفه وهن قواته ولا ترهبه كثرة  
الخصوم . وسار بنفره القليل حتى بلغ بهم مدينة الرزق منزل الأعداء . . . هناك  
لقيتهم جنود عائشة وأداتها الحربية الرهيبة . وبدأ لهم من بعيد عبد الله بن الزبير  
يسعى إليهم ، فلما وقفوا بالرجبة ، مثل أمامهم مدلاً في خيلاء واعتداد ، وقال  
غاضباً مخاطباً قائد الثوار :

« مالك يا حكيم ؟ . . . »

فتخابث هذا وأجاب في هدوء .

« تريد أن نرتزق من هذا المال . »

أفلم يكن يعلم ياترى أن هذا الأطلس البغيل حقيق بأن يرفض طلبه ويتنكر له  
وقد أوشك منذ قليل أن يزوى الأرزاق عن أوليائه لولا أن منعه أبوه ؟  
وجاءه الجواب الذى لا جواب سواه عند ابن الزبير حين يسأل العطاء  
وبذل الأموال :

« لا نرزقكم شيئاً . . . »

فلعل ابن جيلة قد سره هذا الكلام ، واستشعر له صدى بقلبه فرحة غامرة  
أن زوده خصمه بالوقود الذى يشعل نار الغضب فى نفوس من ساروا كل هذه  
الأشواط من أجل الأرزاق . . .

واستطرد يتحدث بتخافته إلى ابن الزبير فى السبب الأصيل الذى قدم فيه :  
« . . . وأن تخلوا عثمان بن حنيف ، فيقيم فى دار الإمارة على ما كتبتم بينكم  
حتى يقدم الإمام . . . »

فكان رد عدوه أن شخ بأنفه استعلاء وكبراً ، وقال له دون مبالاة ،  
بلهجة من استيقن أنه بموقف يستطيع فيه الإملاء :

« لا نخلى سبيل عثمان بن حنيف حتى . . . يخلع طاعة على . . . »

هكذا . . . ؟ برج إذن الخلفاء ، وكشف الحزب عن مراميه ؟ وما حديث  
إطلاقه الأسير إلا حيلة أريد بها تشييط الناس ؟ . . . وما هو أيضاً بمغادر قيده  
إلا أن يشتري حريته بخيانة مولاه ؟ . . . وكذلك كانت غايتهم من خروجهم  
إبتزاز سلطان ابن أبي طالب وإن طالما ستروه بدعوة الثأر لعثمان ؟ . . .

وصاح حكيم ، عند هذا ، محنقا غاية الحنق وهو يراهم ينحدرون بأهل بلده  
من خيانة إلى خيانة ، ويغرونهم أن ينكثوا مواعيقهم ويبيعهم ، آونة بالمال وآونة  
بتجنيبهم ذل الأسر وسياط النكال :

« والله لو أجد أعواناً عليكم أخطبكم بهم ما رضيت بهذه منكم حتى  
أقتلكم . . . »

ثم ألقاها نظرة استفزاز إلى الجموع التى سعت معه لهذا المكان كأنه يشعل  
دماء رجولتها ويستثير نخوتها أن تقول : « ها نحن أولاء . . . » فلما رآهم



تلهبوا بغضبهم واستجابوا لحيته المشبوبة ، رد عينه ثانية متأورة بكجرة إلى وجه عبد الله ، وعاود حديث التحدى والاستنكار :

« . . . والله لقد أصبحت وإن دماءكم لنا للال بمن قتلتم من إخواننا !  
أما تخافون الله ؟ . . . بهم تستحلون سفك الدماء ؟ . . . »  
« بدم عثمان بن عفان ! »

« فالذين قتلتموهم قتلوا عثمان ؟ . . . »

فكانت الحجة الدامغة التي تخرس السنة المكبرة والجدال . . . أم يسع ابن الزبير أن يزعم أن مذبحه المسجد ، وصرعى القصر ، وقتلى عبد القيس ، كل أولئك كان ثار عثمان ؟ . . . إن أباه ، وطلحة ، وعائشة وأعوانهم أجمعين راموا قاتلا فرموا بنصالحم ماث لم يكن بينهم ذلك القاتل الذي وقعت على رأسه دماء الخليفة الصريح . . . أفهذه عندهم عدالة القصاص ؟ . . .

ورفع ابن جبلة بصره إلى السماء يشهد الله :

« اللهم إنك حكم عدل ، فاشهد ! . . . »

والتفت إلى زمر رجاله خلفه ، وقال :

« أيها الناس . . . إني لست في شك من قتال هؤلاء ، فمن كان منكم في شك

فليرجع ! . . . »

وكانت كلماته هذه نفخة البوق التي آذنت بالقتال . . .

## ٦

شجاعة ابن جبلة وحدها هي التي أدارت المعركة ، وشبها نارا تلتظى على عدوه . من بدء دخول عائشة وأصحابها البصرة كان الرجل يتعرق شوقا إلى لقائهم في ساحة وغى يحتكون فيها إلى منطلق الأسنة . لم يبال قط بأن يكاثروه بحافل عجيشة تبدو قواته أمامها كبقايا الطلل أو كظلال الدارة بين متاهة الفلاة . الموازنة بينهم وبينه لم تدبر بخلد ، ومراجعة الأرقام لم تطف بباله وهو يعشق حسامه

ليضرب في صفوف مرصوفة متكثلة كأنها كسف الغيم . عاطفته هي التي كانت تعمل ، وعقل وراءها عقله . وعندما أشهر سيفه في وجوه أصحاب الجمل ذلك اليوم برحبة مدينة الرزق ، لم يقدم في خاطره إلا أنه يهز منجل حصاد . . . نعم فقد وجب عليه أن يقطف هذه الرؤوس التي خرجت لفتنة ، ومضت على وجوهها كل هذه المراحل الطويلة من بطاح مكة لسواد البصرة ، وهي تروم أن تنكث وتنقض وتقوض دعامة الخلافة التي شادها الإمام . أليس الدفع عن دولة على في الله وما بايعوا إذ بايعوه سوى الله ؟ . . .

لم يعن حكيم قط بأن يتفكر في أنه بحيال آلاف وآلاف من الرجال المزودين بخير العتاد والسلاح ، وهو في ثلثمائة من الأعوان فحسب . ولكنه كان قائماً في حق ، فيحسبه أن يسنده إيمانه . وليدع لهم كتابهم للمبأة تفرقه لو شاءت في خضمها العجاج ، فلعله يستطيع أن يغالب سطوة اللجة ويشق جبال هذا الطوفان .

والتحمت الأسمنة . كل فرد من أعوان الجمل خرج يهز رمحاً في وجوه هذه الطائفة الصغيرة ، ويضرب ويجول . حتى طلحة خرج ، وحتى الزبير أيضاً ، كأنهما يقومان لجيش عات عديده الألوف . بل قد رتباً لها الفرق ، وقدماً عليها القواد : أربعة زحفوا جادين إلى تلك الفئة المستضعفة بعددها ، القوية بعزمها ، كان طلحة أحدهم ، يقود كتيبة في وجه حكيم . ولكن هذا لم تهله الكثرة المتدفقة ، ولم ينخلع لها فؤاده ، بل قابلاً ثابتاً مالكا جأشه وسيفه ، شعاره أن يهزج فيقول :

« أضربهم باليابس ضرب غلام عابس

من الحياة آيس ! »

فلقد قدم الوفاء على الدماء . ورعى بحياته رخيصة على مذبح إيمانه . . .

كان من البدء يعلم أنه لن يقوم لكل هذه الجموع الزاخرة من جند المنتصرين ، ولن يستطيع دفعاً لأداتهم الحربية الرهيبة أن تطأه وتدهس أعوانه القلائل وكان أيضاً عارفاً بخنجات أنفـس أولئك الخصوم ، علماً أن لواءهم الأكبر الذي التفوا به وما يزالون هو عائشة بنت الصديق ، فلو سقط ذلك اللواء — لو فقدوه وهم في عنقوان المعركة إذن لأخذتهم الرهبة وتبددت شجاعتهم وقد غدوا وليس

أمامهم ما ينضحون عنه إن تقديس السيدة كان وحده يمسك عليهم وحدثهم ،  
ويشير في دمائهم الحمية ، ويحبب إليهم القتال . . . الله يعلم إن كان حكيم قد أراد  
في هذه الآونة أن ينال عائشة بسوء ، أو أزمع معيه إلها ليأخذها رهينة ثمينة  
يستطيع أن يبادل بها قومها صلحا مشرفا يرد للإمام شوكرته بالبصرة . ويعيد  
سلطانه المسلوب . . .

ما إن نشبت المعركة حتي اندفعت طائفة من أصحابه إلى دار أم المؤمنين عند  
رحبة مدينة الرزق لتفتحهما على صاحبتهما الآمنة بعض الأمان . إنها بغير ريب  
مجاز أولئك القلائل إلى النصر ، وأملهم الباقي لإفلاء الهدوء على بلدتهم وعلى أمتهم  
على السواء . ولكن بابها كان أمنع من أن تعصف به تلك الحفنة المهاجمة وتقض  
رتاجه ، فدونه كانت صفوف من الأولياء من قيس والأزد والرباب ، كلهم وقفوا  
يردون عنه العوادي ، ويتمثلون في دفاعهم عن الدار أن وراء جدرانها الصامته  
امرأة لها قداسة أن لاذت أعواما بكف رسول الله .

وأخذت المعركة بعد قليل تميل جذوتها إلى الخمود عن التأور والاحتدام .  
وشهد باب عائشة حينذاك أجساما يقربها الطعن ، وراءها تتبعثر على الثرى في  
جواره ، تحت ضربات سيوف أولئك الحراس الشداد . لم يغن إقدام هذا النفر  
القليل عنهم شيئا ، ولم يؤخر قدرهم المحتوم . بات واضحا أن شجاعة ابن جبلة ،  
وإن أبلغته مكانة الأبطال في الأساطير ، لم تعد مستطاعة أن تحمله على متن النصر  
المأمول . وإنما تناولته الأسنة من كل صوب ، وتماورت صجبة ألوف من الأيدي  
والوف ، تعتد إليهم بسلاح سطعت شفراته كومض البروق وحملت أطرافه الموت  
الناقع . . لو كان أعداؤه جميعا عزلا لوسعهم أن ينالوه . ولو حصوه وصحبه  
بدقئ الحصى والتراب لباغوا منهم الوطر . . . ولكنه مع ذلك لم يتقهقر قط ،  
ولم يدر ظهره ، ولم تزلله الحنة ، بل ثبت بموطئه لا يرحه كأعما بنى فيه على قدميه .  
وظل سيفه بكفه لا يكفه لحظة عن الحركة . . .

ثم آنت أخيراً اللحظة التي بدأت تحسم النزاع . . . ازدلف امرؤ من أصحاب  
الجلل إلى حكيم ، قبالقضاء عليه تسكن نائرة اللظى الشبوبة . . . وعند غرة منه ،

أناه من خلفه ، وضرب بحسامه إحدى رجليه . فما أن مرق الحسام ثم ارتد حتى طارت الساق . أفرأى الضارب يا ترى أن حكما بنيان راسخ القواعد لا ينقض إلا إذا قوض تحته أساسه ؟ . . . كذلك حسب ، وكذلك أيقن يقينه واثلج فؤاده وهو يشهده كيف اهتز للضربة الصيبة حتى اختلجت كفه ، فسقط سيفه بين أشلاء الصرعى وساقه المبتورة ! . . .

في هذه الفترة الحازبة التي تذهل المرء من نفسه فتحيله كيانا من الألم الصارخ لم يهن جلد الجريح ، ولم تتخل عنه شجاعته المثلى التي يميز شبيهاها في بطولة الأساطير . . . لوى عنقه في التو إلى غريمه ، وألقى عليه نظرة صارمة استوعبت حقه المرير . فلعلمها استقبلت في نظيرها أخرى سودتها الشماتة وبسمة سخرية وآراء طافت هنية بشفق حليف الجمل إذ رأى موتوره أعزل لا يملك أن يرد عليه ضربته . بل عساه استشعر أيضاً الرثاء حتف رغبته ، هذا الضارب الصحيح المنتصر ، وقد شهد حكما يميل كمن مادت به الأرض فيوشك أن يهوى من تخاذل وإعياء . . . أمن إعياء . . . أحقا أوشك الجبار أن يتخذ له مرقداً بين الأشلاء إذ هو حطام ؟ . . . إن لمح الطرف لأوسع فسحة من أن يضيق عن الحركة المبالغية التي أتى بها الجريح ، ففي أقصر منها كان قد مال ، ثم رفع ساقه المبتورة ، ثم استوى كما استطاع الاستواء على ساق ، ثم رمى عدوه برجله البتراء فصرعه حيث كان . وقبل أن ينتبه الصريع كان الموتور قد وثب عليه ، وبالسلاح الذي لم يعد يملك سواه — بأصابعه ، راح يجهز عليه حتى اعتصر من بدنه الحياة ! . . .

وتريث حكيم هنية يلقف أنفاسه المبهورة ، وإن الرضا ليشيع على قسبات وجهه فيسترأله ويخفيه . بين الرءوس الطائرة والأشلاء المتناثرة ، وفوق أديم المعركة التي لم يكف فيها الصراع ، اتخذ على جثمان عدوه مجلساً له لم يقتعد أوثر منه قبل اليوم ؟ . . . وكانت نهكة الجهد قد نالت منه ، ودمه النازف من جرحه الكبير يجرى به ويبدأ ويبدأ إلى غشية قريبة ، بجرى الفلك بمن أضناه طول الإبحار إلى شاطئ ظلل فيه راحة واستقرار . ولكنه حتى في هذه العمرة

التي تشبه الوسن لم يذهل عن طبعه ، أو لعله كان يحلم بسجية الشجاعة وهو يهم  
أن يقيه في نعاس الموت . . . فراح يردد بصوته الضعيف ، ويرتجز نفسه  
يزدهيها الفخار :

« ليس على أن أموت عار فالعار في الناس هو الفرار  
والمجد لا يفدحه الدمار . . . »

وكانت به يقية من حياة عندما مر فارس من أعوانه وهو يمرقده ذاك ،  
هتف به إذ رآه .

« حكيم ! . . . مالك يا حكيم ؟ . . . »  
« قتلت . . . »

« ومن قتلك ؟ . . . »

فلم تغب عنه قوة جنانه ، وهو بموقفه الضنك ، ولم يتخل عنه مرحة فأجاب  
وهو يتسم :  
« وسادتي ! . . . »

فسارع الرجل يحمله إلى مكان آمن عليه مما هو فيه . والتف به بقية صحبه  
الذين أخطأتهم الأسنة حتى الآن . فلما شهدهم حوله ، انتحل من حياتهم حياة ،  
ومن قوتهم قوة ، وأمرهم فسندوه حتى وقف بينهم على رجل واحدة . . .  
إن النصر قد فرحقاً منه ، ولكن النفوس تستطيع أن تحتزن الحقد أجيالا  
طويلة ، وتتوارثه ، وتنقله إلى سواها كما تنتقل العدوى ، فما له لا يؤلب قومه  
مرة أخرى على هؤلاء الغزاة العادين قبل أن يموت ، فتكون لكلماته الأخيرة  
قداسة وصية واجبة الإنفاذ ؟ .

وأنصت له نفر الملتفون به ، وإن السيوف لتأخذهم فلا يتهيأ ولا يرمعون . . .  
ومضى هو يقول :

« أيها الناس . . . إن خلفنا هذين ، وقد بايعا عليا ، وأعطياه الطاعة . . .  
ثم أقبلا ، مخالفين ، محاربين ، يطلبان يدم عثمان بن عفان ، ففرقا بيننا ، ونحن  
أهل دار وجوار . . . اللهم إنيهما لم يريدا عثمان »

ولم يطل به الحديث ، فقد جمدت أنفاسه وحالت بين كلماته الباقية أن تبلغ الأسماع ، الموت أطبق بأصابعه الباردة على شفثيه وإن بقية حديثه ليلحقه ، فماتت ألفاظه قبل أن تولد . وعندما انجباب غبار المعركة ، وسكن صليل السيوف والسلاح ، كان الرجل اقي على التراب الذي رواء الدم ، إلى جوار أشلاء ولده الأشرف ، وأخيه الرعل ، وبين جثث أولئك النفر من فرسانه ، الذين ظلوا يصفون إليه حق اللحظة الأخيرة ثم تبعوه مسارعين في مجاز الموت كما قادم من قبل في دروب الحياة . . .

ومهما اختلفت الآراء فيه ، وتباينت نظرات من يفحصون فعاله تحت أضواء شق يشعها تغاير النزعات . . ومهما أنكر المنكرون عليه إزراءه بمائشة ، وقذفه إياها بهجر القول ، وسعيه أن يقتحم عليها بيتها — وهي امرأة لها من أنوثتها سياج ، دع ما يجب لها من توقيير عند الناس . . . مهما يكن من أخطاء الرجل أو ما يبدو أمام خصومه كأه أخطاء ، فليس من ريب في أنه مضى مثلاً قذا لإنكار الذات ، والدود عن رأيه وإيمانه حتى ليعز أن يكون له شبيه في الرجولة بين الرجال ، وفي البطولة بين الأبطال . وكفاه أن آثر اعتناق الموت على أن يعيش مستذلاً ، ومستظلاً أفياء الدعة والتخاذل . فمضى لربه وما عزم عليه ، راضياً بموقفه : قريراً أن ناضل عن حرية شعب أبي له أن يركبه عدوه بالطغيان ويقهره ليدين بما ليس يؤمن به كل الإيمان . . . إن حكماً كان يرى في رجال عائشة جيشاً غازياً ، عادياً ، يهم أن يسود البصرة بقوة السلاح ، ويبدل شعبها بعهد النور والتحرر ، الذي يزغت شمسها وما كادت ، عهداً كله عسف وظلام . لهذا هب هبته وقام يدرأ النكبة بلسانه وقلبه ودمه . وما هي كلماته تحمل عقيدته وترسم نفسه التي لم تقر الخضوع والإذعان . . . دوت هنية في الآذان فصارت لواء التف به أعوانه ومن رأى رأيه ، وناضلوا عنه حتى نضال حتى غاض منهم معين الحياة . . . ولسوف تدوى مثيلاتها أبداً ما كان للحرية في هذا العالم صوت مسموع وما بقي لها على أديمه ناصر . . . كان قد قدم قبيل المعركة يستثير هم ذويه ونخوتهم أن يظاهروه في كفاحه ودفعه الغزاة عن بلده الأبي الأمين ، فراح يهيب بهم ويقول :

« يا معشر عبد القيس . . اشخصوا بأبصاركم ، وجاهدوا العدو . . فإما أن تموتوا كراما ، وإما أن تعيشوا أحرارا . . . »

فاستجابوا للنداء وماتوا وهم كرام . . . ذهبوا في سبيل الحرية ، صرعى ، ضحايا وقرابين . . .

ولكنهم كانوا ثغماً أرخص لمطلب ثمين ! فكم للحرية من شهداء ، وما أكثر ما يبذل من أجلها من فداء ! . . لم تكن دماؤه وصحبه آخر ما أريق ذلك اليوم على مذبحها المرموق . النصر الباغي لا يشبع نهمة ولا تكف أنيابه عن النهش ولا بلعومه عن البلع والازدراء ! . . فما أن أيقن أصحاب الجمل أن وسن الموت قد غشى ميدان الصراع وأنى فيه على كل خصومهم سوى قليل ، حتى تنادوا في أرجاء البلدة بين القبائل التي أفرعتها أنباء المذبحة :

« من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة ، فليأتنا بهم . . . »  
فمن غزا المدينة ؟ . . لأن مصير سوف يساق هؤلاء يا ترى وهم مئات ؟ . . .  
وبأى جريرة يساقون ؟ . . وهل غابت عن الزبير وطلحة أنه كان لهما فيهم أنصار طالما استعدوهم إذ ذاك على عثمان ؟ . . إن عائشة نفسها كانت ترى أيام ابن عفان للقوم — أولئك الذين قصدوا المدينة — لأنهم كانوا في عينها مظلومين ييغون رفع ظلاماتهم عند الخليفة ، ويجب لهم عليه الإنصاف ، فكيف تدعهم اليوم وتتخلي عنهم ؟ .

الهوى يبدل أسباباً بأسباب ويخلق ما يشاء من المماذير ! . . وها هو الرثاء ينقلب نقمة على مستضعفي الأمس المظلومين فتتنكر لهم نقوس من اتخذوهم لهم أنصاراً وأولياء من قبل . بغير هذه النقمة وهذا التنكر لا تستقيم الدعوة العائشية المنادية بالانتقام لعثمان . . . وما أهون على طلحة وصاحبه من اصطناع ضحايا يكفرون عن خطاياهما في حق الشيخ حين يجب عليهما التفكير . . .  
أم حسبها الناس سيؤمنون أنها بريئة وقد شهدوا غيرها يناله القصاص ؟ . . كلا والله ، وقد أخطأ لو حسباه . . بل طلحة يغلم بأى شيء تلونت كفه في محنة عثمان وهو القائل :

« . . . كان منى فى عثمان شىء ليس توبقى إلا أن يسفك دى فى طلب دمة . . . »

ومع ذلك فقد آثر أن يسفك دم سواه ! . . . سوجىء له ولحزبه بأولئك القوم « بمن غزا المدينة ١١ » من أهل البصرة ، كما يجاء بالكلاب فقتلوا جميعاً أمام أعينهم ، لم يتسع لأحد منهم عذر ولا تبرير . . . الله وحده يعلم كم من مظلوم قتلوا وكم من برىء ، ويعلم أيضاً إن كانت نعمة أعوانهم عند هذا القصاص لم تتسع لكثير « بمن لم يغزوا المدينة » وإنما ألصق بهم قسراً ذلك الاتهام ! .  
إن السياسة على أى حال لها أسلوبها الخاص ، وليست بذات قلب وضمير ! . . . كفى بها أن أنالتهم ما ييغون فيها هى البصرة دانت لهم بعد طول تمنع وازورار ، وخضعت ولو تحت سيف الإرهاب . . . وها هم أهلوها يبايعون الصاحبين على الطاعة والخضوع . النصر الأكبر منهما الآن جد قريب ، يوم تدين بقية الأنصار . . .

وعلى ذلك بادرا وعائشة يرسلون الرقاع إلى الأقاليم تحمل نبأ ظفرهم وتدعو بدعوتهم ، التى تؤلب على الإمام ، أو تهيب بالناس أن يقعدوا من نصرته . . .  
كتبوا بهذا إلى الشام ، وإلى الحامة ، وإلى المدينة ، ثم إلى أهل الكوفة وهم يأملون أن يأتهم من كل أولئك نصير يشد أزهرهم ويعينهم على ما يريدون . . .  
ولكنهم كانوا يبدون بكتهم غير ما يخفون . حرصوا أن يظهروا أمام الناس كمن لا يبغي أرباً من سيادة أو سلطان ، بل هى نهضة لله تقتضى للقتيل المظلوم .  
« . . . إنا ننشادكم الله فى أنفسكم إلا نهضتم بمثل ما نهضنا به ، فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد أعذرتنا ، وقضينا الذى علينا . . . »

فما كان أرقه من ستار يشف عما خلفه ! . . . فهذا الزبير ، لا يكاد يرفع يده عن كتبه هذه ، حتى يعزى بين أهل البصرة — أعوانه الجدد — يحفز ولاءهم أن يستجيبوا له فلا يكون كلامه إلا دعوة سافرة تكشف عن مبلغ طمعه فى السلطان . . . ينادى فى الناس :

« ألا ألف فارس ، أسير بهم إلى على ، فإما بيته وإما صبعته ، لعل أقتله قبل أن يصل إلينا ! . . . »



فتذهب دعوته الظلمة بدداً في الريح ، وبذهب معها اعتزازه بما أصاب  
من نصر لم تخلق جدته الأيام . . . .

وما أسرع ما ينتاب الرجل الضيق والتردد . وإنه ليحس ، في ساعة تأمل  
وقد خلا بنفسه ، أن سحابة من الشك تغشى بصيرته فلا يجيد تبين الأمور . .  
اشتبه عليه موقفه وملاً قلبه التوجس مما هو فيه وما صيرته إليه الأحداث ،  
حق ليهمس محدثاً نفسه :

« إن هذه لهي الفتنة التي كنا نحدث عنها . . . » .

فإذا أذن أخرى قد لقت همسه ، فيرتد عما كان فيه من شرود الذهن على  
صوت مولاه :

« أنسميها فتنة وتقاتل فيها ؟ . . »

« ويحك ! . . إنا نبصر ولا نبصر . . . »

ثم هز رأسه في أسف وأردف يقول :

« . . ما كان أمر قط إلا علمت موضع قدمي فيه غير هذا الأمر ، فإني

لا أدرى أمقبل أنا فيه أم مدبر ! » .

عزلة

بعد الصبر عن القصد . . .

في علاج الأنفس المنحرفة عن الجادة يستطب بالرفق فتستقيم ، وبالعظة الحسنة فتتقئ إلى الحق إذ تراها مشعلا يضيء أمامها فيكشف المفترق بين الضلال والهداية . . بين عماية الباطل ويقظة الصواب المنير ، ولكن الذين أغواهم هواهم ليس يهديهم من غي راشد ، ولا يميظ عن قلوبهم أكنثها . . الأرب الذاتى وحده غايتهم ، إليه يسمعون ، على الصعب والدلول ، بأى وسيلة وظهر ، ومن أى سبيل ، إن الطريق تزين لهم في غلالة من الضوء رقيقة هي أشبه بلعة الفجر الكاذب في جانب السماء وإن حسبوها بشير الإصباح . المنى الآن حياهم بارقة ، لها سنى بانت تحته الدارة المنشودة فيها مياه وظل ظليل . والمرحلة الباقية قصيرة ، خطوات ثم يبلغون ما يشتهون . أفيلقون ثمة جنى وغصونا وارفة فينانة أم هي يا ترى خفقة السراب ؟ . . .

إن هذا لوهم المخدوع عن بصره وعن بصيرته ، فقد جمعت بهم مطايا الغايات وهاموا في فلاة يختلط فيها انعكاس السراب بفراغ كأنه التيه . جاوزت بهم أمانهم القصد ، نأت عنه كما نأى الصبر بالإمام . عندما ترفق بهم ونزع إلى الحسى كان صبره عليهم في الله ، وللوطن الذى شاء من أجله أن يهل لدعاة الانقسام عسى أن يكون في إمهاله إيائهم علاج ما بنفوسهم من انحراف . أما اليوم فقد عرف أن داءهم عزيز على دوائه فليس له أن يدعهم إذن عدوى تصيب الباقين . نصرهم بالبصرة — وإن جاءهم على متن القدر — حرى أن يفتن ضعاف النفوس بغيرها من البلدان وما أكثر ما يحسب الخلق الحق في جانب الظاهر . وإذا كان قد أمهلهم بالأمس فقد وجب الآن أن يعالجهم حتى لا تسير الأقاليم الأخرى على آثارهم في درب الفتنة . فكم بها من متربص يهزه جشعه للسيادة أن يغامر بالانتقاض على إمرته وهو لا يهدف ، إذ يفعل ، إلا إلى إرضاء شهوة خاصة ، أما خير وطنه ودينه فتلو مشتاه . . .

على الإمام الشيوخ إلى مباءة العصاة ليثد هناك فتنهم . وليلحد في حلبة نصرهم قبرا يضم مطامعهم . إن لهم في جمبته لدواء ناجعاً يشفي من أدوائهم العvisة ما عز على الموعظة والترفق — لهم عنده العنف ولهم السيف ! ... ومع ذلك فلم تبرح الرحمة قلبه قط ، بل كان دائماً أقرب إلى الرئاء لهم من هذا الغي الذي سدروا فيه ، وظل يرجو أن يتغلب التبصر في نفوسهم على الطيش فيبقى السلام ويلتئم صدع الإسلام . وما كان عدوانهم على البصرة ، ولا سومهم أهلها الحسف بذلك الإرهاب الذي اختطوه ، لينزع من قلبه الرجاء في عطفهم إليه باللين والهوادة . وحين جاءه ابن حنيف وبوجهه آثار مثلتهم كتم فورة غضبه قدر وسعه حتى لا يثير لواءج الألم في نفس الوالى المغلوب ، وتلقاه قائلاً في دعابة :

« انطلق هذا من عندنا وهو شيخ فرجع إلينا وهو شاب . . . »

ثم ربت ظهره مواسياً وقال :

« ... أصبت أجراً وخيراً يا عثمان . . . »

ومع ما بدا من تهوينه شأن هذا العدوان فلم يغفل عما قد يحىء في أعقابه من أخطار لو ظل مستمسكاً بصبره . ولكنه كان من أمره كالضلع ، يرى الخطر تحت قدميه ولا يملك رده . فما زال ينقصه مزيد من الرجال والعتاد ولو أن امراً آخر كان مكانه لما أبى نصرة القبائل التي أتته دراكا تعرض نفسها عليه أن يقبلها في جيشه ، أما هو فقد بقى وفيا لرأيه الأول لا يحيد عنه حتى يظل نقي الصفحة أبداً ، نائياً عن اقتحام الشبهات . ولكم غل يديه استمسكه بهذا المبدأ وتركه رهينة رأى أبى موسى الأشعري وإلى الكوفة الذي لم يكفه القعود عن نصرته بل راح يحض أهل إقليمه ألا يلحقوا به ولا يعدوه بالرجال والسلاح . فما كان أعجب موقف الأشعري للتخاذل ، وأتمس به من نصير ووال . . .

كم حز في نفسه أن تثبط همة الكوفة عنه ، هي التي آثرها بحبه على بقية البلاد وشاء أن يتخذها رداءً له وللوطن يدفع عنهما غائلة العصاة . وكما عانى إذ ذاك من قلق الانتظار . لقد أرسل يستمدها مرة ، ثم ثانية ، ثم أخرى فما بالها لم تلب دعوته ؟ . آفتها دون ريب واليه ، فهل من عجب أن تحوم حول الأشعري

الشكوك حق ليحسبه الناس ضالعا مع الأعداء ؟ . . لم تجد الرسل ، ولم يغير العامل العاصي موقفه . وهذا محمد بن أبي بكر يعود من الكوفة ولا جند وراءه ، ويخبر الإمام كيف خبر بنفسه حقيقة دخيلة أبي موسى فاستيقن أنه تكرر لأدنى واجبات الولاء . . . كان محمد قد مضى بكتاب من علي إلى الوالي يستنفره فيه وأهل إقليمه أن يوافوا جيش التأديب بذي قار ، فلم يلق عند الأشعري أذنا سمعة ، وعندما بلغ الناس قدوم رسول الإمام ذهب وجوههم إلى عاملهم يطلبون منه الشورة :

« ما ترى في الخروج ؟ . . . »

فقال دون مبالاة :

« كان الرأي بالأمس ليس باليوم . إن الذي تهاوتم به فيما مضى هو الذي جر عليكم ما ترون . . . »

ثم أردف يبت فيهم التخاذل فقال :

« . . . إنما هم أمران : القعود سبيل الآخرة ، والخروج سبيل الدنيا ، فاختاروا أيها الناس ! . . . »

فكان من الطبيعي أن يثاقلوا عن دعوة الإمام بعد هذا الرأي الذي ساقه واليهم الحصيف ! . . .

وعلم محمد بما كان من الرجل فأسرع يجادله في الأمر . ولعله ذكره بما عساه قد غفل عنه أو أغفله من وجوب امتسأكه بالولاء لأمر المؤمنين في هذه المحنة التي أوشكت أن تنزل صرح الإسلام . ولكن أبا موسى تشبث بعناده . وبدأ كأن قد حزم حزمه على القعود ، وعلى تثبيت الناس ، وعلى عمل كل ما هو كفيل بفعل يد الإمام عن قمع الثوار . لم يصغ للنصح ولم يلبن أمام غضب رسول مولاه . بل ظل بموقفه المعجيب لا يتزعزع عنه . . . وكأنه أراد أن يبدو في عيني ابن أبي بكر كمن يخشى على الحق أن يضيع ، ويحرص على العدالة لتسير في نهجها ، فقال بعد قليل يبرر مسلك العناد الذي التزمه :

« والله إن بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبك . فإن لم يكن بد من قتال لا نقاتل أحداً حتى يفرغ من قتلة عثمان . . »

فهذا ترديد لقول قديم نطق به طلحة والزبير عقب بيعتهما للإمام ! . . فبأى عدة ياترى يستطيع الفراغ من قتلة عثمان وئمة أحزاب شتى كلها يدعى لنفسه الحق في القصاص ولا يدفع إلى يد الحاكم الشرعى للدولة بمجندي واحد يستعين به في إنفاذ العدالة في أولئك القتلة المطلوبين ؟ . ومن كانوا الجناة المخضبة أكفهم بدماء الخليفة القتل ؟ . . وكيف يساغ أن يطلب من الإمام الثأر لعثمان وقد تفرق دمه بين القبائل وأهل الأمصار بل الطائفة التي نهضت تدعى لنفسها ولاية الدم ؟ . . إن العجب كل العجب أن يسألوه الاقتصاص من كل أولئك الجماهير ثم يضمنون عليه بالسلاح الذي يقابلها به ، وبالجند الذي هو عدة من يريد إقامة حق ودحض باطل ليس إليهما من سبيل إلا بقوة السواعد وشد السيوف .

لقد أوشك الأشعري بمسلكه أن ينحاز لأهل الفتنة المنتقضين على الإمام . وهل كانت فتنهم سوى عصيان يكاد الرجل أن يقرم عليه ؟ . وعلى لهم فيه ؟ . . ويعزى غيرهم بتأثر خطاهم المريية ؟ . . فتقاعده عن نصرة مولاه مكن لهم في البصرة ، وهو كفيل بعد أن ينيلهم أربهم في البلدان الأخرى مادام على لا يملك ردهم عما يريدون . لا ريب كان مفتاح الموقف كله في يد أبي موسى تلك الأيام لو شاء خذل أو شاء نصر . وكان فيما يبدو يستشعر هذه القوة التي جاء بها زمانه وأصبح من طريقها قواماً على مصير الدولة ، فظل طويلاً يستمتع بما أضفته عليه من اعتزاز بنفسه ومقداره ، وغلا في عناده ما وسعه الغلو والتيه فراح يلوى جيده عن رسل الإمام الذين ما فتئوا يقصدونه تباعاً ليستجيب لدعوة أمير المؤمنين . . قصده ابن أبي بكر وابن جعفر ، ثم من بعدهما عمار بن ياسر ، والأشتر ، وابن عباس ، والحسن سبط رسول الله . وكانوا جميعاً نخبة من خيرة الناس تفتتح أعصى المغاليق والأبواب لكلمة تند منهم إلا باب قلب الأشعري المفتون بالعناد . فما زال الرجل ممعناً في غلوائه ، أو في عدائه ، حتى ضاق عنه صدر على الذي لا يضيق ، وكتب له يقول :

« من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس .

أما بعد ، فقد بلغني عنك قول هو لك وعليك . فإذا قدم رسولي عليك قارفع ذيلك ، واشدد مئزرك ، واخرج من حجرك ، واندب من معك . فإن حققت فأنفذ وإن فشلت فابعد . . . وأيم الله لتؤتين حيث أنت ، ولا تترك حتى يخلط زبدك بخثارك ، وذائبك بجمامدك ، وحتى تعجل عن قعدتك ، وتحذر من أمامك كحذر من خلفك . . . وما هي بالهويني التي ترجو ، ولكنها الداهية الكبرى ، يركب جملها ، ويذل صعبها ، ويسهل جبلها ؛ فاعقل عقلك ، واملك أمرك ، وخذ نصيكت وحظك . . . فإن كرهت فتتح إلى غير رحب ولا في نجاة . . . والله إنه لحق مع محق ، وما نبأ بالي ما صنع الملحدون . »

أفكان التفشل أو الجبن هو وحده باعث تقاعد الأشعري عن نصرة الإمام ؟ . . . على ترفق غاية الترفق بواليه العاصي ، الذي خذله وخذله عنه فلم ير في خطابه أن يرميه بالخيانة ، واكتفى بأن رسمه خواراً ضعيف الرأي قصير النظرة بالغ التردد ، يتشابه عليه أمره حتى لا يدرى أين يجب عليه أن يضع قدميه . ولقد تجتمع الآراء في نظرتها لهذا الرسم وتتفق غاية اتفاق ، ولكن منها بغير شك ما لا يحرم الوالي صفة أخرى هي التنكر لطاعة الإمام وبعده عن الولاء له . هذه الصفة كانت ثوباً لنفس أبي موسى لم تخلعه في أخرج المواطن وأدعاها إلى الاستجابة للوفاء والنصرة ، بدت جليلة خلال محنة البصرة ، وستبدو من بعد أجلى وأظهر حين يسخر القدر سخريته المرة فيجعل من الأشعري ، الذي لم يؤمن قط بحق مولاه ، صاحب الكلمة الفاصلة في هذا الحق عند التحكيم . . .

على أنها كانت محنة اختيرت فيها نفوس الرجال فنضج إناء أبي موسى بما فيه . . . وقد آثر الرجال أن يبقى بموقفه ، تماماً كالأتان الحرون ، وإن ألحبت ظهره من ألفاظ أميره سياط لساعة . . . وإن تناوبه الرسل بالحث واللعن والوعيد . فلا أمر كتبه كان مسلكه ، أو كان من غفلة لا يصلح معها أن يؤتمن على ولايته ولا ثقة مولاه . . . وعندما يبين الوقت فسوف نراه ، ليس بحسب ذلك العامل العاصي الغافل ، بل الأداة القاطعة التي سدد القدر حدها لدولة الإمام .

### العزلة . . .

هذه هي السياسة التي شاء أبو موسى الأشعري أن يحمل عليها أهل إقليمه ، وإنها للفظ هين رقيق يرسم صورة لنواياه لو استطعنا إحسان الظن بما يطوى عليه خاطره وأغفلنا مابدا من تنكره لواجب الولاء لأميره وفي عنقه بيعة توجب عليه هذا الولاء . ولكن الرجل رأى رأيه ، وحط سبيله ومار قدما فيه . وهو بهذا يوشك أن يكرر مرة أخرى نفس المأساة التي وقعت في العام السالف بمحاضرة الإسلام ويلعب دور ذلك الفريق من الصعابة ، الذين تقاعدوا خلال محنة عثمان في وقت دعوتهم الدواعي فيه إلى عمل إيجابى حاسم ، وآثروا النأي بأنفسهم عن تناول الأمور حتى أبرم القدر قضاءه في الخليفة الشيخ . . . فلو أدلوا بدلوه إذ ذاك ، ومضوا وما تفرضه عليهم مكاتبتهم بحسبانهم ردوس الناس ، وواجبهم من نصر الحق أو كبح الباطل فربما وسعهم يومها أن يكتبوا صفحة أخرى في التاريخ أنقى وأظهر ، لا يلوث أديعها مداد الدم ، ولا مستطاعوا أن يدفعوا عن عثمان عادية الفتنة ، أو يحملوه على التزام السبيل السوى فيجنبوه مصرعه . وها اليوم يعيد الأشعري قصتهم ، ويرد ما كان من تواكلهم ثانية إلى الحياة وهو ينأى بنفسه وبأهل إقليمه عن أميره كما ينأى الناس عن راع استصرخهم على ذئاب جياع . . .

وكان رأى أبي موسى أن يدع الراعى ويدع الذئب ، لا يعدو من أجل فريق منهما على فريق . . . جماع سياسته كان هذا القعود وأمر العادى والمستصرخ كليهما للأقدار . فتنه الاعتزال شر افتتان لا نحسبه يحىء إلا عن غفلة تجاوز كل الغفلات ، أو عن مكر سيء يراد من ورائه أن يشتبك الأمر وينتقض على أمير المؤمنين . ولقد كاد الخطب يدهم ، وأوشك أن يطلع عواقب وخيمه ؛ فما هز هذا شجرة في لحيته ، وما دفعه قط عن سياسته السلبية ، بل ظل ودأبه ، يحض أهل بلده أن يقعدوا مثل قعدته كأن الأمر ليس بخصه . وكأن كل ما في



جعبته من علاج للداء الموشك على الأخذ بخناق أمته من وراء الحلاف المشبوب هو ما تحمله هذه الكلمات :

« . . . أغمدوا السيوف ، وانصلوا الأسنة ، واقطعوا الأوتار حتى تنجلي هذه الفتنة . . . » .

فالدولة إذن والأقدار إن شاءت مالت بها إلى يمين أو طوحت بها إلى يسار . . . مصير الأمة الإسلامية كلها كان لا يساوى عنده خطوة يخطوها في توفيق أو سيفاً يسله في دفاع ونصرة . . . لا عمل سوى ألا يعمل ! . . .

فما أعجب أن تكون هذه هي الخطة التي ظنها تودى لخير . . . أم كانت عزلة حقيقية لا ترجح كفة جانب من الفريقين ؟ . . . الأشعري هكذا آثرها ، وقام يبشر بها بين الناس كأنها حيدة صريحة أمينة لا إلى أولئك ولا إلى هؤلاء من الطائفتين اللتين ثارت أو كادت أن تثور بينهما الحرب الأهلية . وحين تحسن الظن بالرجل قد تراها برأى عينه ، والكنك لو فكرت قليلاً لكنت تنكر على المصادقة وحدها أن تضع في فيه لسان يفاء يردد نفس كلمات عائشة أو يكاد . . .

نعم وإنك لحق في هذا الإنكار ، أو متردد — في القليل — يجتذبك الشك وتلعب بك الريية ، فما تستطيع أن تنسى أن بمثل دعوته دعت عائشة من قبل وبعثت بكتبتها إلى أهل الكوفة عقب انصياح البصرة لطاعتها عنوة بعد ما لفها جيشها في وشاح إرهاب . . . كتبت إذا ذاك إلى بلدة هذا الأمير تقول في خطاب لها طويل !

« . . . فبطوا الناس عن منع هؤلاء القوم ونصرتهم ، وجلسوا في بيوتكم . . . » .

وبمثلها أيضاً بعثت إلى طائفة من رجالات هذا المصر ، تحضهم على القعود ، وجرت هكذا رسالتها إلى زيد بن صوحان :

« من عائشة ابنة أبي بكر . أم المؤمنين ، حبيبة رسول الله ، إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان .

أما بعد ، فإذا أتاك كتابي فأقدم فأنصرتنا على أمرنا هذا ، فإن لم تفعل فخذل الناس عن علي . . . . . » .

فلصالح من كان هذا التخذيل ؟ . . وإذا كانت السيدة لم تجد في زيد لساناً ناطقاً بدعوتها فها هو الأشعري يرفع بها عقيرته ولا يكف لحظة واحدة عن ترديدتها وصيها في الآذان . كان دأبه الدائب أن يثبط الناس عن مولاه استجابة منه — على أهون افتراض — لخطته التي سماها سياسة الاعتزال .

ويعر الوقت . وتستطير الفتنة فلا تنحني مغبتها الخطرة عن ذي عيني ، منذرة بشر مآل ينتظر دولة الإسلام ، وآخذة بين يوم ويوم من هية الرجل الذي أقسم له عين الولاء ، ومع ذلك فما ينفي أبو موسى يسدر في غيه ، ويعمن فيه أيعا إمعان . بل هو يكلف بالحرص على هذا الإصرار فلا يزحزحه عنه شيء ، ولا يردده إنسان . وكلما جاءه رسول من الإمام يهيب به أن يندب الناس ، بدا كأعما في الإهابة ما يغريه بالالج في عناده . ولا يكاد يعصى عنه ابن أبي بكر يائساً من استمالته ومن هدايته ، ويقبل ابن عباس مبعوثاً جديداً من قبل الإمام ، حتى يعاوده كلفه بالتثييط هذه المرة أعمق وأشد ، فيردد ما كان قد سلف منه لاجموع وإنه ليصطنع لنفسه في خطابه الجديد مقاما يجعل لحديثه عذوبة في الأسماع . . . . . اسمعه كيف قام يقول :

« يا أيها الناس . . إن أصحاب النبي الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله ورسوله ممن لم يصحبه ! . . وإن لكم علينا حقاً ، فأنا مؤدبه إليكم . . . »  
فهو إذن أبصر بالموقف ، أعرف منهم بالحقائق الخفية إذ كانت له بالنبي صحبة وله إذن عليهم السمع ، ولقوله فصل الخطاب والقطع ! . .

وكرة ثانية يلم بحق عثمان على الناس إقامة يغلفها التلميح دون التصريح ، ويشير بها هوناً لما اجتزحه الشعب في ولايته التي ما كان لامرئ أن يخلعها أو يخذلها وهي منحة من عند الله آثره بها دون سواء . ثم يعصى وحديثه المعاد للمهود . فإذا به الآن لا ينسى أن يضمه دعوة أخرى إلى جوار دعوته السالفة إلى التخاذل والتمرد . . . يقول وهو يستأنف الكلام :

« . . . كان رأى ألا تستخفوا بسلطان الله ولا تجترئوا على الله . . . وكان  
الرأى الثانى أن تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم إليها حتى يجتمعوا وهم  
أعلم بمن تصلح له الإمامة منكم ! . . . »

ويحار الذهن أشد حيرة وأبلغها حين يحاول أن يستقصى المعنى المستر وراء  
هذه الكلمات . إنها لتتضم على بنى سافر على حق أمير المؤمنين وتكاد تجأر  
بوجوب نقض بيعته التى تمت عن رضا من وجوه المسلمين واختيار حجة الأشعرى  
فى هذا أن ثمة طائفة لم تجتمع بعد على على ولم تدن له بالطاعة وإن علمها العامل  
المشاق قد نكثت عهدا السالف وحثت بيمين الولاء . وإنه ليسدر فى بغيه حتى  
الغاية ، ويعضى ودعوة تخذيله وانتقاضه إلى حد أن يشترط ثمة لاستجابته لأوامر  
الإمام — أى إمام كما يلوح ! — أن يتفق على تأييده كل الناس ولا يتردد أحد  
منهم فى الادلاء بالبيعة له . فما أعجب أن تكون هذه هى نظرة الرجل إلى إمرة  
أميره ، وما أدلها كلمات فضحت نواياه . . . أم يعوز المرء أن يتلمس أبلغ منها  
دلالة على رأى الأشعرى فى ولاية على ، وهى ترسمه لنا مستهيناً بها ، لا على احتفال ،  
يرى نفسه فى حل منها لو شاء ، وخاصة وما غفل قط عن الإعلان بأن بيعة عثمان  
ما زالت فى عنقه ! . . .

من العبث أن نصطنع العذر المقبول الذى يكون تبريراً لما قال . فما يستطيع  
أحد قط أن يكون مخلصاً ظاهر الولاء لمهد ثم يخلص فى ذات الوقت لمهد آخر  
قام على أنقاض الأول . وقد يصح هذا لو لم تنتثر ثمة ثغرة بين المهدين تباعد أحدهما  
عن سابقه وتضرب بين أنصار كليهما بالعداء والخلاف . فلائى الحزبين كان  
أبو موسى يعيل ! . . . ولدولة من من الخليفين يهب تأييده ! . . .

الجواب الصريح نضحت عنه ذات الخطبة التى ألقاها والى الكوفة ، ذلك  
اليوم بمسجدها ، فى حضرة ابن عباس . إن الدعوة الأخرى التى راققت دعوة  
القيود ونادى بها بين سامعيه . إنه رأى الثانى الذى قوامه : أن يأخذوا من  
قدم عليهم من المدينة فيردوهم إليها . . .

من قدم من المدينة ؟ . . لو قد جرت الأنباء بأن طائفة من خصوم الإمام همت أن تنزح إلى الكوفة أو تزحف إليها بجيش لوسعنا فهم دعوة الأشعري . ولكن هؤلاء الخصوم ، وكلهم لعائشة شيعة حتى الآن ، أتوا من مكة لم يخرجوا من المدينة ، وساروا صوب البصرة دون غيرها من البلدان ، فليسوا إذن من عناهم الرجل . ولو مشيت فرق من الحزبين المصطريين تؤم أرض إمرته لاستطعنا أن نسيخ دعوته على ضوء افتتانه بالوقوف منهما معا موقف حيدة واعتزال ، ولكننا أيضاً لم نسمع قط بنهر جاهر علماً بالعصيان أو شك أن يتخذ من الكوفة ملاذا ودار هجرة أو تأليب . فمن كان إذن أولئك القادمون ؟ . .

ما كان ليكنفى الأشعري أن يحذل الناس عن علي جريا على السياسة السلبية التي اختطها لنفسه لأنه بات لا يرى الجدوى إلا من وراء عمل إيجابى حاسم يقوم به ، ويحض أهل إقليمه على مظاهرتة فيه . وكان هذا العمل وقوفه حجبا حاجزاً بين « من قدم من المدينة » وبين الكوفة يردهم عنها إلى دار خروجهم حتى يجمعوا أمرهم على إمام ! أى إمام ! فليكشف لنا إذن نواياه ، وليبد لنا من سياسته سوائها البغيضة فيدفع عن بلدته أنصار مولاة الدين قدموا وخدم من المدينة ويرددهم أن يلوذوا بحماه . أم يا ترى نعمة غير على قد تنادى بالأياذ بالكوفة وقد كتب إلى أهلها عقب خروجه من حاضرة الإسلام كتابه الذي قال فيه : « إني اخترتكم والنزول بين أظهركم » ؟ . .

فهى إذا سياسة عدا متصلة الحلقات دبرها هذا الوالى العاصى ليصاويل بها أمير المؤمنين . بدأت بالدعوة إلى الاعتزال الظاهر الذى يخفى خلفه العصيان ثم سارت حتى بلغت منه ذروة الجحود والتسكر ، فطوعت له نفسه أن يصد مولاة عن بعض أرض ولاياته ، ويحرم عليه دخولها كأنه طريد . . . فهل ترى أراد الأشعري بدعوته ، وبث سمومها بين أهل إقليمه ، أن يهيب أذهانهم بعد تشييطهم عن الإمام إلى شنها حربا شعواء عليه ، حين تتوافر لدى الداعية الأسباب وتسبح فرص الأيام ؟ . .

دخيلة قلب هذا الباغي يعلمها الله . . . ولكنك تعجب غاية العجب لو كنت تصفى إلى خطبته حتى لتكاد أن تنكر على أذنك ما سمعته . . . أما هو فقد سار وشأنه ، هادئاً في غير استحياء ، ينفث سمه الناقع ، وينفخ في رماد نار سوف تشب عما قليل ، وإن دخانها ليكاد أن يتخلل شعيرات لحيته فيصبغها بالسواد ، لو أنك أوتيت من رأى العين مثل حدة الخيال .

### ٣

في بدء المحنة ، ظل شعب الكوفة مبقياً على هبة أميره . لم يجاهره رجل فيها باستنكار السياسة التي جهد الوالي جهده لإنفاذها حتى الغاية . ولكنه كان إبقاء لا يستجيب لدافع غير ولع الناس بالدعة وإيثارها على الحرب بما هي حقيقة أن تجره من دماء ودموع . أما الولاء فما نحسب امراً بالبلدة كان يضر سواء للإمام . بل ثبتوا على عهدهم منه ، وعلى نظرة الإكبار التي كان يقتضيهما إياها ماضى على ، ومقامه من محمد ، وحسن بلائه في الإسلام ، ومزاياه الخلقية التي يكاد أن يتفرد بها وتؤهله لإعزاز الدولة . والدين ولو أتبع لهم من البدء من يهز عواطفهم الكامنة بالقلوب إذن لاندلعت لهباً وفاضت حكم البركان في ثورته تجتاح أمامها كل ما يعترض سبيلها من دعوات التخذيل وصيحات المشبطين .

ولكن سحرهم من أميرهم دعوته الخلافة ، فما ينكر أحد ولا يكره نداء السلام وقد كاد أبو موسى أن يدخل أذهان الناس داعية سلام ، يبشر بمحقن الدماء وإحلال الأخوة والصفاء في مكان العداء والحصام . وأقبل القوم في البدء يصغون إليه ، وتخدر عقولهم بحديثه الناعم . ولكن الزمن كان من عداته يتربص له ، ويؤخر أيامه ولياليه لسحق خطته ، وردّها في نهاية الأمر شراً عليه ، ففي كل لحظة كانت الحقيقة الخافية وراء معسول اللفظ تتبلج لدهن من الأذهان وتلتهم كرمضة شعاع . وبكل ومضة كان الوالي المتمرد يفقد أذناً كانت من قبل مصيخة لتناديه . ولئن بقى القوم زماناً مبقين على هبة الرجل بينهم لا يردعونه

جهره عما افتتن بالقيام فيه فلا أن مشاعرهم الزارية عليه لم يتح لها المحرك المثير . .  
على أن يوم النكس لم يغب طويلا . طلعت شمس وأبو موسى قد أمن إشراقها  
على أرضه لفرط ما آمن بجذوى دعوته . لم يظن قط أن عصاه السحرية لن تعود  
أفعى حية . . .

كان سلاحه الذى ضرب فى الميدان هو الإعادة ، يتحدث برأيه ، ثم يتحدث ،  
ثم يعيد التحدث ما وسعه أن يعيد . وكان فى هذا عزيز الضريب فلم يكف لسانه  
قط عن التخذيل ، ولم يعل تثبيط الناس . بدا كأن قد وكل بهيبة الإمام ينتقص  
منها ويغرى شعبه بالانتقاص . فلملك لا تلحى الرجل كل اللهى وقد علمت مدى  
إيمانه ببيعة على وبحقه عليه من الولاء والوفاء . غير أن القوم لم يظلموا عند ظنه بهم  
ولم يظل أمامهم صاحب النصح الذى يبصرهم بمواطن السلام ليلتزموها فيحققن  
دمهم أن يهراق . بطل اليوم سحر دعوته . وأخذت غشاوة البصار تنجاب عنها  
قليلا قليلا حتى راحت الشكوك فى نواياه تنتهب الأنفس . وبدلا من أن يصفى  
الناس إلى دعوته الحبيثة فى سكون ويلقفوها إذ هى من لسان صاحب لرسول الله  
أعلم منهم بالحقائق المغيبة ، راح همس الحيرة يتنقل بينهم من فم إلى أذن ، ثم يتبعه  
حديث إنكار ، ثم ثورة الغضب تضطرم فيم تبادلوه من كلام .

وأينع إنكارهم عليه بعد قليل . نفست الصدور الجياشة عن غضبها المكتوم .  
كان لا بد أن يلقي الرجل عاقبة هذا التمويه الذى به غرر بأهل إقليمه لأن جبل  
الزيف مآله إلى انقطاع . وحين وقف ذلك اليوم يردد نفس أنشودته ، لم يكن  
يحسب أن قليلا من الناس ، بل واحدا منهم ، سوف ينأى بسمعه عن شذوه .  
فإذا بثفته تنهار فجأة عندما قام عبد خير الحيوانى يقطع عليه الحديث . آن وقت  
مناقشة هذا الأشمرى الحساب . . . .

قال عبد خير وهو يعنى ما كان من فتنة طلعة والزيير اللذين لا شك كانا  
صاحبى الغنم من وراء دعوة واليه :

« يا أبا موسى . . . هل كان هذان الرجلان ممن بايع عليا ؟ . . . »

قلم ير سبيلا إلى الإنكار ، وأجاب :

« نعم » .

« هل أحدث حدثاً يحل به نقض بيعته ؟ ... »

« لا أرى » .

فصاح به في حنق ولم يتهيب :

« لا دريت . . . وإنا تاركوك حتى تدري ... »

ولكنه لم يشأ أن يبرح مكانه حتى يسد على العامل المتمرد مسالك المعاذير ،  
فأنشأ يبين موقف كل طائفة من المسلمين من هذه المحنة النازلة بالبلاد ، وإنها  
جميعا لتد إليها بسبب من الأسباب ، ولكل دور في غمارها معلوم :

« يا أبا موسى . . هل تعلم أحداً خارجاً من هذه الفتنة التي تزعم أنها هي

الفتنة ؟ ... »

فاستغلق الرد على الأشعري ، ومضى عبد خير يتم الحديث :

« يا أبا موسى . . إنما بقي أربعة قرون : على بظهر الكوفة ، وصلحة والزبير

بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة أخرى بالحجاز لا يجي بها فيء ولا يقاتل عدو . . »

« أولئك خير الناس . . . »

« بل غلب عليك غشك ! . . »

وكان حقاً للبلدة أن تعجب لوالها كيف يدعو هكذا بدعوة لا معنى لها غير  
الإملاء للعصاة في العصيان ، ولذا كثين في النكت . فقد تبين أن انتقاض زعيمى  
الثوار على الإمام لم يكن وليد غيرتهما على صالح الرعية ، ولا نتيجة لازمة لحدث  
أحدثه فحل به خلع طاعته من أعناق الناس ، بل هو ناشئ عن حب التسلط  
الذى سيطر على أنفسهما وعلى بضعة نفر معهما فتنهم الأطماع والمآرب الخاصة . .  
وكانت طائفة من أهل الكوفة تميد بهم مواطنهم ، ولا يستطيعون ثبوتاً على  
ولائهم لأمر المؤمنين بعد هذا التبليل في الآراء ، ولا انحيازاً إلى أخصامه  
المنافقين وإن كانت دعوة الثار التي نادى بها أولئك الخصوم ظلت تخاطب في  
نفوسهم النخوة التي تستجيب مسارعة لنصرة المظلوم . . . هذه الطائفة لم تقدم

مبادرة إلى اختيار جانب من الجانبين ، وإنما بقيت ردحاً بفترق الطريق تصطرع في نفوسها نزعاتها المختلفة . حتى إذا استبدت بهم في النهايه حيرتهم رأوا واجبا عليهم نحو الحق أن يعيشوا من لدنهم فريقا إلى حاضرة الدولة يستقصي لهم ما أحاط بصرع عثمان وأدى إليه في موطنه ، عسى أن يروا بعد هذا إلى أين ينتهى خط ذلك الدم الحرام المسفوح . . .

ولكنهم ما كادوا يشرعون في إنفاذ عزمهم حتى جاءهم الحسن بكتاب الإمام ذلك الذى رسم لهم قصة المقتل ودور كل من دعاة الانتقام فيه ، ونقل به إلى أذهان أهل الكوفة صورة حقيقية لأمر عثمان جعلت « سامعه كمن عاينه » . . . عندئذ هدأت خواطرهم ، ووسعهم تبين السبيل الذى يجدر بهم أن يلتزموه ، فوقف بينهم شريح بن هانئ يقول :

« لقد أردنا أن نركب إلى المدينة حتى نعلم قتل عثمان ، فقد أتانا الله به في بيوتنا . . .

ثم ألم بدعوة أمير المؤمنين إياهم أن يناصروه ، فأردف يكمل الخطاب :

« ... لا تخلفوا عن دعوته أيها الناس . والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه .. »

وكذلك راح التيار يتجه بالكوفة على خلاف ما أراد أبو موسى له من اتجاه وخرج الرجل من داره ، وقد علم بحضر سبط رسول الله ، ينحى إلى المسجد .

التلبية نداء إمامه كان ذلك الخروج ؟ . . بل قد بقى عند موقفه ، لا يحيد ولا يتزعزع عنه . وسوف يرينا ألوانا أخرى من عناده وتشبته بقصده المرسوم . .

ووصل أخيراً منتجع القوم ، مسجد الكوفة ، وقد التأم الناس زمرا حول الحسن بن على وعمار بن ياسر . إن عياه ليفيض بالبشر ، وإن قدميه لتسرعان به صوب حفيد محمد ، وإن ذراعيه لتنبسطان ثم تضمان ابن ذلك الرجل الذى طالما دعا أهل إقليمه للاتقاض عن رسالته ... من عجب أن يجد أبو موسى بقية من عاطفة بقلبه تكفى أن يبدى للحسن كل هذا الترحيب .

على أن لحظة الجمالة ولت سريعة ، فأقبل الأشعري يحدث ابن ياسر في لهجة لم تخل من تهكم وهو يطوف بأمر عثمان :



« يا أبا اليقظان ، أعدوت فيمن عدا على أمير المؤمنين فأحلت نفسك مع الفجار ؟ ... »

فغضب عمار وأجاب :

« لم أفعل . لم تسوءني ؟ ... »

فآثر الحسن عندئذ أن يقطع جبل الجـدال بين الرجلين . وأقبل برقته المعلومة ، على الأشعري ، وبرقيق لفظه يحدّثه بنبوة هادئة لطيفة :

« يا أبا موسى ، لم تثبط عنا الناس ؟ ... »

وتعمل به برهة ، ثم استلّى يقول :

« يا أبا موسى . . والله ما أردنا إلا الإصلاح . وليس مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء ... »

فضاقت بالرجل مكابرتة أو مداورته ، ولم يسمعه إلا أن يخفض رأسه مؤمناً على ما سمع ، وإن وسعه في ذات اللحظة ألا يغفل تذييل جوانبه باستدراك كأنما أبت نفسه عليه أن يسوق رداً خالصاً كله امتثال . . . قال :

« صدقت ، بأبي أنت وأمي . . ولكن — المستشار مؤتمن ... » .

« نعم » .

« سمعت رسول الله يقول : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم . والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الراكب . . . »  
فهتف به عمار :

« أنت سمعت هذا من رسول الله ؟ ... »

« نعم . وهذه يدي بما قلت » .

« إنا قال لك رسول الله هذا خاصة ، فقال أنت فيها قاعداً خير منك قائماً . . . » .

فزلزلت سخريته من عزة الوالي المتعرد . وانبعث رجل بالمسجد من أنصار الأشعري يسب عماراً ويصيح :

« اسكت أيها العبد ! ... أنت أمس مع الغوغاء ، واليوم تسافه أميرنا ؟ ... »  
وكأنما استشعر أبو موسى شجاعته ترتد ثانية إلى صدره بعد مظاهره هذا  
النصير ، فعاود الخطاب :

« . . . لقد جعلنا الله إخوانا ، وحرم علينا أموالنا ودماءنا فقال : يا أيها  
الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان  
بكم رحيمًا » . وقال جل وعز : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم . . . »  
وإنها لدعوة حق أريد بها باطل ما في ذلك مرأ . وإلا فما عسى كان يعنيه  
الأشعري من وراء هذا الحديث ؟ . ومن ذا قتل أميره السابق الذي ما زال يدين  
له بالولاء من بين رجال أميره الجديد الذي يدعو اليوم أن يندب الناس ؟ . .  
وهلا يعلم الرجل هذا الكلام المتكرر المعاد عن التخذيل والقيود ؟ . . إن عمارا  
ليتوثب به الآن غضبه ، وليثور دمه ناراً حامية في سرايينه وهو يلقي السمع إلى  
ما يزجيه صاحب الكوفة للناس من تمويه . ولو أفسح له وقته إذن لقام مثل  
مقامه السالف في وجه هذا المتمرد ، ولصاح به كصيحته بأمس القريب :

« . . . إن أبا موسى ينهاكم ، أيها الناس ، عن الشخصوص إلى هاتين  
الجماعتين . ولعمري ما صدق فيما قال ، وما رضى الله من عباده بما ذكر . .  
قال عز وجل : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . فإن بغت  
إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تنفيء إلى أمر الله . . وقال : وقاتلوم  
حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . . »

هذا هو حكم الإسلام حين تفرق فتنة بين أبنائه ، وبه تكلم عمار ورد على  
إرجاف وإلى الكوفة منذ أيام . ولقد هم عمار أن يعيد تلاوة النص السهاوي  
على أسمع الناس في اجتماعهم ذاك بالمسجد دحضا لزعم واليه ، لولا أن أتيح لهم  
من بينهم من كفاء مؤونة سوق الاحتجاج ، وتناول منه السلاح الذي يحسن  
تصويبه إلى الأشعري للفتون بالحداع . .

أجل ، فقد أقبل في هذه الآونة الحرجة زيد بن صوحان ، الرجل الذي  
سمته عائشة ابنها الخالص ودعته لنصرتها أو للتثييط عن الإمام . أقبل وفي يده  
كتابها ذاك وكتابها الآخر الذي بعث به إلى أهل الكوفة تخذلم ، وإتياها

معاً لحجة قائمة على أن الشيطان على ليس اعتزالاً للفتنة بل انتصاراً وتشجيعاً  
للدعوة الخصوم العصاة . . .

وقام زيد بين الناس فتلا خطاب عائشة إلى شعب بلده ، ثم أتبعه بتلاوة  
كتابها الخاص إليه ، وقال بعد فراغه من التلاوة .

« رحم الله أم المؤمنين ! . . أمرت بأمر وأمرنا بأمر : أمرت أن تقر في  
بيتها وأمرنا أن نقاتل حتى لا تكون فتنة ، فأمرتنا بما أمرت به ، وركبت  
ما أمرتنا به ! . . »

فساد الشعب جوانب المسجد ، وتداول اللفظ بين موافقة وبين إنكار .  
من ها هنا صاح رجل بالمتحدث : « يا عماني ، سرقت بجولاء فقطعك الله ،  
وعصيت أم المؤمنين فقتلك الله ! » . . ومن هناك ثارت فتنة في وجه الوالي  
وناصريه حتى أوشك أن يقتل الناس . وكان أبو موسى بينهم كالضيق ، لا يعرف  
كيف يثبت بمكانه ، ولا كيف يؤدي الرسالة العجيبة التي اضطلع بها . . جاهد  
مراراً ، وكفكفهم مرات ، وما زال صوته يحاول أن يشق له طريقاً بين  
الضوضاء إلى الأسماع :

« أيها الناس . . . أطيعوني . أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب ،  
ياؤى إليكم المظلوم ، ويأمن فيكم الخائف . . . »

ومضى يتابع خطابه وإن أوشكت الألفاظ أن تفرق في غمرة النزاع  
الشوب :

« . . . إنا أصحاب محمد أعلم بما سمعنا . . إن الفتنة إذا اقبلت شبهت ، وإذا  
أدبرت بينت . وهذه الفتنة باقرة كداء البطن ، تجري بها الشمال والجنوب ،  
والصبا والدبور . تسكن أحياناً فلا يدري من أين تأتي ، وتذر الحليم حيران .  
كابن أمس . . . »

ثم اشتد ، وعلا صوته بدعوة التفريق :

« . . أيها الناس ، الزموا بيوتكم ! . . خلوا قريشا — إذ أبوا إلا الخروج

من دار الهجرة — ترقق فنتقها ، وتشعب صدعها ! . . فإن فعلت فلا نفسها ، وإن أبت فعلى أنفسها ! . . . » .

قريش ؟ . . هذا نوع من الدعوة جديد . كأنى بالعامّة حينذاك أمسكوا الأنفاس ، وأرهفوا آذانهم وهم يتدبرون ما يقول . فهي فتنة إذن شبتها قريش ، عليها وحدها أن تصلاها . . الحى المستعلى على العرب وعلى بقية شعوب الأمة الإسلامية بأحسابه وأنسابه آنت اليوم ساعة محنته ، فليقطف العوسج ، وليهو وحده إلى أسحق قرار . . .

## {

أكانت هذه قضية قريش وحدها أم قضية الإسلام ؟ . . .  
أبو موسى طالع شعبه برأى يقف حائلا بينه وبين السياسة العامة للدولة ، ويتنكر للأمن الجماعى فيها . خاطب فى الجماهير عاطفتها نحو طبقة الأشراف وقد لاقوا منها ترفعا وصالفا خلال السنوات العشر الأخيرة ملاء قلوب الناس عليها تقمة وموجدة . فلعله استحضر بذهنه هذه العاطفة وهو يسوق لأهل الكوفة رأيه الجديد ، وظن أنه بها كفى أن يبلغ هدفه . . . كفاه أن يبدى للشعب أنها قضية غرماء ، يتطاحنون فيما بينهم ثم ييؤون فى نهاية الأمر بمغنم أو بغرم لهم وحدهم ، وعليهم آثاره . فما للكوفة من وراء هذا النزاع مأرب . وليس يفيدها إن أكلت المتناجزين جميعاً شرة الحرب الأهلية وقضت عليهم معا أو على أحد فريقهم قضاء لا يبقى منه على شيء . .

بهذا اللون رسم الرجل صورة التناحر ، فألى أى مدى كان رسمه يطابق الأصل ؟ .  
لو أنه كان خلافا بين طائفتين من جمهور الأمة وعرضها لأنكرت عليه الأصول الرعية فى سياسة الشعوب ومبادئ فن الحكم هذه النظرة السكيلة ، فكيف وهو تمرد صريح أعلنه فريق من العصاة على صاحب الأمر الشرعى فى البلاد ؟ . .  
ولكنه خاطب — كما بدا — فى نفوس العامة عاطفتها المتكررة لقريش ،

الزارية عليها ، ليستطيع من وراء هذا الخطاب أن يحنى ثمرة غرسه الذى تعهده .  
طويلاً — ذلك الغرس الذى كانت سياسة الشبيط نواته . فإذا أدبر الناس عن  
قريش بحزبها القاعين في الخلاف الآن ، فتمة حافزله سحر على نفوسهم وسلطان  
تدفعانهم لهذا الإدبار . وثمة من بعد نتيجة لازمة هي قعودهم عن نصرة الإمام ؟ .

إن هذا الأسلوب من التفكير ليكاد أن يرينا في الأشعري رجلاً انتهزاً  
مداوراً يتوسل إلى غايته بأية وسيلة على تقيض ما قر في أذهان المسلمين من  
مذاجته ، أم قد كان ياترى عن غير تدبير كأنه خبط عشواء ؟ . . . . .  
تكون الغفلة وحدها باعته أو أن تعمض العين عما سلف من خطوات الوالى  
في هذا السبيل . . . . . فكلما تقصى الباحث دعوة الرجل اقرب رويداً رويداً  
من الإيمان بأنها خطة محكمة متصلة الحلقات وكلما تراكت في صدره مكونات  
هذا الإيمان بدا الأشعري تحت أضواء تقصيه عدوياً لعلى وإن حاول جاهداً أن  
يضمم العداء خلف نقاب من الخشية على دم الشعب أن يهراق ، أو النأى بالعمامة  
عن البذل من أجل سادتهم الأشراف ، أو تفرده دون سواء بالعلم بالحقائق  
الغيبية التى أطلعه عليها حديث للرسول مزعوم ! . . . . . أيعا حجة ساقها لتأييد دعوته  
كانت تلقى من يحسن الإصغاء إليها بين سامعيه . وأيعا رأى نشره كان حقيقاً  
منهم بالتدبر ثم بالقبول وخاصة إذا داهن به عواطف الجماهير . ولكن الأنفس  
المستريية في نواياه كانت حرية أيضاً أن تتقبل قوله وهي على حذر منه أبلغ الحذر ،  
حقيقة أن ترده وتأباه وهي ترى له مغبة واحدة — لو سار عليه الناس — هي  
انتشار حبلهم ، وإشاعة الفوضى في الدولة الوسيعة البعيدة الأطراف .

على أنه مضى وخطابه ، يكاد أن يحمل القوم حملاً على ما يراه بهذه الدعوة  
الجديدة التى بثها لضرب الفرقة بين صفوف الأمة . وراح يعاود تناديه أمام الجموع :  
« . . . استنصحنى ولا تستغشونى . وأطيعونى يسلم لكم دينكم ودنياكم ،

ويشقى بحر هذه الفتنة من جناها . . . »

فما بلغ من حديثه مبلغه وأوشك أن يبرح مكانه من المنبر حتى صاح به زيد

ابن صوحان :

« يا عبد الله بن قيس . . . رد الفرات عن دراجه ! . . . اردده من حيث يحىء حتى يعود كما بدأ ، فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد ! . . . »  
فبانت البغته في وجه الأمير . وتلفتت الزمر المحتشدة نحو زيد وهو يتم خطابه ،  
ويده المقطوعة قد ارتفعت تشير إلى أبي موسى في إيماءة وعيد .

« . . . آلم \* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون \*  
ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين \* » .

وكانت هذه الآيات التي نطق بها لسان التنزيل أبلغ وصف وأصدق لحالة من  
اختاروا القعود والتخاذل ، وآثروا النأي بأنفسهم عن دفع الفتنة ومنعها أن  
تذيع ، مرتضين من إيمانهم أن يبوئهم مقعد المشاهد دون الانخراط في الجهاد من  
أجل إنقاذ العالم التي سنها الكتاب القدسي ، ومن غير القيام بالدور الإيجابي  
الذي حتمته النصوص السماوية وأوجبه على كل قادر ، التجاريب والحن وحدها  
حك إيمانه .

وبقي الحسن خلال ذلك بمجلسه . الله جنبه حتى اللحظة منازعة الرجل المتمرد  
وكفاه مشقة أن يقهر غلواءه وإصراره ويعفر جبهته المستعلية وخذه المصغر في  
الرغام ! . ولو قد شرع سبط الرسول منذ البدء فيما جاء فيه وبطش بطشه بالوالي  
المشاق لما لامه على الشدة أحد ، ولكنه كان امراً رقيقاً كله وداعة ، يتعرج أن  
يركب العنف ويتوصل به . وما زال يؤثر الترفق ويقدمه على غيره من الأساليب  
حتى في الصق أمر بدولة أبيه وأمسه بحفظ حكمه الذي راحت تنوشه أطماع المنافسين .  
فلقد خرج من ذي قار وإنه ليعلم أن هذه آخر سفارة يوفدها أمير المؤمنين إلى  
الكوفة لاستئثار الناس ، ويعلم أيضاً أن إمرة الأشعري لم تعد لها في العمر إلا  
ساعات ثم ينطوى عليها سجل التاريخ ! . . . نعم ، فهذا قرظة بن كعب الأنصاري  
أوشك أن يصبح صاحب الأمر في البلدة من قبل الإمام بعد أن ضاقت الحيل عن  
رد أميرها المتمرد إلى الجادة . وقد بعث على مع الحلف كتاباً يثبت به السلف  
عن ولايته يقول فيه :

« . . . قد كنت أرى أن تغرب عن هذا الأمر ، الذي لم يجعل الله عز وجل

لاك منه نصيبا ، سيمنعك من رد أمرى . وقد بعث الحسن بن على وعمار بن ياسر يستنفران الناس ، وبعث قرظة بن كعب واليا على مصر . فاعتزل عملنا مذموما مدحورا . . . فإن لم تفعل فإنى قد أمرته أن يباذلك . . . »

فهل من ريب فى أن الحسن كان يعلم من أمر هذا الكتاب ما يعلم قرظة ، ثم رأى أن يقدم الحسنى فى معاملة الأشعرى ثم فى حملة فى النهاية على الاعتزال . . . حقيق بطبع سبط الرسول أن يكون هكذا ترفقه ولو بعث هذا العامل المعن فى العصيان وفى الإساءة إلى أمير المؤمنين ، وحقيق أيضا به ألا يشتد فى طلب نصرة أهل الكوفة بحق ما يخوله تمثله الحاكم الأول للدولة وقيامه بتدبير الأمور باسمه . ولكنه فيما يبدو جنح للهوادة ، ورأى أن يترك للناس تدبر الأمر وهو يؤمن أنهم سوف ينهضون رويداً رويداً لتأييده عن اقتناع وإيمان ليس عن خشية وإذعان .

وكذلك انكشفت خبيثة الأشمرى . فلم يغن عنه شيئا تعلقه عواطف الجماهير بل انتكث عليه خيط تدبيره . وإذا صوت ابن صوحان يشق طريقه إلى الآذان ، رافعا ينادى فيهم الواجب والحق وحمية الرجال :

« سيروا إلى أمير المؤمنين، وسيد المسلمين ! . . . انقروا إليه جميعا تصيخوا الحق . . . » .

وقام على أثره القعقاع بن عمرو ، هادى النفس يحدشهم بصوت العقل دون صوت الحماس :

« أيها الناس . إنى لكم ناصح ، ولأقولن قولاً هو الحق . . . إنه لا بد من إمارة تنتظم الناس ، وتزع الظالم ، وتمز المظلوم . وهذا طى يلى بما ولى ، وقد أنصف فى الدعاء فإنما يدعو إلى الإصلاح . . . »

وتحدث بعث قولهُ أيضاً سيجان ، ثم أردف يقول :

« . . . هذا أمير المؤمنين يدعوكم لينظر فيما بينه وبين صاحبيه . وهو المأمون على الأمة ، الفقيه فى الدين . فمن نهض إليه فإننا سائرُونَ خلفه . . . »

ثم تكلم من بعدهم كثير حق كاد رأى أن يجتمع على النصرة والنهوض

في تأييد الإمام . وأولئك الذين لم يكونوا من أمرهم على بينة ، متأرجحين بين القعود والتلبث حتى تنقشع غيمة هذا التبلبل في الآراء ، ما عتموا أن استجابوا للدعوة ، وساروا من كل صوب ، ينهأون للخروج . . قيل لعدي بن حاتم : « ماذا ترى ، وماذا تأمر ؟ . . »

فأجاب :

« ننتظر ما يصنع الناس . »

فلما أخبره قومه نبأ الحسن وما دار بمسجد الكوفة مما تحدث به أولئك الرجال ، لم يتردد في المسارعة إلى التلبية وقال : « نحن سائرون ! . . »

على أى حال لم يعد ثمة شك في تحول التيار إلى غير ما اشتبه الأشعري . وما موقف عدي إلا صورة من موقف غيره كثيرين . ولكن أبا موسى كان — فيما يبدو — شديد الثقة في انتصار تثبيطه ، شديد الإصرار على ما هو عليه ، بالغ العناد . خفي عنه أن تخذيله إلى زوال ، وأن توسله إلى هدفه بشتى المعاذير لم يعد يجد له طريقا إلى أذهان الناس ولا إلى قلوبهم على السواء . وإذا كانت كل هذه النذر البادية خلال أحاديث أصحاب الرأي في الكوفة لم ترده إلى الصواب ، فهو إذن حقا مشاق ، بادي الغل ، كما نعت هاشم بن عتبة يوم أبلغ نبأ سياسته إلى الإمام ! . . .

ونهض الرجل لا يبالي الآن بعاطفة الجمهور ، ولا بهذا الإجماع الذي وحد بينهم جميعاً صفا واحداً خلف على وعلى وفق ما أراده من شعبه . . نهض ثانية يعاود حديث التخذيل كما نما لسانه ليس يحسن من الألفاظ سواء . . فأى شيطان ياترى تلبسه وقاد خطوه ؟ . . . وأى معاملة حقيقة بأن تهديه خيرا من ترفق الحسن وطول صبره عليه ؟ . . غير أن من النفوس البشرية ما يزيد الحسن شموسا وشكاسة . وكان أبو موسى من هذه الشاكلة التي لا تستجيب للين ولا تسلس قيادها لغير الشدة والقهر . ولو صدقت نظرة في امرئ لكانت نظرة الإمام لهذا الوالي هي أصدق النظرات . فقد كان يرى الخير في أن يخلع عنه إمرة الكوفة



فتستقيم له بها الأمور لولا أن رده الأشر النخعي عن عزمه وهو مخدوع في ولاء الرجل وإخلاصه . ولو قد عزله الإمام منذ البدء لتجنب كل هذه المناورات ، ولبقى أمامه وقته ممدودا يصالح فيه شأن مناوئيه أو يدفعهم بسيفه قبل أن تستفحل فتنتهم ، وبدلا من ضياعه في استصلاح نفس الأشعري الشارد الحرون . . .  
ولكن أوان الترويض فات ، وبقيت لحظة القهر والعنف معلقة كالسيف المرهف فوق رأس المتعرد . فمن عجب أن يكون شفيعه في البدء هو محاصمه الآن وجلاده الذي لا يلين . . . إنه الأشر ، وسيعلمن الأشعري نبأه بعد حين . . .

٥

الأشر تقاسم نفسه الندم والحجل والغضب المهتاج . فالأنبياء ما تنى تأتية من الكوفة فتعد في رقعة أسفه ، ويرفع بصره متردداً إلى عيني الإمام فيقرأ فيهما من اللوم ما يزيد شعوره بالحجل حتى ايسارع بالإغضاء ورد نظراته عنه . وهل كفت الأخبار لحظة عن حمل تقاعد الأشعري وما أخذ به جنانه ومنطقه من خذل علي وحض أهل إقليمه على هذا الخذلان ؟ . . . كلما مضت الرسل ثم آبت من البلدة بغير أنصار ولا عتاد كانت أوبتها هكذا تحز في قلب الأشر وتكاد أن تفريه . وكان دائماً يستشعر غب عودتها خاوية الوفاض مما ذهبت فيه ، بمثل طعنة النصل تمزق فؤاده ، ومرارة العلقم على شفثيه . فلقد خانتته نظراته في دخيلة الأشعري كأنما ضلت في منعرجاته الملتوية فغاب عنها غشها المستور الكامن في غورها السحيق . وأخطأه أيضاً توفيقه حين أحسن الظن بصاحب هذه الدخيلة فأمن له ووهبه ثقته . تبدت له حقيقة هذا الرجل على صفحة الغيب لما استشفع له لدى علي ، ولما أبقى عليه إمرته ، بل لعله كان يبوئه مصيراً يجعله أمثلة بين الخونة وناكبي العهود والمتنكرين للجميل . ولكن القدر سبق على لسانه كما شاء إلى ما شاء ، فظلت الكوفة ، بشفاعه الأشر وحدها ، تحت إمرة الأشعري ، ترد دعوة الإمام وتلوى عليه أمره الكرة بعد الكرة ، وتوفي بالدولة على التمزق . . .

ما أشق على نفسك أن ترى موثلاً ثقثك يتنمر لك ، ويستجيب لنقيض ما آمنت أنها مستوجبة عليه . لكأنك في هذه الحال حاضن ثعبان كادت تغوله قرّة الزمهرير فلما استشعر الدفء بين رديك ذكر طبيعته الخوانة فدنا به يحزيك عن حسنك بنهشة الهلاك . . . .

يمثل هذا كان الأشر يحس ، وبأفدح منه وأبلغ كانت تتعذب نفسه . ليألم وليشقى كل لحظة ليل وكل ساعة نهار . ولئن كان بعض شقوته مرده انتكاث حدسه وخيبة ظنه بذلك الأمير الجاحد المتمرد ، فبقيتها من أجل على ، صاحب الطاعة على المؤمنين ، الذى عز عنه فى الكوفة النصير ، ولقى العصيان والخيانة على يد واليها العالى فى المشاقة والشنآن حتى أبعد الحدود . . . . إن الندم والحجل والغضب العاصف لتعاور كلها نفس الشفيع وتفسد حياته عليه . وإنه ليقضى الثوانى واللحظات متقلّباً من شعوره على مثل الجمر ، يوجمه أن تعجز الوسائل عن هداية العاصى إلى محجة الصواب ، فما عاد يصغى لغير صوت هواه وإن زارت حوله نذر الأحداث . الأشر يرى نفسه عن هذا الموقف الذى التزمه الأشمري أول مشول . وإنه حقاً لكذاك . وكم جهد ليتحرر من تبعته تلك بإصلاح الأمور لمولاه فلم تجده محاولاته . حتى إذا رأى الوقت يتسرب من بين يدي سيده وأوليائه كتسرب الماء ، وخشى أن تزيد الأحداث اضطراباً فيعسر استنباط دواء لدائها العياء ، بادر فاستلهم عزمه ، وتدبر أمراً وأبرمه ثم طوى عليه نفسه ، ومضى إلى الأمام يتحدث إليه :

« يا أمير المؤمنين . . . إني قد بعثت إلى الكوفة رجلاً قبل هذين ، فلم أرمه أحكم شيئاً ولا قدر عليه . وهذان أخلق من بعثت أن ينشب بهم الأمر على ما تحب ، ولست أدري ما يكون . . . »

وتأهّل يرى كيف يكون جواب مولاه حتى سمعه يقول وإن فى نبراته لرنّة عتب وملامة :

« يا أشر ، أنت صاحبنا فى أبى موسى . . . »

« نعم . فإن رأيت ، أكرمك الله يا أمير المؤمنين ، أن تبعثنى ، فإن أهل

الكوفة أحسن شيء لى طاعة ، وإن قدمت عليهم رجوت أن لا يخالفني منهم أحد ... » .

« الحق بهم » .

فتحقق له ما أراد . الآن سوف يستطيع أن يصلح ما أفسد ، ويجرد الأشعري من الثقة التي لم يكن لها أهلا تم يجرحه غصة خذله وعصيانه .  
وكان الناس ، إذ دخل البلدة ، مجتمعين بالمسجد ، يصغون تارة إلى دعوة واليهم ، وأخرى إلى أقوال الوجوه والسادة ورجال الشعب الذين راحوا يتناوبون الكلام . وكان الحسن جالسا بينهم ملقياً سمه ، واسع الحلم كمهده .  
وعمار قد غالب طبعه التأثير ومزاجه الحاد فاستسلم صابرا لما يدور حوله وقد بدت بشائر التفاف الناس حول على وانفضاضهم عن الأشعري . .

وازدلف الأشر فأتخذ ، قماماً له بين الناس ، يبين لهم من الأحداث السالفة ما خفي عنهم وغميت عليهم دوافعه ومثيراته . وكان من الطبيعي أن يبدأ بسوأة الجاهلية يهتكها ، ومآثر الإسلام ومحامده يسرد منها وينتظم آلاء في مثل عقود الزهور ذات الريحان . . . . وكان من الطبيعي أيضاً أن يطوف آونة بخصومه مناوئ الإمام ، وأخرى بأخطاء عثمان ، ولكنه حين بلغ هذا الشوط من حديثه لم يعدم بين الجوع صوتا ينبى له فيزجره ويصيح :

« قبحك الله ! ... لأنت كلب خلى والنباح ! ... »

فتقبلها وسكت ، لا لأنه خشى على نفسه مغبة ما قد يثير زاجره الغاضب ، بل لأن القوم أعفوه من مشقة الجواب . فقد ثاروا بالصائح ، وهما أن يعصفوا به .

عندئذ تسلل الأشر ، وترك الناس وما كانوا فيه . إن أمامه خطة لا يحتمل إتخاذها المكث والتريث ، وما للتراشق بالألفاظ والمهاترات جاء ! ...

وغادر المسجد وكان له بالبلدة مكانة مرموقة ، وبنفوس كثيرين من أهلها نفوذ . فما التقى بطائفة من الناس في ناحية إلا راح يحدثهم حديثه فلا يلبثون أن يميلوا إليه . كلما مر بجماعة استهوى منها نفرا ، أو بقبيلة استلحق بضعة

من رجالها بموكبه ، أو بحشد دعاهم أن يتبعوه . إن له سلطاناً قهاراً على أبناء الشعب جعلهم يسلسون القياد . . .

وعندما كان أبو موسى يماود تخطيطه وهو على المبر ، وتثور به آونة فئحة من سامعيه أو تؤيده فئحة ، كان الأشمر يزحف بكتيسته الشعبية على دار الإمارة ، وهو يهتف بمن خلفه :

« اتبعوني أيها الناس . إلى القصر ! . . . »

لن تجد أقرب إلى نفس الدهماء والعامّة من دعوة تاديهم للفض من هبة رجل يعلوهم قدراً في النظام الاجتماعي الذي يكونون قاعدته . فانبرم بحالهم حافز للتمرد على الأوضاع ، دافع إلى استباحة الفوارق . وكفى بهم أن يجدوا فرصة تملو بهم فوق « العالي » وتجعلهم مالكي مصيره . فهذا نصر قلما يتاح مثله ، ولن يتاح ، إلا بهدم الحواجز بين الطبقات وإنها لعصية إلا على معول ثورة أو شغب أو اضطراب بل هو ثأر من التميز الذي رسب بهم في قاع الدنيا ، وطفا إلى الحافة بمواطنيهم من الأشراف والسادة . أو هو في حقيقته تنسكر لحكم الأقدار ، انتقام منها إذ أقرت هذا التميز وجعلته سنة بين الناس . . . ولن تجد قط امراً في هذه الحياة راضياً بقسمه ما دام يرفع عينه فيرى غيره يتبوأ دونه مكانة عليّة من العلم أو من الجاه أو من السلطان .

فلعل هذه العاطفة كانت بعض عون الأشتر عند الجماهير يؤيدها ما كان من ولائها للإمام . ذلك أن الشعب الذي بقي هادئاً طويلاً ، يسمع بدعوة عاملة التكرار فلا يحرك أصبعاً أمام وجهه ، أقبل مسرعاً يلوذ بدعوة الأشتر ويتعذر خلفه صوب القصر كما يتعذر السيل . . . عز من قبل محرك العاطفة الناعمة والميول الحبيسة وها قد جاء المحرك المثير !

ولم تستعص عليهم الدار ، ولا استطاع أن يردم عنها جند أبي موسى وغلثاته وما أسرع أن أضحي القصر لقي مستباحاً تحت أقدام الغيرين وتفتحت أمامهم مغاليقه ، وأصبحت الكلمة العليا فيه للأشتر من خلال الجماهير . . . وأسرع بعض الحرس إلى المسجد يحملون إلى سيدهم نبأ نكته . .

قد كان إذ ذاك يحسب نفسه سيد الموقف ، له الحول والطول وما يظاھرہ أن يأمر فيطاع . نداء الإمام ، وحديث الحسن ، وخطب الخطباء وضعها كلها دبر أذنيه وسد عنها سمعه . أما دعوته فهي الدعوة ، وأما قوله فهو الفصل وليس لأحد أن يعترضه من قبل ومن بعد . وحين دخل غلمانہ كان متسماً المبر ، يكرر كلامه الميثبط ، ويسرد سياسته عوداً على بدء . بلغ به غيه مداه ، ولج في العناد والمكابرة ، حتى أعي الحسن الحليم الرقيق أن يستمسك بصبره فمضى يصيح به في ثورة وهدير :

« اعتزل عملنا أيها الرجل ، وتنج عن منبرنا لا أم لك . . . »  
ولكن الحرس حسم النزاع . فقد أسرع منهم رجل إلى الخطيب ، مال على أذنه وهمس فيها بشيء جعله يبرح مكانه في التوكلن أصابه مس لا يلوى ولا يتريث ، ويغادر المسجد وإن بخطوه لمثل نزع النشوان . . .  
وعجب القوم ، وساد بينهم لفظ الحدس والتخمين . فما عسى قد أصاب الأشعري قبل خاطره ، وأزعجه كل هذا الإزعاج ؟ . لا أحد يدرى ، ولا يستطيع أمرؤ منهم أن يمتد به فكرة فيتنبأ بحقيقة الأمر . ولكن القصر ليس يبعد . وصوت المهرج فيه قد أخذ يتسلل قليلاً قليلاً إلى أسماع الناس بمنتهجهم في المسجد . . . وراح الخبر يتكون في قلبه الأخير حرفاً بعد حرف ، وكلمة بعد كلمة ، ويحمل فرحة طروباً إلى القلوب الحمية ، لقي إذن هذا المنايد جزاءه فقشر عنه سلطانه . . . وعاد كما بدأ — إلى حين — فرداً مغموراً بدون خطر ، يمر به التاريخ فلا يلتقي عليه عينه ، ولا يتلصك — إن رآه — لحظة عن المسير . . .  
وهز عمار بن ياسر رأسه ، كأنما يتدبر حكمة الله التي أبرمت نهاية الطاغية ، وقوضت قلعة اعتداده ، ودكت دكا جبروته . . . هز رأسه وقد انزاح عن صدره ذلك الكابوس ، وقال في هدوء وإيمان :

« . . . غلب الله من غلبه . . . » .

٦

بقيت له الذلة ! . . . الرجل الذي كان جباراً مريداً لا يصغي لصوت خيار  
مواطنيه وأرجحهم رأياً غدا تعزو جبهته ويستذل للغواء . في دقائق قليلة  
بات قصره مرتاداً لمرض شبيه ، وراحت هيئته في أكفهم ملهاة . . . . عندما تبع  
غلماناه إلى البيت ، حسبها فلتته غضب ندت بها نفوس الدهماء ، ولن يلبث ظهوره  
بينهم أن يبتعث في قلوبهم الخشية منه ورهبة سلطانه . ولكن ظنه خانه لما توسط  
القصر ، ورأى كيف همت الجموع أن تعصف به ، بعد أن حكمها قانون الثورة ،  
ولم تعد تخضع لشرعية سواه . وحين نجا من عبث الغيرين ، واستطاع أن ينفذ  
من بينهم إلى مأمن ، بدا له الأشر النخمي ، شفيع الأمس وديان اليوم ، يفيض  
وجهه بعفته ، وتتقد من غضب عيناه . وفي انكسار تقدم الأشعري ، على سباه  
من خزيه ومن هزيمته آثار ، وإن بنفسه للاعجا يوشك أن ينطق بمسكته  
لو أوتي اللسان . ولكنه قرأ العزم في قسبات مالك مصيره ، ورأى العنف الذي  
يزلزل القلب . . .

وصاح به الأشر ، في نبرة كصوت القدر ، تقطر حقدا ومرارة :

« اخرج من قصرنا لا أم لك ! . . . » .

فتردد برهة . يا ترى ألا يستجيب هذا الرجل تارة أخرى لداعي المروءة  
كما استجاب بالأمس ، فيمفرو ويشفع ؟ . .

غير أن الأشر لم يدعه وأحلامه ، بل عاود ثانية زئيره :

« . . اخرج ، أخرج الله نفسك ! . . فوالله إنك لمن المناقين ! . . »

فبارحته على الأثر كل سجاياه ، وبقيت له الذلة ! . . وأغضى الطرف وهو  
يجهد ليجد مخرجا من موقفه الضنك ، ثم نطق بصوت واهن ضعيف :

« فأجلني هذه العشية . . . »

« هي لك ، ولا تبيتن في القصر الليلة . »

وكان هذا غاية ما يطمع فيه ، فما يسمه البقاء بين ظهرائي « رعيته » بعد هذا الهوان الذي أصابه منها . وليس يأمن — إن بقي — أن يكون فريسة للسخرية والتهكم . . . بل هو لم يلبث ، ولما تلتته بعد مهلة الأشت القصيرة ، أن أضحي نهباً لما هو شر من السخرية وأفدح . فقد اجتاحت قصره زمر من العامة ، كأمواج البحر هدفها مال واليها المغلوب ومتاعه . جاءت تستبيح ما يملك وتهم أن تحتلبه كأنه غنيمة حرب ! . . .

ولكن الأشت لم يتنكر لعدوه المهزوم لم ينسه غضبه المروءة ونخوة الرجال ، فوقف في وجوه الجموع الهائجة يردهم عن القصر ، ويحول بينهم وبين ما ابتغوه : « إني قد أخرجته أيها الناس ، فكفوا عنه » .

فارتضوا من نصيبهم في أسلاب الأشعري بالنصر عليه ، وبقض سياسته النكراء . وكفاهم الآن غنيمة أن قد هزموه في نهاية الشوط بعد طول اضطبار ، وحرروا رقباه من سلطانه . . .

وهدأت حمدة الأمر بعد قليل ، وبدأ العقل يسيطر ثانية على نفوس الجمهور . . . وكان اجتماع المسجد ما زال منعقداً ، والحديث فيه هذه الآونة يؤيد علياً أتم تأييد ، ويدعو الناس بدعوة سفيريه . . .

عندئذ قام الحسن يتحدث إلى الناس ، وقد شهد إجماعهم على نصرة أبيه : « أيها الناس ، إني غاد . فمن شاء منكم أن يخرج معي على الظهر ، ومن شاء فليخرج في الماء . . . »

فما أصبح الغد حتى التأمت الجموع ، وعجت الكوفة بالنفار آلافا كثيرة ، يستبقون الطريق صوب ذي قار ، على مطيهم فريق وفي السفائن فريق . قد تأمر عليهم وجوههم ممن شهدنا ولائهم أثناء تشييط أبي موسى ، واستمسكهم بعهد أمير المؤمنين . وكان فيهم غير الأشت ، القعقاع بن عمرو ، وزيد بن صوحان ، والهيثم بن شهاب ، وحجر بن عدي ، وسعد بن مالك ، وعدي بن حاتم وغير أولئك ومن أشباههم كثير . . . وحين غدت جموعهم على ذي قار تلقاهم الإمام في طائفة من خلائه منها ابن عباس ، فرحب بهم وأحسن اللقاء . . .

وكان لا بد أن يبين لهم سياسته ، ليكونوا على بينة مما سينهضون فيه .  
إن قصة الزبير وطلحة وعائشة بالبصرة قد انتهى لا ريب نبأها إليهم وعلموها  
كما خطها مداد الحقيقة ، من كتبه مرة ، ومن رسله أخرى ، ومن السنة الرواة  
مرات ... ولكننا لا نحسب أحداً رسمها فأجاد الرسم لم يغفل منها هنة يسيرة  
كمثل ما رسمها الإمام في قول له :

« ... نخرجوا ينجرون حرمة رسول الله كما تخرج الأمة عند شرائها ...  
متوجهين بها إلى البصرة ، فحبسا نساءهما في بيوتهما ، وأبرزوا حبيس رسول الله  
لها ولغيرها ، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة وسمح لي بالبيعة  
طائعاً غير مكره . فقدموا على عاملي بها ، وخزان بيت مال المسلمين ، وغيرهم  
من أهلها ، فقتلوا طائفة صبراً ، وطائفة غدرآ ... فوالله لو لم يصيبوا  
من المسلمين إلا رجلاً واحداً معتمدين لقتله بلا جرم جرء لحل لي قتل ذلك  
الجيش كله ... »

ومع ذلك فقد كانت نفسه الصافية تميل إلى الصفح والغفران ، وتود  
لو استطاعت أن تمنح بعدوه إلى صلح يحجب الإسلام وأهله مصارع السوء ، ويميد  
الأمة كتلة موحدة ... وكما تحدث في صحبه قبل خروجه من الربذة إذ سأله  
ابن رفاعه عن موقفه من العصاة ، فكذلك تحدث لأهل الكوفة عندما تلقاهم  
بذي قار ، بنفس المعنى ونفس الساحة التي تأبى عليه أن يحتج غلا بقلبه على  
متنرد أو عدو مبين . وقف يخاطب جموعهم ولما يستقر بها المقام ، فقال :

« يا أهل الكوفة ... أتم ولتم شوكة المعجم وملوكهم ، وفضضتم جموعهم  
حتى صارت إليكم مواريتهم ... وقد دعوتكم لتشهدوا معنا إخواننا من أهل  
البصرة ، فإن يرجعوا فذاك ما نريد ، وإن يلجوا داويناهم بالرفق ، وبإينام  
حتى يبدؤنا بظلم . ولن ندع أمراً فيه صلاح إلا آثرناه إن شاء الله ... » .

فهذه شيمة رجل حريص على الوحدة حريص على السلام . ولو قد صفت  
نفوس شائبة لأقبلوا سراعاً يفيثون إلى طاعة أنكروها وبيعة تقضوها ، إبقاء  
على دينهم ودنياهم . فما كان لينفس عليهم شيئاً قط . ولكنهم شاءوا أن يشغبوا



عليه أمره فحقت عليهم شريعته المثلى : « إن شغب شاغب استعتب فإن أبي قوتل ! » . . . وجرحوا إمامته ما استطاعوا سبيلا إلى التجريح وهم يصطنعون من الحجج والمعاذير ما لا يستقيم والواقع المشاهد . زعموا تارة أنهم أقروا بها كرها ودون اختيار فألزمهم الحجة بفيض من بيان البرهان أغضوا عنه عيون الأذهان ! . . . وطورا زعموا أنها بيعة غابت العامة عنها وما عنوا إلا الأمصار بل — أغلب الظن — قد عنوا الشام . ولكن برهانه في هذا حاضر ، وليس يعتسفه اعتسافا ، إنما يسوقه المنطق السليم الذي لا يلتبس بهوى ولا غاية : « فلئن كانت الإمامة لا تنعقد حتى يحضرها عامة الناس فما إلى ذلك سبيل . ولكن أهلها يحكمون على من غاب عنها ، ثم ليس للشاهد أن يرجع ، ولا للغائب أن يختار . . . » .

إن أولئك الذين قاموا يناجزونه لم يتسلحوا قط في نزاهم بكلمة حق تؤيد قضيتهم وإن تسلحوا بعدة من حديد . . . وكانت قضيته من قبل ومن بعد ، بادية الرجحان بينة اليسر ، ليس فيها ظل من شبهة . أمامهم فقد تخبطتهم الغايات ، وتنازعته الأغراض والمطامع ، فركبوا إلى تحقيقها الصعب والعسير . ولو أريد لهم نعمت يطابق حالمهم فلا يخطئه ، لكان النعت كلمات الإمام حين أراد أن يبين للناس أى الناس حربهم ودفعهم عنه بالعنف حلال :

« . . . ألا وإني أقاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذي عليه ! . . . »

وقد ادعوا ومنعوا في آن . وأسرفوا طويلا في المنع وفي الادعاء . ومع ذلك فلم يبادروهم بأداة حربه قبل الاستعتاب وإفساح المدى أمامهم ليرجعوا عن القى . وعندما تهيأت له أسباب القمع والردع وتجهشت الجيوش تحت ألويته ، استمسك أيضاً بصبره ، وبعث إلى القعقاع بن عمرو — إذ هو صاحب لرسول الله أولى بأن يلين له العصاة — ليستسفره إليهم قبل أن تعصف بهم كتابته . . .

قال له يأمره أن يرد البصرة فيجهد وسعه أن يتألف بها العصاة عسى أن ينشب الله به الأمر وتجتمع الأمة وحدة منيعة بعد طول تفرق واختلاف :

« الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما إلى الألفة والجماعة ، وعظم عليهما الفرقة » .

فمضى الرجل يتأهب لهذه السفارة التي ليس أكثر منها بركة على الإسلام لو أنت بما رجاه الإمام . وحين أوشك أن يبرح ، وكاد أن يقطع أولى خطوات المرحلة صوب هدفه ، أقبل على عليه يسأله :

« كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ . . . » .  
فأجاب :

« تلقاهم بالذي أمرت به . فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى اجتهدنا الرأي ، وكلناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي . . . »  
فسره جوابه ، وطاب نفسا بحكمته وأثنى عليه :

« أنت لها . . . »

وانطلق القمقاع . . .

غير أنها لم تكن أولى السفارات التي بعثها لذلك الحزب ولا آخرها . بل زحرت الروايات بأشياء لها كثيرة ، منها رسل ومنها رسائل ، راح أمير المؤمنين يسوقها إلى الصاحبين وأم المؤمنين ، يرجو بها وجه الله وصالح الأمة التي ضربت بين صفوفها معاول الهوى الهدامة . كم من مرة لوح لهم براية الأمان فلم يقبلوا منه ، وأمعنوا في المشاقة واللجاج غاية الإمعان كأنما أغرتهم سياحته بالعناد . وحين حسب أنه ملاق عند عائشه ما أخطأه في نفسى صاحبها من التبصر ، ودعاها أن تعود عما جاءت فيه ، وتلزم حجابها وبيتها ، لم يكن يظنها تكابر كمثلها حتى أتاه خطابها الذي لم تزد فيه عن قولها العجيب :

« جل الأمر عن العتاب . . . »

فلو أن رجلا غيره قام مقامه لما تريت بهم كل هذا التريث ، ولما صبر عليهم صبره ، ولقضى فيهم قضاءه الواجب منه في غلاة العصاة . ولكنه بقي يتلسس الفرص والسوانح ولا يتبين مظنة للتفاهم إلا نهزها عسى أن يتجنب أداء ذلك الواجب الكريه . وكان يعلم أن في صفهم طائفة لن تستجيب قط لدعوته السمعة

بل قد تثير بقية الحزب على صم آذانهم والمغالاة في العناد والغى — تلك من  
آمنت أن سيخطئها النفع الدائى لو التزمت الجماعة وأقلمت عما غدت فيه من  
خلاف . ذلك أن أفرادها قد استيقنوا أن الآراب لا تسير فى ركاب الإمام ،  
وأن من ألقى إليه بالزمام حقيق أن يتجرد من أطماعه وما لئله هذا قاموا يشبون  
نار الانقسام ...

ومع ذلك فهو على بينة منهم ، ليس يحسن بهم الظن على الإطلاق . وإنما  
ود لو بلغت دعوته آذان الفئة التى تلوذ بالحكمة لعلها تستطيع أن تقهر هؤلاء  
على تقبل الصلح ، وعندما بدا له ذات يوم أن يستسفر ابن عباس ، تخير له من  
يبث دعوة الوفاق فيه إذ هى أخرى أن تلقى عنده مالا تلقى لدن سواه . . .  
قال له إذ ذاك :

« يا ابن عباس . . لا تلقين طلحة فإنك إن تلقه تجده كالشوار ، عاقصاً  
قرنه ! يركب الصعب ويقول هو الذلول . . ولكن الق الزير ، فإنه ألين  
عريكة ، فقل له : ثم يقول لك ابن خالك : عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق ،  
فما عدا بما بدا ؟ . . » .

تلك كانت نظرتة إلى الأمور ، وغبرته على صلاح شأن الإسلام وأهله ،  
ما توسم فى ناحية خيراً إلا بادر يلتمسه حيث كان . . . وهذه فراسته ،  
صدقت دائماً فى الرجال ، ولنا على صدقها فى الزبير ، من قبل ومن بعد ، أكثر  
من برهان . . .

دعوة إلى السلام

إنه حديث ليل ، مضت عليه الليالي . . . همست به رؤيا عابرة . حين غفوة ، إلى خاطره فصورته له بعض المستقبل . وعندما فتح عينيه ، واستقبل بها ضياء النهار ، تواردت الحيرة على ذهنه مع الشروق . فمن ياترى ذلك العليل النائم الذى أطلعه الحلم ؟ . . . ومن هذه المرأة التى اقتعدت عند رأسه مكاناً تستطيع فيه أن تحميه ثم لم تفعل ؟ .. ومن كل أولئك الناس المتدافعين نحو المريض وفى عيونهم علام الغدر والشر السافر ؟ . . .

ليس يدري « كليب » . لم يكن ذا علم بتأويل همس الليالي فى ضمائر الغفلة . ولو كان لعلم ، ولراى الأحداث — قبل وقوعها — تجري من بعد فى واقع الحياة بمصداق ما جرت به فى الحلم الغامض . . .

ومضى من حيرة يقص رؤياه ، ويلتمس لها الفتيا الكاشفة عند أصحاب المعرفة والبصائر . ولكنه لم ييؤ بغير عجبهم منها ، وبقيت له حيرته . وراح طويلاً يستنبي من يعرف ومن لا يعرف من الناس ، حضرم وباديهم ، فى حله وترحاله ، فى سفره واستقراره ، فما أجدى عليه السؤال ولا الاستنباء . . . حتى إذا هم أن يجعل الحلم دبر تفكيره ، وبدأت تنأى به الشواغل ، بادر القدر فجاء بفتياه . . . عندئذ قال له الناس :

« رؤياك يا كليب . . . »

وكان ذلك حينما صرع عثمان ، فهذا هو المريض العليل ، ومن غاله وأورده حقه فأولئك ذوو الشر السافر الذين أبدتهم الرؤيا يتدافعون بغدرهم إليه ولا تردم عنه — وإن ملكت — صاحبه . . . أما المرأة فظلت بعيدة عن عين كليب وعن رأى خاطره ، بنجوى كالسر . تلوح صورتها دائماً فى خياله ولا يدري من هى ولا ما هو « شخصها » فى النساء .

وسارت به الأيام . وأمعنت مواكبها سيراً فى درب الأحداث . وانقضى عهد وجاء آخر على آثاره . وتبدلت بحال حال والمرأة خفية عنه .

ثم انتشرت عند حد الأفق غيمة تكاد أن تحجب وجه الشمس ، مدت منفذ البصرة . فلما تبينها الناس رأوها كتائب مجيشة ، أقبلت من البلدة الحرام يسوقها الزبير وطلحة وأم المؤمنين . وليس بجيئها إلا لخلاف رفعت لواءه على الإمام ، ومقدمات غارة تهم أن تشنها على سلطانه .

وقع من الأحداث بالبصرة ما وقع . وناشتها نكبة تجر نكبة نظم أمرها العصاة . . ثم تكلموا بمنطقهم فلم يشفوا عجب كثيرين من أهلها بذلك المنطق وما احتوى من تبرير . بل اشتبكت على سامعهم الأمور ، واختلطت خيوطها أنكاثا تاه بينها خيط الحقيقة وضلت عنه النهى والعقول .

كان الحذر وحده سبيل القوم إلى التعرف على الأسباب الخفية وراء هذا الغزو وهذا الخروج ، وطالما قادهم إلى ظلام . وكانت النفوس القلقة تلعب بها الحيرة آونة والريية آونات ثم لا تأمن إلى قرار . فما يسمها الاطمئنان إلى ذرائع الغزاة ، وليس تستطيع الركون إلى حججهم وقد أبدوا وجها من الأمور لعل غريهم أن يبدى سواء فلا يخالف به صورة الصواب . فكل حجة حجة ، ولكل بيان بيان .

وكذلك قد عزم الناس بالبصرة أن يوفدوا من لدنهم سفيراً إلى مقام الإمام ، يعلم منه رده على منطق الخصوم ثم يسير عليهم من بعد أن يزونا القول والقول ، ويقرعوا الرأي بالرأي فيظهر لأيهما الرجحان .

وقالوا إذ ذاك لكليب الجرمي :

« إن هذا الأمر اختلط علينا يا كليب ، فامض إلي على وأصحابه فسلهم عنه . . »

فانطلق وصاحبين له .

لم تكن الشقة عليهم بعيدة ، وليست قط على ناشد حقيقة وإن طالت بها المراحل والمسافات . فما لأشهى من حق وأقرب منه على النفس الصافية تسير قدم أو يركب ظهر . ولا كمثل يهون الصعاب والمشقات . وقد كلف الرجال الثلاثة بنشدتهم فنسوا من أجلها النصب وركبوا إليها جناح العزم ، وإن بقلوبهم لشغفا يجب عن جسومهم متاعها ويدهش فيها نشاطاً متجدداً ، يفيض ولا يفيض ينبوعه .

وبدا لهم أخيراً عسكر الإمام شاعت الحركة في كل نواحيه . فقد راح الجند يتأهبون أهبتهم لمرحلة أخرى من سيرهم تقرب ما بينهم وبين البصرة . وأخذت رنة السلاح ترحم السكون والأكف تتلقفها للامتشاق أو لتثبيتها في المناطق . وصهيل الخيل وهدير الجمال يتردد كأنما هي تدعو الفرسان . . . . وكانت الظلمة الخافية تلف الأخية والحيام ولكنها لا تسترها عن العين ، فما زالت بالغروب خفقة تضيء بعض ضياء . . . . . وحينما دنا الرسل أقرب الدنو من هذه الساحة ، طالعهم فارس في وجهه إشراقة ، وعلى ملامحه من الحسن رواء يكسوه جلالاً وينعله رجولة . فما وقعت عليه أبصار الغرباء حتى همس كليب لصاحبيه :

« هي والله ! . . . »

فأعدى الرجلين تعجبه ، وهتفا به :

« من يا كليب ؟ . . . »

« أرايتم إلى المرأة التي كنت أحدثكم عنها أنها كانت عند رأس العليل

في رؤياي ؟ . . . »

« نعم . »

« إنها بهذا الرجل أشبه الناس . . . . »

ومضوا وفي أخلاصهم تسبح الدهشة . ولكن طرفاً من مسارتهم كان قد طرق أذنى الفارس وخال به أنهم عنوه . أو لعله استراب فيهم إذ أنس في خطاهم ترددهم الغريب ، فما هموا أن يتبعوا الخطوة الخطوة حتى صاح :

« قفوا ! . . »

فثبتوا لا يثنون . وألقى هو أمره بسؤال :

« ما الذي قاتم وقد رأيتموني ؟ . . . »

« لم نقه بقول . »

« فلن تيرحوا إذن أو تقولوا لي ! »

فدخلتهم منه هبة هتكت حجب الكتمان التي نشاءوا لو ظلت مسدلة على

خافية السر . . . وأقبل الجرمي محدثه برؤياه ، لا يكتف شيئا ؛ حتى فرغ .

حينئذ انتقلت الدهشة منهم إليه ، وهمس ، كأنما لنفسه ، وهو يدعهم ويمضي لما كان فيه :

« والله إن ما رأيت لعجيب ! . . »

وغاب عنهم في ظلال العسق المدودة .

إذ ذاك اثنى كليب إلى أدنى أهل العسكر منه ، قال يسأله في خفوت :

« من هذا الفارس ؟ . . »

« محمد بن أبي بكر »

فعلقت الحيرة هنيئة السن الصحاب . وجاءت إثرها كراهية غلبة لأمر أولئك القوم الذين خرجوا على طاعة الإمام ، وعصفوا بالبصرة ، وغلبوا عليها بحجة أنهم قاموا في الثأر لعثمان . أم بقيت نعمة من الرؤيا بقية لم تحققها الأيام ؟ . . . بل انكشف عن حله العطاء ، وأنت الحوادث دراكا بتأويله . وإن الجرمي ليضئ لغايته صوب على ليمرف من لسانه حقيقة حال أولئك الغزاة العادين وليس به حاجة إلى ماضيه ، ولا إلى استنبائه منطقاً يدحض منطقهم ، أو حجة تفرع حجبتهم المعتسقة . . . فلقد أنبأته الآن رؤياه :

« هي عائشة بنت أبي بكر ! . . . »

ولكنه مع ذلك مار مسيره يتبعه رفيقاه ، وما يفي حله يعاود خاطره كمن قبل — في اليقظة هذه المرة ! . . . فذلك عثمان ، واهن الحول مهبط الجناح ، قد تكأ كالأدر عليه في صور أناس . وهذه عائشة عند رأسه لو شاءت دفعت غائلة الشر وكفتها عنه . . فلا أمر رآته لم تعد يداً مكفكة ، ولم ترد كوسمها عن الأمير المنكوب . إنما خلته ومصيره اللوجع ، وقضاءه الفاجع . اكتفت من دور الرؤيا بأن تقعد وتشهد حتى مضى القوم إلى الغافي النائم فسلبوه الحياة ، واستلوا عصارتها من هيكله الجاف ! واكتفت من دورها في حقيقة الحياة بمثل ما كان في دنيا الحلم بل هي ها هنا أشد قسوة إذ أعانت على المريض ! . . .

واستأذن رسل البصرة على أمير المؤمنين . وأقبلوا عليه يستخبرونه فما أخفى عنهم هنة مما سلف من أبناء مصرع عثمان والأسباب التي هيأته والحوافز



التي ساعدت عليه . لسكانه بهذا السر كان يفق الجرمي عن تأويل رؤياه ! . . .  
وحين أشرف على نبأ معارضيه ، طفق يتحدث عن عمرة طلحة والزبير التي غدت  
غدرة ! . . . وعن غيرة عائشة بنت الصديق التي أثمرت دعوة تتواري خلف  
عدالة القصاص ! . . وما زال يصف من خصومه ما كتموا عن الناس حتى أوفى  
على أمر الفتنة التي شبوها عليه يريدون بها اجتياح كيانه وهدم بنيانه ، ولو دروا  
لعلوها حجة حازبة تهم أن تحتاج الإسلام . .

« فبعضهما ، لكيلا يفتقروا في الإسلام فتقاً ، ولا يشقوا جماعة . . »  
ثم سكت عن بيانه .

وقلب كليب بصره هنية على صاحبيه ، وأخرى على الفريق الذي شهد  
مجلسهم هذا من أولياء الإمام ، وثالثة على محيا هذا الأمير المحسود المظلوم . .  
إن إشراقه الحق لتبليج على قسماته وتضيء حوله للنفوس الحيرة سبيلها للهداية . .  
ما من حاجة الآن لكليب أن يزن حجة بحجة ولا لقومه ، وقد جاء على بفصل  
الخطاب . .

وهتف بهم بعض الأعوان ، في همس خافت ، كأن الألسنة تهاب  
حضر الامام :

« والله ما يريدون قتالهم إلا أن يقاتلوا . وما خرجنا إلا لإصلاح . . . »  
وهمس آخرون :

« فقدموا فبايعوا ، رحمكم الله . . . »

فلم يتلكأ الرجلان لحظة عن التلبية ، بعد ما عرفا الحق أين مأتاه ومع من  
يسير . . أما الجرمي فقد تريت ، وبات حائراً أيتابع صاحبيه على ما عقده أم أولى  
به الصبر حتى ينقل لقومه نبأ ما رآه ليروا رأيهم فيه .

وفي غمرة حيرته ، سرى إليه صوت الإمام ثابتاً ، هادئ الجرس ،  
خافض الرنين :

« ألا تباع ؟ . »

فبغت الرجل وعالج الاضطراب الذي ساد كيانه حتى استطاع سانه أن  
يجيب على استعياض :

« أصلحك الله !.. ولكنى رسول قوم ولا أحدث حدثاً حتى أرجع إليهم .. »  
فابتسم له أمير المؤمنين بسمة هونت من اضطرابه وأفادت على نفسه  
السكينة ، وقال :

« رأيت لو أن الدين وراءك بعثوك رائداً تبتغى لهم مساقط الغيث . فرجعت  
إليهم ، وأخبرتهم عن الكلاً والماء خالفوا إلى المعاطش والمجاذب . . .  
ما كنت صانعاً ؟ »

« كنت تاركهم ، ومخالفهم إلى الكلاً والماء » .

« فامدد إذن يدك ! »

ففعل على الأثر ، لم يستطع أن يعتنع بعد وضوح الحق ، أبلغ كضحوقة النهار ..  
وحين آب الثلاثة ، وشارفوا بلدتهم ، وكانوا جميعهم لسان حال للإمام ،  
ينطقون بمنطقه ، ويسوقون حججه ، واحدة تظاهر أختها ، على أنفس الناس  
وما كان فيها من تردد وشبهة . فهو امرؤ يحارب الانقسام وينشد السلام ، ظلمه  
أصحاب الجمل إذ باينوه ، ونكثوا عهد ربهم عندما خالفوه .

وراحت الوفود بعدهم تترى ، وقد بلغت الدعوة التي نهض بها على ، ونفذت  
إلى قلوبها سماعته . . . كلما مرت بأرض فيما بين البصرة وبين ذى قار بدوا  
جموعاً تستبطن المطى ، وتود لو حملتها الريح إلى الرجل الذى نقض عنه غضبته  
على شائئيه . وقدم العفو والصلح ابتغاء وحدة الوطن الذى كادت أن تغوله عوادي  
الفتنة ، وتنخر في بنيانه الشامخ أهواء بنييه . . .

## ٢

كانت خطة على دهاء ... سفارة القمعاع أدنت أصحاب الجمل من حتف معنى  
أشد قضاء عليهم من وقدة القتال . فقد بانت الحقائق بها للناس في ضياء جديد ،  
واستنارت لهم مناهج التفكير والتدبر . . . ها هو الإمام ليس يسعى لتثبيت  
حكمه ، ولا للقصاص من خصومه إذ غالبوه وظلموه ، بل سارع بمد نحوهم كفهم ،  
فيها صلح وفيها عفو وفيها سلام ، ويهيب بهم من أجل وطنهم جميعاً أن يتلقوها .

ويقبلوا دعوة الصفاء ... إنه ليؤمن خائفهم ، ويحقن دمهم ، ويغضى عما أسلفوه في حقه من إساءة . إنه لينسى انتفاضهم عليه ، وعيبتهم بعهد ، واستهاتتهم بهيبته إذ هو أمير نافذ الأمر فيهم ، واجب الطاعة عليهم . . . . لقد تجرد من نزعاته النفسية كل التجرد ، ومن مشاعره نحوهم التي طالما جرحوها بالفعل أو بسقطات الألسن الزارية العيابة . فما لهدف خاص قد هدر وغضب . ولا لما أرب ذاتي كان إليهم مسيره ، وحين تدبر الناس موقفه في روية وحكمة ، وجدوه كمهدم به قبل الإمرة ، ومن يوم عرفوه وله في الحياة العامة دور يضطلع به ، نفس ذلك الذي قال ذات يوم غابر :

« . . . لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن جور إلا على خاصة . . . »  
فكذلك كان أبدا مبدأه وكان شعاره . وهو الآن يمد من تجرده إلى الأذهان الغافلة ما غفلت عنه . ولو أنه أراد تأديب العصاة ما أعوزته الوسائل ولا أقعدته عنهم . فليس عن خشية إذن دخلت قلبه منهم كان هذا التريث ، وهذه السباحة التي تعز في النظائر . لا ولا رهبة القتال ردت . إنما قد آثر هذا حرصا على سلامة المجموعة الإسلامية أن يودى بها التناحر ، وإشفاقا على خصومه أن تأكلهم غائلة الحرب ، وليس يضيره قط أن يمهل لهم ليجتنبوا الهلكة . ولقد قال من موطن كهذا سوف يأتي نبأه بعد حين :

« ... والله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة فتهدى بي ، وتمشو إلى ضوئي . فذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها وإن كانت تبوء بآثامها . . . » .

فالصلح إذن كان خطة منه خير ، وعلى دهاء وحكمة . ولو قد رفضه أصحاب الجمل لبدا في أعين الرأي العام ساعين لفتته ، مليون دواعي الهوى والأطماع الشخصية ، دون داعي الصالح الجماعي ، دع تنكرهم لنداء المروءة ودعوة التسامح . ولو سارعوا إليه يتلقون كفه المبسوطة بالصفاء ، فهي مسارعة إلى لأم الصدع وتوثيق وحدة الأمة ، وهي في ذات اللحظة مسارعة إلى الانضواء تحت لوائه ، واعتراف صريح بخطأ نظرتهم القديعة التي نفضتهم عنه ، وإقرار

أبنا إقراراً بأنهم أساءوا أبلغ الإساءة إلى من وجبت له عليهم الطاعة ، وجانبوا الحق حين نقضوا البيعة وتنكروا للولاء . . . .

ولكننا مع هذا لسنا نستطيع أن نفهم كيف يبادر أولئك القوم لاعتناق دعوة القمع ، وإن بين صفوفهم لكثيرين يهضم الصلح ويقضى على كيانهم الذي لا يتسم أنقاس الحياة إلا في كهوف التنابد . وحين نعيد إلى الدهن أسماء مروان وابن عامر وأضرابهما من النهازين يسعنا أن نرى كيف سيقوم الصلح على أنقاض آراهم ومطامعهم . وحين نستعرض هذه الآراب نوقن أنه عسير غاية العسر أن يقرروا — مختارين — دولة لن يكون لهم في توجيه سياستها مثل أئمة ، بل هي قاعة على طلل سيادتهم القديمة ، مؤذنة بانقضاء آمالهم حتى آخر الزمان . فلعننا إذ نلم بطرف من برم أولئك بالصلح الذي يسد عليهم منافذ الأهداف الخاصة لا نكون قد تجنبنا ولا جانبنا منهج الحقيقة ، ولعلنا أيضاً حين نذكرهم إنا نورد هم كئثال ، فليسوا وحدهم أصحاب ذلك النحو من التفكير . وعندما نتحرر من ترددنا بعض التحرر ، ونسوق القول ميسوراً ، عارياً عن التقيد بأقدار الزعماء ، لا نلبث أن نلحق بطلعة بعض مظنة وهنة شبهة ، وهل كان قط إلا مفتوناً بالإمرة يركب إليها كل صعب وعسير ؟ . . . إنك لن تغفل أبداً ماضيه في هذه الناحية ، ولا حتى حاضره الحاضر . ولك أن تستقصى معنى كيف غلب عليه ذلك الماضي وساق له الآن فكره في ذات الطريق القديمة ، فلم يرض له الخضوع للإمام ، بل أبداه أمعن في مشاقته وخلافه منه من قبل . . . كان هذا في يوم غير بعيد ، من بضعة أيام ، حين بعث على إليه وإلى صاحبه بكتاب يستفيئهما إلى طاعته ، والتزام جماعة المسلمين ، فردا بجواب يقولان فيه :

« .. إنك سرت مسيراً له ما بعده ، ولست راضياً دون دخولنا في طاعتك .

فلسنا بداخلين أبداً ، واقض ما أنت قاض . . . . »

فهذا رد قاطع ، لا يدع سبيلاً إلى التفاهم ولا يحتمل من التأويل إلا الإصرار على ملاقات الإمام بالقتال بعد العصيان . فإذا أبدى الاستجابة من بعد للصلح والرغبة في الوثام ولما تنقض على كتابهما إلا أيام ، فإنه إبداء حري بأن تحوم حوله

الشكوك ، أو قد ند عن تحول أفكار الناس إلى العطف على وتقدير نظرته ،  
وخضوع منها — دون اقتناع تحت ضغط الرأي العام .

على أننا ندع هذا كله إلى حين عندما تحركه الأحداث ، ثم نسير وئيدا  
في ركاب القمع صوب البصرة وقد بات أهلها فرقا مختلفة الهوى ؛ بعضهم مع  
على ، ممن والوه وظلوا على الوفاء له ، وممن وترهم الغزاة فرأوا الثأر لقتلهم  
لا يكون في غير انحيازهم إلى خصوم العادين . . . . . وبعضهم على على قد استهوتهم  
دعوة أصحاب الجمل الطلب بدم عثمان ومدهم بالإيمان بها أن نهضت فيها بنت  
الصديق . . . . . وبعضهم بين أولئك وهؤلاء أخفت عنهم سبيلهم الشبهات ، وغشى  
التردد نفوسهم فتركهم حيارى أينعازون إلى هنا أم إلى هناك . هذه الطائفة  
التي اختلط عليها الأمر أخذ النهج الواضح يبين أمامها قليلا قليلا ، كما ينجاب  
الضباب في الضحى ، بعد أن آثرت تلس الحق في مواطنه فخرجت ، أفراداً  
— في البدء — ثم جماعات ، إلى مقر الإمام تعلم منه ثم تذيع بين قومها ما علمته .  
وكان فيها من الجرمي أشباه . ومن بعده كثير تحدثوا بمثل منطقهم وأغروا غيرهم  
بالتحدث . . . . . فليس من عجب لو شهدت الجموع تنعذر من البصرة لتلحق  
بعسكر الرجل الذي كشف للناس قلبه ، وأعلن على ملأهم أنه يبتغي السلام .

كانت الأذهان متهيئة بالبلدة للوفيق ، والنفوس في عمومها راغبة فيه . فليس  
أحب إلى القلوب من عيش وادع رضى في ظلال الأمن ، ولا أبغض من محنة  
تمز الرقاب وتخضب الأرض بالدماء . ولم يكن هذا الشعور ليخفى عن القمع ،  
بل لعله استيقنه وأحس أيضاً نظيره . وحين اتخذ سبيله إلى دار عائشة قبل مسيره  
إلى الصاحبين كان يخط أول حرف من وثيقة الوفاق وإن لم يتشقق قلما أو يهيج  
صحيفة . . . . . ذلك أن النساء أدنى إلى اجتناب المذابح التي تنصبها الحرب ، أخشى  
الناس للقتال ، أولاهم بامثال الدعة والرفق والسلامة . . . . .

هو لا ريب كان يوطن نفسه لكسب نصير في مقر قيادة الخصوم — أقوى  
نصير . . . . . ولم يخنه تقديرة حينذاك . فقد استقبلته السيدة خير استقبال ، وأقبلت  
في اهتمام تصفى إليه . . . . .

وقال لها بعد قليل :

« أى أمه ! . . . »

« أى بنى ! »

« ما أشخصك وما أقدمك هذه البهة ؟ »

« إصلاح بين الناس »

فاطمأن إلى جريان الحديث بالمجرى الذى يشتهي ، وهتف يدعوها أن تجمع

لديها صاحبها لبحث الأمر :

« فابعثى إلى طلحة والزبير حتى تسمعنى منى ومنهما . . . »

فعلت فى التو . وجاء الصاحبان وما من أحد منهما يدرى فيم دعوة

أم المؤمنين .

وخاطبهما القمقاع :

« إنى سألت أم المؤمنين ما أشخصها ؟ فقالت : إصلاح بين الناس . خبرانى

ما تقولان ، أمتابعان أنتم أم مخالفان ؟ . . . »

« متابعان . »

« فما وجه هذا الإصلاح ؟ . . . والله لئن عرفناه لنصلحن . . . »

« قتلة عثمان »

« قتلة عثمان ؟ . . . »

« نعم ، فإن هذا إن ترك كان تركا للقرآن ، وإن عمل به كان إحياء

للقرآن . . . »

من البدء تلك حجة الخصوم وشعارهم فى عصيانهم أمير المؤمنين . أفكانوا

يا ترى أولياء دم القتل ؟ . . . ألهم إلى هذا الطلب سبيل وله من دونهم أسرة

وأبناء ؟ . . . ومن كانوا العادين على عثمان بين الناس ؟ . . . »

ذات يوم كتب إليهما على يقول :

« . . . ما أنتما وعثمان ! هؤلاء بنو عثمان فليدخلوا فى طاعنى ثم يخاصموا

إلى قتلة أبيهم . . . »

ولكن الوائر — إن عرف ١ — والموتور كلاهما ظل خارجاً على الدولة  
التي تملك أن تدين وتقتص ، فبقيا جميعا — بهذا الخروج — حقيقتين  
بالتأديب والقصاص ! .

وقال القمقاع يرد حجة الصاحبين ، ويضربها بمنطقه :  
« قد قتلتا ( قتلة عثمان من أهل البصرة ١ ) وأتم قبل قتلهم أقرب إلى  
الاستقامة منكم اليوم . . . . قتلتم ستائة إلا رجلا فغضب لهم ستة آلاف ،  
واعتزلوكم ، وخرجوا من بين أظهركم . وطلبتم ذلك الذي أفلت فثمنه ستة  
آلاف . . . . فإن تركتموه كنتم تاركين لما تقولون ، وإن قاتلتموهم والذين  
اعتزلوكم فأديلوهم عليكم — »

فهتفت به عائشة وقد غمها أن ترى نفسها بين أمرين أهونها شر :  
« فتقول أنت ماذا ؟ . . »

« أقول هذا أمر دواؤه التسكين »

وتريث هنية ثم عاد يتم حديثه :

« إنكم أحميتهم مضر وريعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم نصرة لهؤلاء  
القوم الذين أغضبتم ، كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم . فإذا سكن  
الأمر احتلجوا . . . »

فلم يعقب منهم أحد على حديثه ، بل راحوا يتفكرون ، ويقلبون رأيه  
في روية وإعمال ذهن . لكنما كلماته جديدة لم تطلعها من قبل حكمة ولم يفه  
بها لسان ! . . إنها لتحسن وصف المأزق الذي وقعوا فيه ، وتضف أيضاً دواء  
دائه . . . ليت الأيام عادت سيرتها الأولى إلى يوم كانوا بالمدينة لم ينقضوا بعد بيعة  
على ، إذن لسمعوا الحكمة من لسان ذلك الأمير — الذي آثروا عصيانه —  
حين قال :

« . . . اصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق  
مسمعة . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط منه ، وتورث وهنا وذلة . . »

ولكنهم لم يصبروا حينذاك . وضاقوا بحكمة الحكيم — أم ترى ضاقوا  
بإمرته فانتقصوا عليه ؟ — ثم فعلوا الفعلة التي حذرهم ، فماذا — غير الوهن  
الذي حدثهم عنه ؟ . . .

إن الأحداث الآن بصرتهم بصدق نظرتهم ونفاذ عينه إلى أغوار المستقبل .  
ولو صدقوه إذ ذاك وصبروا كما أشار لجنبوا الأمة هذه الفتنة التي لم تلهم شيئاً  
مما طلبوه أو . . . ادعوه على مسمع من الناس ! . . . قدم عثمان كان وحده  
حجتهم في اختلافهم على علي ، وعذرهم الظاهر لذلك الخلاف ، ثم ها هم قد أطلوا  
ذلك الدم ولم يأخذوا من مريقه ثأره ! إنا جنوا بحسب انقسام جماعة المسلمين  
وقيام بعضهم يقاتلون بعضهم الآخر ، بينما غاضت قطرات ذلك الدم في غبار  
الصراع . . . ها هم بعد أن كان القتلة يحميمهم بالمدينة بعض طوائف من العبدان  
والأعراب ، قد غدا أحدهم تحميه ألوف ، يغضب لهم ألوف ، ثم قبائل شتى تجمعها  
العصية لتظاهر أولئك الحماة . . . فلقد أثلت حرقوص بن زهير — وهو أحد  
أهل البصرة الذين خرجوا فيمن خرج من أهل الأمصار إلى عثمان يطلبون منه  
الحق وينكرون الجور — ولحق ببنى سعد بعد الواقعة بين أصحاب الجمل رفرسان  
حكيم فكان وحده الناجي من المذبحة ممن شهد حصار عثمان . وطلبه رجال  
طلحة فمنعه بنو سعد ، وغضبت له عبد قيس ، وبقي من طالبيه في أمان . . .

وأردف القعقاع يبين لسامعيه أين يجدون الخير والسلامة :

« . . . إن أنتم بايعتمونا فعلامة خير ، وتباشير رحمة ، ودرك بئار الرجل ،  
وعافية لهذه الأمة . وإن أنتم أبيتم إلا مكابرة هذا الأمر واعتسافه فعلامة شر ،  
وذهاب الثأر . فآثروا العافية يا قوم ترزقوها ، ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له  
فيصرعنا وإياكم . . . »

وتلبث يرى ما ينطقون به إثر منطقهم ، فما عتموا أن بادروه يصوبون نظرتهم :

« نعم القول ، فقد أحسنت وأصبت . . . ارجع يا قعقاع ، فإن قدم علي وهو

على مثل رأيك صلح الأمر . . . »



وكذلك بدت علائم الصلح في الجو إذ أفر الصحبان وعائشة عرض الإمام .  
وأوشكت الأمة أن تسير إلى عهد وئام يضم فرقها المختلفة ، ويوثق عروتها ،  
ويبدلها طمأنينة وأمناً بالحرب الأهلية التي همت أن تأتى على كيانها الموحد —  
لو صفت الأنفس وخلصت النيات . . . .

### ٣

كانوا ثلاثة . قبلوا الهدنة واستجابوا لدعوة الوفاق . ولكنهم ليسوا واهدين .  
حزب الجمل بطبيعة الحال . كلما رميت بصرك وراء عكر طالعتك وجوه غيرهم  
كثيرين ، لهم في إنشابه الخلاف إصع ، وفي السلح المرجو رأى لا يوافق رأى  
الزعماء ، تحدث عنهم الميول القديعة ، ونضحت بما في النفوس . وحين لبي رءوسهم  
نداء الإمام لم يشاوروا ولياً منهم ، ولم يصدروا في التلبية عن جماعة العصاة . . .  
أيستقيم لهم نهج الصلح ويسعهم أن يحملوا أروياءهم عليه ؟ . . . .

من البدء لاحت الهدنة خدعة كبيرة ، لا لأن الثلاثة إذ قبلوا أضمرُوا الرفض  
وأبدوا غير ما يريدون ، بل قد خدعهم عن حقيقة ميول أتباعهم نبأها الساحر  
وما رجوا وراءها من سلامة وخير . فما زالت نفوس الكثرة من رجالهم تميل  
للقتال ، وتدين بشريعته . وما نشبت دعوة الطلب بدم عثمان تريحهم أنها لن تتم  
إلا بدم . وقد غلب على أذهان أولئك الأعوان ما ظلت أفعال عائشة وصاحبها  
تبث فيهم من « تخاذل » على عن النار وترفقه بالقتلة حتى لظنوه ضالماً في المصراع  
يشيم مطمئناً فيه ! بل قد سلب منهما ومنها في حقه زعم يلحق به تهمة القتل بعد  
الحدل . . . . أيسع أمحاجهم بعد هذا أن يؤمنوا حقاً ببراءة الإمام ؟ . . . .

دون هذا ويلتوى الأمر . . . . وهام أولاء يهرعون إلى الرجلين حين  
بلعهم ما مشت به الشائعات من نبأ الصلح ، وكلهم موثق أن الحرب هي الدواء .  
وأجل منهم رأس الأرد صبرة بن شيان يقول :

« . . . انتهزنا بنا هذا الرجل فإن الرأي في الحرب خير من الشدة . . . »

وقال أبو الجرباء للزبير :

« إن رأى أن تبعث الآن ألف فارس فيمسوا هذا الرجل أو يصبحوه قبل أن يوافي أعوانه ! . . . »

وصاح كعب بن سور :

« وما تنتظرون يا قوم بعد توردكم أوائلهم ؟ . . . اقطعوا هذا العنق من هؤلاء ! . . . »

ويعجب المرء لهذا الصائح كيف امتلأ قلبه هكذا حماساً لنصرة طلحة والزبير حتى ليدعوها دعوته الملحة لقطع « عنق هؤلاء » وما عني حين قال إلا علياً يهيج نعمتهما عليه . . . أفأنسى كعب يا ترى موقفه الأول ، وكتابه إليهما يوم أراد الاستعانة به في النهوض معهما للنثار لعثمان فأبى عليهما ورد يقول يومذاك :

« إن يك عثمان قتل ظالماً فما لكما وله ؟ . . . وإن يك قتل مظلوماً فغير كما أولى به ! . . . وإن كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل ! . . » قد نسي هذا فيما يلوح . والأيام دائماً كفيلة بالنفوس ، تعمل بأكثرها فلا يثبت منها على منهاجه سوى قليل . ولقد مال ابن سور إليه ، وغدا الآن على قضية صاحبين أشد منهما غيره ، وأحرص على إبلاغها أبعد مما يرجوان لها من نجاح ! . . .

وكيفما كانت رغبة صاحبين في الصلح وكان الأساس الرتكزة عليه فإنها رغبة لم يكتماها إذ ذاك ، ولقيت عندهما هوى غير منكور . ولكنها كانت دعوة حرية بأن يعوزها في منطقتي الحرارة التي تبعث في قلوب رجالها الحماس لها ، وفي أذهانهم الاقتناع بها والمبادرة إلى اعتناقها بغير إهمال . فما بهذه السرعة يمكن حمل الناس على نسيان مزاعمهما السالفة وكل تلك الاتهامات التي جهدا طويلاً ليلطخا بها صفحة الإمام . وليس يسيراً على أعوانهما الآن أن يؤمنوا بأن الوفاق هو وحده الخطة المثلى والرأى الذي تهون أمامة بقية الآراء . . .

على أن نعمة عامله حسابه في جنوح طلحة والزبير إلى إثارة السلام على الحرب ، والمخاصمة هو ما أخذت الأيام تبديه من نعر موارد على في العدة وفي الرجال .

قد لبته الكوفة ، وبعثت من لدنها كتائب تلتحق بجيشه ، آلافاً من الجند يسهم الحصر ولكنهم بين كل عشية وضحوة يزيد عديدهم وتتبعهم زمر وجوع . وكان أيضاً هناك رجال القبائل المنبثة في البيد على تخوم البصرة وفيما حولها من أصقاع أولئك هوامم في الإمام معلوم . وهم أدنى إلى مظاهرتة وشد أزره . وحين تتطلع العين إلى الطريق بين البلدة وبين ذي قار لا تعدم أن ترى الوفود تترى لتلحق به ، وتكون مدداً لقواته . ولقد يغلب على الظن آونة أنهم لم يسيروا سيرهم إليه إلا وقد جذبهم دعوة الصلح ، وعرفوا أن حديث الحرب أوشك أن تصمت عنه الأفواه . ولكنهم عندما تحقق الدعوة ، ويصبح لا معدى عن اشتباك السيوف فإنهم إذن ، ودون ريب ، سيختارون جانبه ، إذ هو المدفوع عن السلم بعنت الخصوم .

وكذلك ليس يسع المرء أن يغفل شأن فريق كبير من أهل البصرة غلبهم على ميولهم الإرهاب الذي سادها في الأيام القليلة التي شهدت بها غلبة أصحاب عسكر وحكمهم القصير . فهذا فريق يتربص دون ريب بالغزاة وينتظر الدوائر أن تنفتح في بناء الأحداث فرجة ينفذ منها إلى تقويض دولتهم ، والثأر لكل هذا الدم الذي أراقوه . وهل نسي عدوهم على العبدى وعشيرته ، وركوبهم ابن حنيف بانعدر والمهانة ، والمذبحة التي أشاعوها في الأمانة ممن ألقوا بهم تهمة قتل عثمان بعد وقعة حكيم ؟ . . . إن هذا الفريق لحقا شوكة تدمي جنب حزب عائشة ، إذ يؤلف نوعاً من جيش سرى لا تؤمن منه الغرة والمفاجأة حين يستعر القتال بين جندهم وجند الإمام . ولقد صدقت في هذا الشأن قطعاً نظرة أبو الجرباء ، وكان تحذيره الصالحين تحذيراً أملاً حسن التقدير .

إن هذه العوامل ، لو كانت وحدها ما حمل الرجلين على المهادنة وقبول الصلح ، لكان في رضوخهما لدعوة الإمام ، وتقبلهما إياها ، خير ما يسهما أن يقرأه مما توجب الحكمة وتفرض السياسة الرشيدة . ولسكتنا لا نجردها أيضاً من نزعة إلى الصلح ابتغتها الرغبة في لأم صدع الجماعة الإسلامية بعد أن خذلتهما الظروف — أو أوشكت — ووضح لها صدق رأى الإمام في القصاص لعثمان

وعلاجه أمر قتله بما كان يوائم حالة الأمن إذ ذاك وحالة الثوار . فالتريث كان وحده الخطأ المثلث حتى تهدأ الفتنة ، وتسكن النفوس ، ويتفرق عن المدينة أهل الأنصار . ويجدوا الآن اعترف الصاحبان ، واعترفا معه بخطئهما حين أياء . . . فقد قال لمن جاءها من دعاة الحرب يحضونهما على المبادرة إلى قتال على رداً على ما أسلفناه من حديث :

« ... قد زعم قوم أنه حدث لا ينبغي تحريكه ، هم على ومن معه ، وقتلنا نحن : لا ينبغي أن نتركه ولا تؤخره ، فقال علي : إن هذا الذي أدعركم إليه شر ، ولكنه خير من شر منه . . . وقد كاد أن يبين لنا أنه الرأي » .

فلعل بعض مادفعهما أيضاً إلى اعتناق دعوة الصلح هو الندم على ما فرط منهما في حق أمير المؤمنين من اختلافهما عليه في شأن وضع اليوم أنه كان فيه أبعد نظرة وأصدق فراسة .

ونستطيع بعد هذا أن ندع حديث الجوانح وما ضمت من نوايا خفية فلسنا موكلين بالضمائر . . . فما لهذا الحديث آخر . وليس الناس إلا نزوة تحركهم إلى هنا ثم أخرى تردهم إلى هناك . . . وحسبنا لتم جوانب الصورة التي تنقل لنا تلك الحقبة من تاريخ الإسلام أن نسير قدما إلى عسكر الإمام .

من البدء كان على ينبغي الإصلاح ، ويروم نجيب الأمة شر الفرقة التي كانت لا ريب نتيجة لازمة لدعوة الخصوم المستترة خلف الثأر للقتيل . وحينما سارع بتلك الحفنة القليلة من أعوانه يرود طريق نجد ليقطع السبيل على أصحاب الجمل قبل بلوغهم البصرة ، لم يكن قط يعني ردهم عن نشدتهم بقوة السلاح ، وإنما بالبيان والحجة الدامغة والبرهان الذي لا ينهض له برهان . وعندما أرسل يستمد أهل الكوفة ، كانت كتبه إليهم لا تكاد أن تستمدهم جنداً بقدر ما تريدهم حكما يقضون برأيهم فيما شجر بينه وبين الخارجين من طاعته . ولقد ظل وظل رسله يتحدثون بأمر الإصلاح ودعوة الوثام والآفة ، لم يتنكروا لمبدئهم قط ولا حادت بهم عنه حمية النزاع المشبوب .

ومع ذلك فليس مما يشين دعوته أن نجد في صفوفه قوما كانوا يؤثرون القتال ويودون بجدع أنوفهم لو استطاعوا إليه السبيل ، فما من جماعة في الدنيا يمكن أن يسودها رأى واحد ، أو تمنح من رءوسها العقول التي تميزها عن الأنعام والعجاوات . وما من أمر يعرض لأناس إلا رأيهم ينظرون إليه من جوانب شتى ، فتفترق آراؤهم فيه ، أو تتلاقى بقدر اختلاف هذه الجوانب أو اتفاق النظرات . ومن العيب أن نسمي هذه الفرقة السكفة بالحرب بين أعوان على بالرغبة في مناواة سلطانه ورد طاعته ، بل أدنى إلى الحق أن نراها ساعية إلى تدعيم قرائعه وتثبيتته والمكن له أقوى تمكين . ذلك أنها لم تكن تطيق أن تغفر لمناجز مناجزته ، ولا لخالف خلافه على صاحبها الذي أنزلته من قلوبها منزلة تقارب القداسة ، وكانت ترى في التسامح ما قد يغري آخرين كثيرين بمعاودة العصيان ، فالشدة إذن أولى من اللين وأجدى على الدولة من الغفران .

وكان نعمة إلى هؤلاء طائفة يشق عليها الصلح أيا مشقة ، وتكاد أن تستروح منه نذراً تؤذنها بمصير مرهوب . . . أولئك من شهدوا حصر عثمان من المدينة وأهل الأمصار ؛ فظل يحبس عنهم عدالته حتى أنشب القدر فيه غائلته . بالأمس كانوا أصحاب حق ، جاءوه — كقول عائشة — « يطلبون العدل وينكرون الظلم » ، فما للنظرة إليهم الآن قد تبدلت بنظرة كأها إلى نقيض ، وللعطف عليهم من قلب السيدة يغضب ؛ ثم بخلفه على الأثر اتهام كفيل بأن يحققهم ويسلم أعمارهم إلى يد الموت ؟ . . ثوار الأمس لم يعودوا بعد الفاجعة طلاب نصف ، بل غدوا قتلة وإن لم يشهروا أكثرهم عصا في وجه الشيخ — وإن لم يشهروا جميعا ، إلا واحداً أو بضعة . . ومع ذلك فقد باءوا من عائشة وحزبها بالسخط الذي اتسع حتى ضم في جنباته كل مناهض لعثمان ، زار عليه ، متبرم بعهده المثير للبرم في قلوب كافة الناس . بقي الاتهام الذي ساقه حزب الجمل مصلتا على الأعناق يجتر منها ما شاء حين يسعه أن ينتهز سانحة أو غرة تيسر الثأر من عشرات ومئين . وما المذبحة التي أودت بحجم غفير من أهل البصرة إلا ناقلة إلينا رأى عائشة وجوابها الجديد على هذا السؤال الذي ما زال يحير الأذهان : « من هم ، وكم هم قتلة عثمان ؟ . . » .

لا ريب أن الصلح المأمول بين الإمام وبين أصحاب الدم ومن زعموا أنهم أولياؤه لن يكون إلا على حساب الطائفة التي شهدت الحصار . فهذا شهدت المقدمات ، وعنه نوشك أن تنجاب الخواتيم . فإذا خشي هذا الفريق دعوة الصلح أن تنجح فقد حقت له الخشية ، وحق له أن يخاف النذر المؤذنة بالمصير المخوف .

واقعد كان على يتوقى أشد التوقى أن يدع لأصحاب الجمل شبهة من حجة عليه ، فأبى منذ البدء أن يلوذ بجيشه أحد من رجال القبائل والأعراب والعبدان ممن لعلمهم شهدوا الحصر أو أعانوا عليه ، ومع ذلك فثمة ثمة منهم قد لحقت به حين تداعى وأخصامه إلى الصلح ، مهما كانت فقيراً قليلاً ؛ فلها مشاعر الخاصة ، ولها رأى كتتمته في السلم المنشود .

أما الإمام فقد سره أن لبي الصاحبان دعوته ، لأن التلبية خطوة إلى دخولها جماعة الأمة ولأم للانقسام . وبادر يحض أصحابه على التزام الصبر والتريث وامتلاك ناصية الأنفس عن إثارة الشحناء ، فما زال رأيه الكف عن خصومه ، ومدافعتهم بالحسنى والسكون عليهم وهم على حرب ، فكيف وقد أبدوا الرغبة اليوم في الوفاق ؟ . . . وحين قام منهم رجل يسأله عن خطته بعد حديث الصلح ، أجاب : « الإصلاح ، وإطفاء الثائرة ، لعل الله يجمع شمل هذه الأمة ، ويضع حربيهم . وقد أجابوني . . . »

وسأله آخر :

« أنرى لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا من هذا الدم إن كانوا أرادوا الله

عز وجل ؟ »

فقال :

« نعم ، إن كانوا أرادوا الله عز وجل »

« . . . وترى لك حجة بتأخيرك ذلك ؟ »

« نعم ، فالشيء إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوطه »

وقام فخطب رجاله :

« يا أيها الناس . . . املكوا أنفسكم ، وكفروا أيديكم وألسنتكم عن القوم ،

فإنهم إخوانكم . واصبروا على ما يأتيكم . وإياكم أن تسبقونا ، فإن المخصوم غدا

من خصم اليوم . . . »

{

تمحرت كتائب الإمام هذا الجيش الذى خرج من المدينة فى عديد من العشرات ليس يعدو بضع مئين ، قد مضى الآن ترجيح له الأرض ، ويدوى الفضاء حوله بصدى خطوه ، متوالى الجرس مرتب النغمة ، كأنما يهتف : « النصر ! النصر ! . . »

ولن يكون نصراً على عتاد وجند ، الأداة الحربية وسيلته . ولكنه ظفر بأهواء الأنفس المنحرفة بمحقتها ، ويرد أصحابها إلى الجادة . . . أوشك الحق أن يظفر بعدوه ، وتكون له العقى وحده . وما السير الآن إلا لتقويض بنيان الانقسام ، وهدم حصنه بعد أن كاد يرفع على أبراجه رايات التسليم !

وكان على بادية البشر كدأبه لم يطف بقلبه التطير . الرجاء الذى استشعره من قبل فى جمع الكلمة ما زال ساكناً بنفسه ، يستبق به الخطا إلى أسوار البصرة ، وبهم أن يرسم له دنيا أخرى يسودها الأمن والوحدة والمساواة . والمبادئ التى اعتنقها منذ صباه توشك أن تثمر طلوعها المبارك . غاية الغايات من رسالة الإسلام تبدى لعينه قريبة ، لألاءة السنا كهذا الضوء الذى راحت الشمس تشعه أمامه وهو يؤم جيشه فتحيل به الصحراء وادياً بسيطاً من نور . . . فلهذه الساعة الغراء كان يرتو دائماً خياله ويهدف أمله ، ليستقيم من بعد شأن وطنه على السنن الذى خطه محمد بوحى التنزيل .

إن الجنى الآن لدانى القطوف ، قريب من الأنفس النقية لولا أن تعبت به أيدي الشر . أفيحفظه القوم يا ترى نصراً ناضجاً حتى يشين الحصاد أم يسبقهم إليه الشيطان ؟ .

هو من موطن الخطر على حذر ، لا تغفل عينه ولا تنام ، وإنه ليعلم أن للشر دعاة والسنة أينما كان أناس وكانت حياة . . . حتى فى صفوفه ليس يأمن أن تتسلل بضعة من حزب الشيطان لتقطع طريق السلام . فلو كان له علم بخافية الأنفس لوسعة القمع ، ولما أعياه أخذها بالعنف فتهلك أو تنفى إلى هدى الحق .

وإنه ليعلم أن في خصومه فريقا مثلهم كهؤلاء يتربصون بالصلح ويتحفزون للردة عليه . وعندما يقفون هنة فهي ذريعتهم إلى نقض عهد الهدنة الذي لم يرم ، ووسيلتهم للسعى بالفساد بين الراغبين في السلام .

ولكنه لا يملك أن يكبح خفي الأهواء . ولا يستطيع أن يعرف بين رجاله أناسا بعينهم يؤودهم الوفاق المنشود ، وإن عرف أن خصومه قد يتعللون للخلاف بأوهى الأعذار . . . فالنفس المغلوبة على الأمر من الأمور تبدى الرغبة فيه وهي تبطن الرغبة عنه فهي حرية بأن تعتسف الفرص لنقضه والخروج منه ، ما شاءت إلى تصيد مبررات نكسها من الشبه والمظنات . . .

مع ذلك فقد فعل ما يسعه للقضاء على تلك الهنات التي قد يتخذها بعض خصومه ذرائع لإفساد الصلح ، ووقف يحذر أعوانه ، ويتوعد من عساه منهم يكتم في دخيلته ما يسىء إلى دعوة الوفاق . وكان أولئك الذين خشيم على السلم أشد خشية ، هم من شركوا في فتنة عثمان وأعانوا عليه ، فراح يحذرهم نفسه ويقول: « . . . أيها الناس ، إني راحل غداً فارتحلوا . ألا ولا يرتحلن غداً أحد أعان على عثمان بشيء . . . وليغن السفهاء عن أنفسهم . . . »

وقد راح الأُمس وجاء الغد المرقوب . ومضى الإمام مع الصبح على رأس جيشه نحو غايته حتى بدت لهم البصرة على قيد النظرة . ونزل بهم الزاوية يتلبث وقتنا يعلم فيه : آلقوم مقيمون على عهدهم وما فارقههم عليه القمعاق ؟ . . . وعندما شارف البلدة ، وتسامع الناس فيها بنبئه ، لم يعد عديد أنصاره كما جاء بهم من ذى قار ، بل انقلت من أسوار البصرة أقوام يلحقون به مبادرين يدعمون قواته ويشدون أزره بعد أن وسعهم الآن أن يظهروا بعض ما يحسونه من ولاء غلبهم عليه الإرهاب . . .

وشاعت الحركة في الناس ، وجرت بأرجلهم الحية . . . وتأهبت بكر ابن وائل ، وتأهبت معها عبد القيس تأهب غيرهم ممن عجز بهم مكان التقاء الجيشين . وهم رجالها أن يعضوا إلى غايتهم تحت الألوية المرفوعة ويتخذوا مواقفهم في الصفوف ، فما هو أن خطت بهم قدم حتى بعث شقيق بن ثور إلى عمرو بن مرجوم العبدى يقول :



« . . . إذا خرجت فقل بنا إلى عسكر على . . . »

فكأنما كانت كلماته صدى لما بنفس عمرو ، ماسمها حتى استجاب لها لم يتحمل ،  
وقاد الجموع الزاخرة كراى رفيقه وجهتها ، منعدراً بها صوب عسكر الإمام  
ينحاز إلى جانبه ، ويمهد بها قواته .

وشهد الناس إذ ذاك مشهداً لعل الأيام لم تطاع عليهم بمثله منذ عهد الرسول . . .  
فهذا « زيد بن حارثة » جديد يحمل راية القوم ويكون له فيهم مكان الصدارة  
كما كانت لزيد راية أصحاب محمد وجنده في مؤتة . . . أو « أسامة » آخر كذلك  
الذى نصبه الرسول قائداً لجيشه إلى الشام وحاملاً للوائه المظفر . . . فقد مشى  
على رأس بكر وعبد القيس امرؤ لصيق مرقوق ليس بذى حسب ، ولا ماض  
يتصل بشرف لأجداده رفيع . . هو « رشراشة » مولى ثور يحمل راية القبيلتين . . .  
حيث أخذ حمى الغضب بنفس وعلة بن محدوج الدهلى ، قائد بكر الكوفة ،  
أن شهد شرف بقية قومه ينتهى إلى عبد مجهول الغضب تائه الأصل فى الأصول ،  
وأن تدفع إليهم رايتهم دون السادة والفتية الأجداد ، فنار حانقا بابن ثور :

« ضاعت الأحساب ! . ويحك ، أتدفع بمكرمة قومك إلى رشراشة ؟ . »

لقد كان وعلة فيما يبدو يعيش فى الماضى — فى ضباب العصبية الجاهلية ، التى  
تقيس أقدار الناس بمقياس ثراء الآباء وأحاد الأجداد — فغم عليه أن يرى شمس  
الإسلام تسطع خارج فكره القديم ، ذات سنا وهاج ، لا يلقى ظلا من تمايز بين  
أخوين جمعهما الدين . . المساواة الآن هى الشرعة ، وهى النهج الذى سنه الله  
للشمر ينطلقون فيها جميعاً ، سادة ودهماء ، أشرفاً ذوى أصول وأحساب وعبيداً  
أرقاء . . . رثت اليوم مفاخر الجاهلية وطأطأت رأسها لناموس العدل الاجتماعى  
فلا فوارق ولا طبقات . ونصب للناس ميزان آخر ، ترجع فيه أقدارهم بغير  
ما ألفوه من قبل وورثوه . . . فما صدارة إلا لكفاية ، ولا جاء إلا بعمل .  
ولا حسب إلا بمجد يقدمه القلب واليد واللسان . . .

وتلك بادرة بدرت ذلك اليوم فكانت ناضجة بتهيؤ الأنفس لاعتناق المثل  
العليا التى منها التنزيل . جاء أوان تطبيق هذه المبادئ السامية بالفعل بعد بثها

بالدعوة ورسمها بالحروف والقول . . . وإنها لعنوان لكتاب العهد الجديد الذى يفتحه الإمام ، ويود بكل قطرات دمه وخفقات فؤاده أن يكون تنمة عصر الرسول لو أمهلت له الأيام .

فلعل ابن ثور حين جاءه تأنيب وعلة واعتراضه قد ذكر ما كان من غضب أصحاب محمد حين قدم عليهم زيدا مرة ، وأخرى ابنه أسامة . ولعله ذكر أيضا كيف استقبل محمد غضبتهم القى لم تؤججها إلا عصبية للجاهلية بقيت بغضبة أشد منها وقال :

« . . . لقد بلغنى أن أقواما يقولون فى إمارة أسامة . ولعمري لئن قالوا فى إمارته لقد قالوا فى إمارة أبيه من قبله . وإن كان أبوه لخليقا للإمارة . وإنه لخليق لها . . . »

وإن رשרاشة لخليق وإن توطأت به منازل الجدود ، وتاه حسبه فى غمار الجاهيل . . . »

وكذلك لم تحرك حمية المصيبة ، التى ود وعلة أن يثيرها فى قلب صاحبه ، شيئا من نفس ابن ثور ، ولا لقيت كلمانه سميعا لديه ، بل وجدده ييمث إليه بجواب يقطع عليه السبيل :

« أغن شأنك . . . فإننا نغنى شأننا يا ابن محدوج . . . »

ومضى بالرجال ، ومولاه على الراية ، إلى عسكر الإمام . . .

وتهااتف الناس وهم يرون خروج هذا الفريق الذى تنطق فى وجوههم الشجاعة ، ويرتسم العزم ، وتبدو علائم الجلد والصلابة :

« الغالب من كان معه هؤلاء . . . »

على أن علياً لم تكن به حاجة لجند يشد أزره ، ويرجع كفته على كفة خصومه فما رنا لغير الصلح ، وليس يسعى قط لإنشاج قتال . . . إنه ليود مخلصاً كل الإخلاص لو انثنت الطائفتان جميعاً عن الحرب ، وأصغوا لصوت الحكمة عسى الله يلائم الصدع ، ويجمع الكلمة ويم الصقوف . . . ولقد أبى فى هذا الوطن الذى رأى فيه جند عدوه عديداً يفوق جنده أن يستمد الناس ، عاماً كما

كان من قبل . . . وها هو يرد عون الأحنف بن قيس ، ويأبى عليه أن يأتيه  
بقومه مددا ، فكفاه الآن ما لديه ، فما يروم إلا الإصلاح . . .  
أقبل الأحنف حين رأى جعافل الإمام تشارف البصرة ، فقابل أمير المؤمنين ،  
ثم قال :

« يا أبا الحسن . . . إن قوما بالبصرة يزعمون أنك إن ظهرت عليهم غداً  
تقتل رجالهم ، وتسي نساءهم . . . »

فمجبب الإمام . . . أهى دعوى يا ترى بثها خصومه لتخذيل الناس عنه ، بل  
لجمعهم في صفوف مناوئيه حتى يتعقبوا مصيراً فاجعاً لن يتجنبوه إن هو انتصر على  
أولئك الخصوم ؟ . . . وهل لها وأمثالها في النفوس إلا إثارة الخصومة والمنازعة  
وإضرار نار الحرب التي عمل جاهداً على تسكين ثأرتها ، وهدم كل ما بناه  
في أساس السلم المنشود ؟ . . .

والتفت إلى الأحنف يجيبه في تأكيد تشوبه الزرابة بهذه الأباطيل :  
« ألم تسمع قول الله عز وجل : لست عليهم بمسيطر ، إلا من تولى وكفر ؟ .  
يا أحنف . . . إنهم قوم مسلمون ، وما مثلى يخاف هذا منه ! . . . »

فهدأت نفس الرجل ، واطمأن باله . وود في هذه الآونة أن يمد يداً بالنصرة  
لهذا الذي لا ينضح قلبه بغير الصفاء وخشية الله ، فقال :  
« أصلحك الله ! . . . أما لئن شئت أتيتك — »

وراح يعرض عليه عونه .

ولكن الإمام كره منه أن ينقض لأجله عهداً قطعه على نفسه للزير وطلحة  
بعد دخولها البصرة ، باعتزال القتال هو ومن تابعه من قبيلته والانحياز دون  
الرمي فيه بسهم إذا نشب بين الحزبين . . . كره نقض العهد وإن كانت له من  
ورائه قوة وشد أزر ، وقال له :

« وكيف بما أعطيت أصحابك من الاعتزال ؟ . . . »

فأجابه الرجل في حماس :

« إن من الوفاء لله عز وجل قتالهم . . . »

فلم يلق على جوابه بالقبول . . . إنه ليأبى عوناً يأتيه من نكث وهو المفتون  
بالمثل العليا ، المجاهد في انتصار مكارم الأخلاق . . .

وقال يسأله بعد قليل :

« فهل أنت مغن عن قومك يا أحنف ؟ »

« نعم . »

« فكف من قدرت على كفه . . »

وحسبه هذا منه إذ هو وفاء بالعهد . . .

وهكذا ظلت غيرة أمير المؤمنين على الصلح ، وحرصه الدائب على تدعيم  
أسبابه بغير انتهاز للفرص لدعم قواته ، ولا عدوان على المبادئ الأخلاقية من  
أجل إضمار خصومه ، وإن كان الموطن يوشك أن يكون موطن حرب ترخص  
فيه المبادئ ، وتصبح الكلمة فيه للسلاح والجنود . . . أما هو فالحلق القويم  
جنده ، والحلق سلاحه — الحق الأمثل الذي لا تشوبه الشبه ، ولا يتغير اتجاه  
وجهه مع الريح . .

## ٥

قال على :

« الكلام في وثاقتك ما لم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت في وثاقه . . . »  
هذه حكمة بالغة ، بقيت علماً على وفائه بالوعد ، ونهجا واضحا ألزم الناس  
هدية ، وحملهم عليه ما وسعه . وليس عهدنا بحديثه مع الأحنف بن قيس يبعد .  
وكانت شعاره منذ راود الصلح خاطره ، ومن البدء راوده — من اليوم  
الأول الذي أتاه فيه نبأ انقلاب عائشة وصاحبها عليه . فظل أبداً مستمسكا  
بكلمته ، لا يعل الصبر ، محاجزا دونها أن تفسدها وقعة . يبلغها خصومه على  
أحرف الكتب ، وفي حديث الرواة ممن سمعوه ، وبالسنة من استفسرهم وهو  
منها في وثاق شديد . . . ولقد بلغ من حرصه على أداء دعوة الوفاق غير ملتبسة  
بشبهة إلى الشعب وإلى المنتفضين ، أن كان يتخير رسله ذوى قدمة في الدين ،

وصحبة رسول الله ، ورأى تتلقاه الأذن بحسن الإصغاء . . . كان من دعائه لها عمار ، والحسن ، وابن أبي بكر الصديق ، ومحمد بن جعفر أخيه . . . وكان سفراؤه لأصحاب الجمل القعقاع بن عمرو ، وعبد الله بن عباس ، وحكيم بن سلامه ، ومالك ابن حبيب . وإنهم جميعا لخيرة . . .

وذاث يوم استعان أيضا بصاحب آخر من أصحاب الرسول ، له في الإسلام شأن وماض معلوم ، ولديه من نبيه بيعة قد تهدي القوم . ذلك أنس بن مالك . قالو ذكر الصاحبين لذكرا ، ولو عاد بذهنيهما المهقري إلى عصر النبي فلربما سما من بين غواشي الذكرى صوت محمد يحىء من القابر ، محذرا إياها هذه الفتنة الواقعة وما تكشفته عنه من حرب هما أن يشناها على ابن عمه وهما ظالمان له . . . إنه حديث مضى اسمعهما الرسول ، وشهدهما أنس يسمعانه من قم الإلهام . ولكنه إذ بعثه إليهما الإمام التوى به عنانه دون القصد . . . ذهب وعاد ولم يقم بما ذهب فيه . لم يذكرها الحديث وعندما سأله على عن نتيجة سفارته قال : « إني أنسيت ذلك الأمر . . . »

أنسيه . . . أخفا أنسيه ؟ أم أغفله ؟ . . . أم ركن إليهما ثم آثر أن يحتج بالنسيان ؟ . . .

ورماه الإمام بنظرة فاحصة يسر دخيلته . . . ورد عليه في هدوء رهيب : « إن كنت كاذبا فضربك الله بها بيضاء لامعة ، لا توارىها العمامة . . . » . . . وندع ابن مالك ومصيره ، ينبئنا التاريخ نبأه بعد حين . . . فقد حقت الدعوة عليه ، وأمضى حياته من بعد ملثم الوجه يخفى البرص الذي شاع فيه . . . وكذلك لم تفقد الإمام الوسائل عن استفتاء الصاحبين إلى السلم ، ولم تعوزه الرسل ولا الرسائل . وظل مقبلا على وفائه بوعدده . وحين نزل البصرة برجاله كانت لهفته على الصالح أشد . فما نحسب إلا أن بعض النفوس بها لم تخل من توجس ، ولم تمنح منها آثار ريبة وأصحابها يشهدون إقبال جنوده المجيشين في حشود حافلة صوب بلدتهم التي راودها الأمل فترة في السلام . . . وهل شيء أبعد عن أذهانها من الرجاء في وفاق يحىء في ظلال الأسنة المشرعة والسهام

المريشة ؟ . . . فلكل كتاب عنوان . . . وها هي الجحافل تنطلق إليهما كالسيول وفي خطوها تنطق الحرب . . . وها هي أداة القتال الرهيبة تشارفهم فنشارف معهم أداة مثلها ذات بأس شديد . أفئن ندت هنة عن رجل من فريق في حق خصومه أليست تسكفي أن تؤجج اظى الحرب . في هذا الوقت الذي توترت فيه الأعصاب ، قبل أن يسع الحكمة تدارك الأمر وكبح التحفيزين للصراع ؟ وهل تؤمن من كل أولئك شررة تطير فتسمر النار ولما يستقر بعد في قلوبهم الإخلاص للصالح المنشود ؟ .

فلعل علماً لم يغفل هذه النزعة التي انطوت عليها جوانح كثيرة وهو يقارب أصحاب الجمل ذلك اليوم بقواته . . . ولم يغفل معها أيضاً ما يبثه دعاة الوقيعة بين الناس لتوسيع الخرق كي يمز على الرثق ويهي الراتق . فما أن استقر به مكانه حتى رأى أن يبادر إلى العمل قبل أن تثير النفوس رؤية العدو عدوه يخطر آمناً على قيد ذراعه ومرمى رمحه ، فتلك تجربة شاقة على البشر يعسر أن يطبقها كل الناس ، ومحنة للقلوب التي أعمتها البغضاء والعداوة ، وإغراء لا يثبت له إلا من كان ذا سلطان غالب على مشاعره وقدرة قهارة تملك نزعاته .

. كان يعلم أن السلم أضحى بعض رأى الصاحبين ، فكذلك نقل إليه القمعاق ، ولما كنه من خلجات صعبهم على غير بيته . . . وكان يعلم أيضاً أن الصلح جرى كلمة على لسانيهما ثم علم القلبين عند الله ، فقد عا بذلاً له وعدا ونقضاه . . . وإذا كانا اليوم يعنيان حقاً السلام فيا ترى كيف إليه السبيل ؟ . . على أي أساس يريدان إقامة صرحه ؟ . . ما هي التفاصيل التي تبرم عهده فتحيله حقيقة واقعة بعد إذ هو مشيئة تحتاج في الصدور ؟ . .

ذلك ما لم يتبد له بعد في ضوء يكشف الغياهب عن النيات . . . نعمة حاجة به لاستنبائهما بقية شرح بعد الإجمال فلئن كانا أفرا للقمعاق بمجدوى « التسكين » — الذي لا بد جاء في أعقاب السلم — على الأمر الذي قاما فيه لأنه كفيل بتهدئة الأنفس ، عون على قتلة عثمان . . . وقبل أيضاً أن « يبايعا » ، فما أحد يدري على التحقيق إن كانا يعنيان البيعة على صلح مشروط أم على إمرة الإمام ؟ . . .

اللقاء إذن خير ما يحسم الأمر . ويكشف عما تكن الصدور . . . وهو  
أدعى إلى ترقيق الأنفس وميلها إلى اللين ، لما قد يشير من ذكريات قديمة  
عزيرة على المتلاقين تنقشع بها غيوم الحصومة . . .

وكان الزبير قد بدا على رأس جيشه ، تخطر فرسه به أمام الصفوف وهو  
دارع في الزرد والحديد ، متقلداً سلاحه ، تياها بياض له في الحرب عريق ، فما  
أن بصر به الإمام حتى لانت له أساريره ، وقال لمن حوله من رجاله :

« أما إنه أخرى الرجلين إن ذكر بالله أن يذكر ! . . »

ومضى إليه من لحظته حاسرا ، بغير درقة ولا درع ، غير ملق بالا لتحذير  
أعوانه ، وإهابتهم به أن يعد العدة لهذا الفارس الشاكي السلاح . . . مضى  
مزوداً بالإيمان وحده نحو خصمه الشجاع ، فإذا طلحة أيضاً هناك ، كامل التأهب  
كصاحبه ، تام العدة . . . ودنا منهما أمس دنو وأقربه حتى اختلفت أعناق مطاياهم ،  
وظن كثيرون أن قد جاء للنزال لولا أن رأوه أعزل . . . ثم راح يحدثهما في  
هدوء وعينه تتأجج نظراتها على جندهما المحشود :

« لعمرى لقد أعددتما سلاحا وخيلا ورجالا ، فهل أعددتما عذرا عند

الله ؟ . . . »

وأردف وإن بصوته رنة نذير :

« . . . اتقيا الله ! . . ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة

أنكاثا ! . . » .

فراحا معا يتثرانه النظر برهة من النظر قصيرة تحدثت في عيونهما خلالها  
الحيرة . . . إنه نفس الرجل ، كأن الأمس لم يذهب عنه ولم يطلع عليه يوم  
جديد . ذات القلب الراسخ ، والجبان الثبت ، والسكيان الوطيد الذي لا تنال  
منه عواصف الأحداث إنه أعزل . . . حاسر ولكن هيبته غطت هيكله كله  
بالدروع حتى حوافر المطية ! . . .

والتفت هو إلى الزبير فدعاه إليه ، وانحاز به ناحية بعيدة عن رفيقه يناجيه :

« ما حملك يا أبا عبد الله على ما صنعت ؟ . . . »

« أنت ! »

فمجب :

« أنا ؟ . . »

ولكنه عجب كان يشوبه بعض الإعجاب ، فقد كان يكبر فيه الصراحة التي تضع دائماً خفق قلبه على طرف لسانه . . .

وأنت هادئاً لرأى الزبير وهو يتابع الكلام :

« نعم أنت . ولا أراك لهذا الأمر أهلاً ، ولا أولى به منا ! . . »

« لست أهلاً له بعد عثمان ؟ . . »

« نعم . »

فلاح الأسف على وجهه على وقال :

« قد كنا نمدك من بنى عبد المطلب حتى بلغ ابنك — ابن السوء ! —

ففرق بيننا وبينك . . . »

عندئذ صاد بينهما الصمت . . لكان الزبير شام الحق في كلمات غريته فسكن يتدبر . . إن الحديث هاج ادكاره ، ورده إلى عهد غابر كان الصبا فيه غضا ، وكان الشباب ريان كبوا كير الزهر ! . . ذاك عهد جمعت فيه بينهما القربى وعظفت القلب على القلب ، ومضت بعده الأيام فوثقت الوشائج وزادتهما ألفة ، إذ وصل الإسلام بين الروحين في حب الله . . وطافت به الذكرى في ماضيه ، وبذلك المحنة التي شهدته ينحاز لابن خاله بعد موت الرسول ويقوم مناضلاً عنه ، مدافعاً عن حقه في تراث النبي وإن باء في سبيله بغضب الصديق ، وإن عصف بهما معا حنق ابن الخطاب فجمع الخطب حول دارهما ليجعلهما طعمة للحريق . . كم للذكريات من يد آسية تمسح حزازات الأنفس حتى لتوشك أن تطهرها تطهيراً من أدران الأهواء . . وكم لها على القلوب الذاكرة من سلطان يردها سيرتها الأولى كأنها وليدة لا تعرف الضغينة — لم تطعم لبان الحقد ، ولم تلقم ثدى البغضاء . . .



وبدا الصفاء هنية على أساريه . . . فلولا أن نعمة حجة لا تكف تعرض له  
ويمكن أن تثبت في مجال الجدال للآنت عريكته وألس قياده إلى ابن خاله . . .  
أما الآن فإنها تقطع عليه خيط ذكرياته ، وتنفى به ثانية إلى اللجاج فيقول :  
« . . . وأطلب بدم عثمان ! . . »

فهز الغضب العاصف نفس على لهذا الادعاء ، وقال بجفاء :  
« دم عثمان ؟ . . بل أنت وطلحة وليتاه ، وإنا توبتك منه أن تقيد نفسك  
وتسلمها لورثة الشيخ . . . »

أفيسعه يا ترى أن ينكر هذا الاتهام الذي ساقه إليه الإمام في غير لبس  
ولا خفاء فينكر معه ما وقع منه — وشهد به الناس — في حق الخليفة القليل  
من التآليب والتحريض وإثارة أعوانه عليه حتى نزل به القضاء ؟ . . دون هذا  
بغير شك ويصبيه الحسر ويستعصى عليه الكلام !

وأصرع على يتم حديثه ، لين اللفظ ، بادی الرقة هذه المرة :  
« يا أبا عبد الله . . . »

فانتبه الرجل من غمرة جزعه ، وألقى السمع .

« . . . نشدتك الله ، أنذكر يوم مررت بي ورسول الله متكئا على يدك  
وهو جاء من بني غنم ، فسلم على وضحك ، وضحكت إليه لم أزد ، فقلت أنت :  
لا يدع ابن أبي طالب زهوه ؟ فقال لك : صه ! . . إنه ليس بذى زهو ، ولتقاتله  
وأنت له ظالم ؟ . . »

فأغضى الزبير حتى لأوشك جبينه أن يعس صدره ، وغاض لونه ، ومشى  
بقلبه الندم كزحف الرقطاء وهو يجيب :

« اللهم نعم . . »

« فماذا تقول ؟ . . »

« لقد كان ذلك ولكن الدهر أنسانيه . . . والله لأصرفن عنك ! . . »  
وغادره ، لم يرد إليه طرفه والأسى يغشى عينيه بدمع التوبة . . .

. . . أما طلحة فكان منتفخ النحر ، عاقصاً قرنه كما وصفه الإمام ؟ . . .

إن ربوة من الطموح سامقة تحت قدميه ، تكاد أن تناطح به صفحة السماء .  
الأعوام الماضية كلها لم تذهب عبثاً . ولم تغب شمسها قط عن رجائه . . . إنما الأمل  
كان يسير بين يديه ، على وقع خطاه ، ويمهد له الطريق . وكان المجد السياسى  
شاغل قلبه وعينه . هو فى الليل رؤيا حالم ، وفى النهار حلم يقظان ! . . .

وكانت عشرين بل أكثر . أربت عدداً حتى أوشكت أن تصير نصف أيام  
حياته فى هذه الأرض . . . سنوات من الطموح الدائب كانت عمر آماله ، وكانت  
الربوة التى اعتلاها إلى هدف غدا الآن فى نطاق العيان وقيد البنان . فكيف  
يسعه أن يدع هذا البناء الشامخ وينزل — دفعة واحدة — من عليائه ؟ . . .  
كيف يهدم يديه ما غالب عليه الحدثان حتى استطاع أن يقيمه صرحاً باذخاً ذاهباً  
فى السحاب ؟ . . . أفهى هكذا من حالق بلغة لوم عابرة يأتيه بها ابن أبى طالب  
أو بكلمة عتاب ؟ . . .

منذ وضع أبو بكر قدمه على حافة قبره حلم الرجل بالمجد ، وتهاياً أن يتسربل  
بطيلسانه . فقد كان أحد قلائل من صحب محمد المختارين ، وفرداً فذا بمن قامت  
على أكتافهم رسالته . وكان أيضاً سيداً فى قريش ذا حول ، لا تطول قدره من  
بينها إلا قلة ، وذا قربى بالخليفة الأول وثيقة العروة . ولكن الموت لم يأت به بدهفه  
إذ أوصى قريبه لغيره بإمرة المسلمين فجاز بها ابن الخطاب . فلو كان أفضى بها إليه  
لاستقامت ، ولبغت شأوها وبلغ شأوه . غير أن نعمة شيئاً احتجز عنه هذا المجد  
فكان امرءاً فى غمار الناس أو يكاد ، لا ميزة له إلا سابقته . . . وكلا راح يتدبر  
كيف أغفله الصديق من حسابه عند الوصية وقدم عليه سواء ، امتشعر الهم ومررت  
نفسه . فتلک أعوام طويلة من الدأب لإعلاء شأن أمته ورفع كلمة الله كانت أمامه ،  
غير أنها مضت به فارغة إلا من المنى والأحلام . . .

وهو الآن يعيش أيضاً في الحلم . ولكنه حلم نحله حماسه بعض حرارة الحياة ثم أتته الأيام ببعضها الآخر . . كم طالما عابوا عليه شيئا يراه فضلا ويرونه نقیصة وكنظرتهم كانت نظرة الشيخين إليه . . فهو عندها واسع رحبة الأمانی ، إن أحسن اختيار التعبير وأريد الترفق ، يرى نفسه بغير أعین الناس ، وبغير أعینهما هما على الخصوص . وما زال حتى الآن يذكر كيف جبهه أبو بكر بصراحة تؤذیه ، لم تعرف الترفق ولا المداجاة في الخطاب ، عندما وجده يعترض وينسکر اختياره عمر أميراً للإسلام . . . قال له خليفة الرسول حينذاك :

« . . . والله لو وليتك لجعلت أُنْفَك في قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها ! . »

كأنما الاعتداد بالنفس كان شيئا يعاب . . .

وحق ابن الخطاب كذلك لم يكن أرفق من سلفه ، ولا خيراً له منه . كان يتحدث له بلسان صاحبه ، وبالمعنى الذي تنقله ألفاظه القديمة . ما من رجل فيهما وجد في اعتزاز طلحه فضيلة تعزز جانبه ، وترفع قدره على أقدار غيره من أصحاب الرسول . كانت العزة في معجمهما كبرا وعلوا ، وكان الاعتداد صلفا وزهوا . بل قد أوشكا أن يدعوا صفته غرورا يؤخذ به ويلام عليه . . . وما كان به غرور إلا أن يرمى رجل ، يستشعر في نفسه قدرة على الاضطلاع بالأمور ذات الخطر ، بمثل هذه النقيصة . . .

وها هو اليوم يرى عليا يؤازر الآخرين . . . ولو أنصفوا ثلاثتهم لكان حماسه شفيها له لأنه حافز قوى يدفعه إلى إحكام تدبير شئون الدولة لو أفضت أمورها إليه . فبقدر الرغبة يكون العمل ويكون الدأب فيه . ولو أنصف الثالث لراة حقيقة بالمكان الثاني بعده في الدولة — على الأقل — إذ كان وحده مقوض عهد عثمان . . . إن هذه الخواطر التي تتوج في ذهنه ، وهو يشهد الإمام يسير نحوه بعد أن فرغ من حديثه والزيير ، كانت تعدد ببعض ما يصلح حجة له في الجدل القريب . ولم يكن يغفل أن ثمة ثغرة في براهينه قد تغلبها عوننا عليه لا عوننا له . ولكنه فيما بينه وبين نفسه كان يؤمن أنه مخلص في طلبه بدم الخليفة القتييل

فقد رام عزله ، لم يرم قتله لولا أن غلب السفهاء ومضت بهم الثورة في غير سبيلها المرسوم من قبل ؛ لأن الثورات كالسيل ، إذا تحدر لم تعد بأحد طاقة على اعتراضه . . .

وبقى بعد هذا أنه شهد الأمة منقسمة على نفسها — أمته التي حلم طويلاً بأن يقودها في مطالع المجد قد فرقت بينها دعوته جيشين عدوين يتصاولان بالسلاح بعد المجادلة والنقاش . . . إنه لا ينكر أن بضعة من تبعه هذا الصراع تقع على كاهليه ، فلو أخذ برأى على من البدء وتلبث معه حتى يتفرق الناس وتنفى إليهم نفوسهم بعد مصرع عثمان لكان خيراً لهم أجمعين ، ولبقى للدولة تماسكها وظلت وحدتها وثيقة ، ثم بلغ من الجناة وطره . . . ولكنه لا يملك إلا أن يرى في هذه الفرقة ذاتها حجة له إذ كشفت عن جانب كبير من الشعب لا يدين لعل بالطاعة . هذا الجانب الذي يرى المبادرة إلى القصاص كان لا شك برما بسياسة الإمام ، برما كذلك بإمرته ، فما يعصيه وهو يواله . . . وهو أيضاً قوة لها خطرها ، لا يجدر أن يغفل شأنها ، ولا يستهان برأيها أو ينكر حقها في اختيار من تراه حقيقاً بتوسد أريكة الحكم من بين أولئك الذين تشمر نحوهم بالرضاء ولا تمنع عنهم الولاء . . .

وعندما أقبل على عليه ، وهم أن يحادثه ، كان الرجل قد أخذ الأهبة حتى لا تشغله الهيبة ، التي يحسها تقع بقلبه حين يرى ابن أبي طالب ، عما يريد مصارعة عليه ومجادلته فيه . . . وقف يتحفز ، ثابتاً في مكانه يروض نفسه على رباطة الجأش . . .

وسأله الإمام :

« يا أبا محمد ، ما جاء بك ؟ . . . »

فبادر من فوره بحجب :

« دم عثمان » .

« قتل الله من قتله . . . »

أتعريض ؟ . . . أعنى على أنه يلصق التهمة به كما رماه بها غيره كثيرون ؟ يكاد

هذا أن يكون . فذات يوم قال الإمام فيه :

« . . . والله ما استعجل متجردا للطلب بدم عثمان إلا خوفاً من أن يطالب بدمه لأنه مظته . ولم يكن في القوم أحرم عليه منه ، فأراد أن يغالط بما أجلب فيه ليلبس الأمر ، ويقع الشك ! . . . »

ومع ذلك فتلك الحرارة التي أحسها طلحة في دعوة خصمه ، والتي استشعر معها رجفة بفؤاده إذ صاحفت لفظانها القليلات سمعه ، لم تستطع رده عما عزم عليه ، بل مضى يقول :

« إنك ألبت الناس على عثمان . . . »

فكان الجواب الذي تلقاه ، وعلى قد طوفت بثغره بسمة إشفاق ، وغطى الهدوء قسبات وجهه وعيناه ترنوان للسماء :

« يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين . . . »  
عندئذ صمت الرجل . لقد كان أولى به أن يسير قدماً إلى بغيته دون التوصل بكل هذه المنازع التي تبعده عن هدفه ولا تدنيه ، وتضيف وقرأ آخر على ضميره الذي أثقله الندم على ما فرط منه في حق عثمان . . . . . وحين سمعه أن يلوذ ثانية بالهدوء الذي أوشك أن يعصف به هدوء هذا المظلوم البريء ، راح يقول بغير تلثم وفي إصرار عجيب :

« فاعتزل هذا الأمر ! . . . »

« أعتزل ؟ . . . »

« نعم . ونجعله شورى بين المسلمين . فإن رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن رضوا غيرك . . . »

فهذه هي القضية ؟ . . . هذه هي النية الخفية وراء قصة القصاص ؟ . . .  
وقال على ولما تختلج فيه جارحة :

« أو لم تبايعني طائفاً غير مكره ؟ . . . »

« بايعتك والسيف على عنقي . . . »

فصابر لم يدع هدوءه ، وقال له :

« ما كنت لأكره أحداً على البيعة لي . . . ولو كنت مكرهاً أحداً

لأرهب سعداً وابن عمر ومحمد بن مسلمة ، أبوا البيعة واعتزلوا فتركهم . . . »

ولم يكن طلحة بحاجة لمن يذكره قصة البيعة ، وماتم فيها ، ومبادرته إلى كف  
على يسبق إليها الناس بالولاء . لم يكن به حاجة إلى من ينقل له صورة صادقة  
لذلك اليوم القريب إلى الأخلاق وقد كان هو بمن رسموه وسطروا أحداثه في سفر  
التاريخ . . . ولكنه الآن غيره بالأمس . تبدلت به الحال غير الحال . ومالت  
المشاعر فقال . هذا الصرح الباذخ من المني والأحلام عزيز عليه هدمه . فلقد  
أخذ من حياته أعواما توشك أن تكون نصف عمره ، وأوفى به على الغاية  
اليوم . . . الحلم القديم هم أن يشرق وتسقط شمس ، وما أعسر على النفس أن  
تنفض الأكف من أحلام المجد ! . . .

في لحظة غدا الرجل كما وصفه ابن عمه خليفة رسول الله . يجعل ألقه  
في قفاه . . . الزهو والكبر والاستعلاء سدت دونه مسالك التفكير ، فلم ير  
أحداً أحق منه بالأمر ، ولا هذا الذي عاهدته علانية على الولاء . أم لا فكيف  
إذن نقض البيعة وحنث في اليمين ؟ إنما له حجة تؤازر النكت وتقوم ذريعة  
تبرره ، ونبش الماضي حتى عثر بها في أطلاله ، ثم نهض يرمى بها وجه غريمه في  
اعتداد وخيلاء :

« يا على . . . كنا في الشورى ستة ، فمات اثنان . . . وقد كرهناك نحن

الثلاثة ؟ . . . »

شورى عمر عادت ثانية إلى الحياة ؟ . . . لوح بها طلحة كما يلوح بسيف ،  
وقد حسبها البرهان الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! . . .  
لقد يعجب المرء كيف يراها الرجل حجة له تؤيد دعواه اليوم بعد أن دالت في  
الغابر ، ولكن عجبه يخف هونا بغير شك إذا تدبر الحال النفسية التي كان عليها  
طلحة في هذه الآونة التي حاج فيها الإمام . . . إنه ليتحدث بمنطق من يتصيد  
الأدلة ولا دليل ، فكانت حجته تلك قشة العريق ! . . .

ومع ذلك فلنر إلام سوف تسوقنا ذريعته ، وإلى أي مدى تستطيع أن تظاهره  
وتسند ادعاءه . . . فقد جاء عمر غب الطعنة بشوراه وهو يتعرج أن يوصى  
بالأمر لأمريء بعينه ، أو يدع الناس يختارون لأنفسهم فتقع بينهم فتنة تؤدي إلى

الاتقسام . وكان يخشى كلا السبيلين ، فاختار نهجا وسطا لأمة . وحدد نفرا من خيرة صحب الرسول حبس فيهم خلافته ، ومنحهم وحدهم الحق في اختيار الخليفة . فكان نهجه هذا ترشيعا وانتخابا في آن . . . .

فمن كان أولكم الناخبون المرشحون ؟ .. ومن بقى منهم في الحياة اليوم ؟ .. رأيهم أقرب أن يعهد إليه زملاؤه بالأمر ؟ ..

هم الآن ثلاثة سوى الإمام : طلحة ، والزبير ، وابن أبي وقاص . بايع اثنان ونكثا ، واعتزل الثالث . ومن كلا النكث والاعتزال استخلص طلحة حجة لازعومة ! . . .

وأول ما ينقض هذا الزعم الممتسف أن شورى عمر كانت وصية تفد الغرض منها بعد أن تمت البيعة لعثمان . فما يسع عاقلا أن يراها خالدة على الزمن تلزم الناس بعد انقطاع عهدهم بصاحبها ، وبعد انتقال العهد منه إلى غيره ، لأن الحق في الإيضاء غدا خلفه دون سواء ، ولم يوص الخلف الأمة بشئ . فهي وصية واجبة النفاذ ما بقيت بغير نفاذ ثم تذهب ريحها بذهاب الظرف الذي أوصيت فيه والسبب الذي شرعت له . . . فمن عجب أن يبيع طلحة لنفسه تحميلها غير ما تطيق ! . . . .

وثاني ما يدحض تلك الحجة ، لو ترفقنا بها وسرنا وزعم طلحة ، أن اثنين بايعا واعتزل ثالث ، فصحت إذن بيعة الإمام بثلاثة أصوات . ولا عذر عليه في نكث الناكثين ، بل الإثم يلزم من نقض العهد وحنث باليمين ! . . . .

ولكنها — كما أسلفنا — حجة من يعتسف الحجة ويتصيد الأدلة ولا دليل ، والقشة التي يحسب الغريق أنها عاصمته من الغرق ! . . . . فما زال طلحة يحلم بالمجد ويجهد لبوغيه من أى سبيل ، وإنه ليمد بصره فيراء دانياً منه لولا هذا الذي يسد عليه المنافذ ويفسد الوسائل . أفما يحق له أن يعمل على تنحيته من طريقه لعل نفحة من الحظ تواتيه فيختاره الناس أو يحتلب هو النفوذ حين سانحة تعن له أو تسوقها إليه الأقدار ؟ . . .

وهز على رأسه أسفاً لهذا اللجاج الذي آثره الرجل على الحاجة بالدليل والاحتكام إلى البرهان دون التزليل . وهم يغادر المسكن عائداً إلى صفوفه وإن نفسه لحزينة على رفيق ماضيه . فما كان شئ أحب إليه من هدايته وتألف فحماسه . . . وما سار مسيره هذا إلا ليستقيته إلى موطن الحق والوفاء . . . على أنه مع ذلك رأى أن يرد عليه زعمه قبل أن يبرح ، فلعل الله أن يبيء له رشاده . . .

قال له مصابراً ، في رفيق وهوادة :

« يا أبا محمد . . إنما كان ألا ترضى قبل الرضا وقبل البيعة ، وأما الآن فليس لك غير ما رضيت به ، إلا أن تخرج عما بويعت عليه بمحدث . فإن كنت أحدثت حدثاً فسمعه لي . . . »

فلم يجب بشئ . وهل كان بمقدوره أن يجيب ؟

وعاد الإمام — وقد شهد حسره — يعاتبه ، عسى أن يمينه العتاب على نقاشه فالاعتناع من بعد . . وكان عتاباً كله مرارة وامتنكار :

« . . أليس أعظم الحدث أن أخرجتم أمكم ؟ . . أكان رضا لرسول الله يا أبا محمد أن تهتكوا سترأ ضربه عليها وتخرجوها منه ؟ . . »

« إنما جاءت للاصلاح . . »

فابتسم الإمام بسمة فيها عجب وفيها زراية :

« يا أبا محمد . . هي لأمر الله إلى من يصلح لها أمرها أحوج . . . »

وبعد عنه . . .

وحين بلغ صفوفه ، وسأله صحبه عما انتهى إليه الحديث قال :

« أما الزبير فقاده اللجاج ، ولن يقاتلكم ، وأما طلحه فسأته عن الحق وأجابني بالباطل . ولقيته باليقين ولقيني بالشك فوالله ما نفعه حق ولا ضرنى باطله . . »

ثم رمى بعينه إلى بعيد . . إلى المجهول الغائب عن رأى الميون والضائر ، واثنى بعين تجول فيها دمة ، وهو يهمس — كأنما لنفسه — بصوت خفيض :

« أما إنه لاقتول . . غدا . في الرعيل الأول . . »



٧

أعن رهبة وضعف وانهيار عزم ؟

كثيرون حسبوا هكذا الأمر . ظنوا حرصه على السلم كان وليد خشية تملكه كلما جال ذهنه فيما حشدوا له من رجال وعدة قتال . . فلعلهم إذن نسوا ماضيه ، وذلك التاريخ الحافل الذي انقضى به وفي كل صحيفة منه سطور خطتها شجاعته ، ورسمت بها صورة له فريدة بين الأبطال ، غاب عنهم ذلك الفارس القديم المقدم ، الذي شهد الزمن في مطالع الإسلام معلماً مجلى لم يبلغ شأوه من قبل ضريب ولا من بعد قرين . أنفذتهم الأعوام عن حقيقته فاخفت عنهم وراء ستر النسيان ؟ . . أم قرنوا الظن بتقديم عمره وقد خاض السن التي يلين فيها العزم وتهافت الصلابة ؟ . أم لافأثر الدعة والسلامة تأنياته في نعومة الحياة ؟ . . بلى قد رأوه بأعين حدسهم عدا عليه هرمه ، وركن للتخاذل ، ودبت الشيخوخة إلى عزيمته ديبها في ملامحه حتى أصبح وليس له من فروسيته الأولى غير ذكرى تراود الذاكرات . .

وكانوا في حسابهم مخدوعين ! . . لو استطاعوا نصفاً لأنصفوه . ولكن ظنهم دفعهم عن الحق ، ومشى بهم عن الغاية . فلم يكن فحسب خطرة من الخواطر العابرة تجول في الخلد ثم تفر كأن لم يكن لها من قبل كيان ولم يعد بقاء ، بل مضت حديثاً تلوكه الأفواه ولغطاً تبعته الألسن زراية وسخرية ، في السر والعلانية . فكم أرجفوا بوهنه ، وبجبنه . . . وكم عيروه وعابوه حتى لقد طال ما كان يدفع ويقول :

« . . ومن العجب بعنهم إلى أن أبرز للطعان ، وأن أصبر للجلاد . . هبلتهم المبول ؟ لقد كنت وما أهدد بالحرب ، ولا أرهب بالضرب . وإني لعلّ يقين من أمر ربي ، وغير شبهة من ديني . . »

ولكنهم رأوه قولاً لا ينضح بغير المباهاة بماضيه ، والاعتزاز بهمة له غربت في الغابر . . أما أمسه فذهب إلقبساً خافئاً كأنه لمح النجم خلف

الغيوم . . . وأما الحاضر فشمسه مشرقة على آفاق عالم من آمالمهم فسيح . إنهم على ثقة منه ، فيما يتصل بهم من دلالاته وأحداثه وما يتصل به . . . وأما الغد فهذه أمامهم بشأره ، كطلع الزهر وبواكيره ، كلما رنوا بالميون إليها ازدادوا إيماناً بنصر قريب .

لقد كانت الأنبياء تأتيهم بخبر رجال يظاهرونه ، شدوا إليه المطى وانتظمتهم صفوفه ، ولكنها جاءتهم أيضاً بنبأ كثيرين تخلفوا عن ركابه وكثيرين خيخوا أمله فيهم فنقضوا عهدهم له باعتزال القتال مؤثرين الانحياز إلى جانب أعدائه عوناً لهم وحرباً عليه . . . فما كان شئ أبعد عن وهم أصحاب الجمل من أن تواليهم طائفة من رجال الأحنف بن قيس . أما اليوم فقد غدا ما عز على الوهم والتصور حقيقة واقعة . وبعد أن كانوا يرهبون عشيرة الأحنف حتى تألفوه وسعهم ليعتزل بها عن النزاع بوادي السباع ، أصبح الرجل عاجزاً عن امتلاك عنان أعوانه ، وانشق عليه منهم فريق كبير التحق بخصوم الإمام . . . هذا أمر لم تخف عنهم أخباره ، بل قد بلغتهم بشراه . فما أن نادى الأحنف قومه إلى الاعتزال حتى نهض المنجاب ابن راشد يهيب بفريقه منهم :

« . . يا آل الرباب لا تعتزلوا ، واشهدوا هذا الأمر . . . »

وهتف بعده أبو الجرباء :

« يا آل عمرو لا تعتزلوا . . . » .

وصاح هلال بن وكيع :

« يا آل حنظلة لا تعتزلوا . . . » .

وكذلك اختلط على الأحنف رأيه ، وجرت الأمور بغير ما شاء ، وبتقيض

ما وعد به الإمام .

وقال الرجل يعاتب هلالاً :

« أفلا ترى الاعتزال ؟ . . . »

« بل مكاتفة أم المؤمنين . . . »

فصمت لم يعقب . وأهاب حزينا بمن أطاعه أن يتبعه إلى معتزله فلعل خاطرا

راود ذهن هلال إذ ذاك دفعه أن يغرى شيخه بالعدول عن عزمه ، فقال  
في مصانعة وكبرياء :

« أفدعنا وأنت شيخنا وسيدنا ؟ . . . »

فرماه الأحنف بنظرة ، وأجاب وصوته يقطر المر مع الكلام :  
« إنما أكون سيدكم غدا ، إذا قتلت وبقيت ، فأنا الشيخ المعصى وأنت  
الشاب الطاع . . . ! »

ومضى عنه بمن أطاعه من بني سعد إلى وادي السباع . . .  
كان هذا نصرا بغير شك ، حازه أصحاب الجمل قبيل القتال . فتلك فرقة  
لها حسابها في المعركة المقبلة ، كانوا يخشونها على أنفسهم ، ثم زادوا بها الآن  
نصيرا ومنعه . . . أما البصرة فعدت اليوم دار أمان ، يسعهم أن يسندوا ظهورهم  
إليها وهم مطمئنون بعد أن غادرها أولئك الذين كانوا ذوى هوى مع الإمام .  
وإذا كان للوفرة أثرها في ترجيح الميزان فلسوف إذن ترجح كفتهم ، وتشيل  
كلمة العدو لقلة معينه . ولن تشهد الواقعة القادمة غريمهم إلا واهنا بنفره ،  
يرقون عنه كما يرق الثوب الشفاف . . . أما هم فجندهم كثير ، وأما عديدهم  
فوفور ! . . .

نعم قد بدت الغلبة الآن إلى أين تميل ، وفيمن منهما تكون . ولو صدقت  
الأنباء لكان ابن أبي طالب في عشرة آلاف من الأولياء ينضحون عنه أمام  
ثلاثين ألفاً أعز وأوفر . فقد خرج من المدينة في سبعمائة ، ثم تلبث بذى قار حتى  
صاروا سبعة آلاف ، ثم انطلق بهم صوب ميدان الصراع فزادوا ألفاً أخرى  
أو ألفين ممن لحق بهم من القبائل الضاربة حول المكان . وأسخى الأنباء قد زعم  
له جنداً لا يبلغ غير نصف جندهم ، أو أكثر من النصف بقليل . فهلا كان هذا  
بشيراً لشمسهم بالإشراق ، نذيراً لشمسه بالأفول ؟ . . .

غاب عنهم الصواب فأخطأوا الحساب . أم كان ابن أبي طالب بتقديرهم بأنه  
لنصر وحده ويسمى إليه ؟ . . لو مشوا معه بدرب عمره خطوة بعد خطوة  
للقنهم حياته درسا حقيقيا على الدوام بالتذكر ، كفيلا بأن يديه لهم كما جبله طبعه .

فما هو بالفتون بالغلبة هباب الهزيمة إن جرعت كأسها دنياه . ولكنه رجل حب الحق بضعة من طبيعته ، وكلفه بنشدانه يأخذ عليه كل مسالك تفكيره . كذلك انقضى به صباه ، وتصرم شبابه ، ومضت عهود الكهولة والشيب . وأولى بهم إذ صاحبوه أزمانا أن يذكروا له هذه السجية التي لم يتنكر لها قط حين فعل أناه . أم كان يقدم في باله النصر ، ويتهاى ليستقبل الفخر يوم الخندق لما وقف يصاول عمرو بن عبد ود وكانوا في الجاهلية يقومونه بنحو ألف من الفرسان . أم شام الغيب فرآه ينطوى على ظفر ينتظره عندما انقص على حصن ناعم من خير وقد ترس عن نفسه يباب حتى أصاب الفتح الذي استعصى قبله على أبي بكر وابن الخطاب ؟ .. أم حسب الموت لا بد سيعدوه وقد رقد برقد رسول الله ليلة الهجرة وكل قريش تظنه محمداً وما منها إلا رجل قد شحذ سيفه وتهاى أن يرويه بدم هذا النائم في لفائف الفراش ؟ ..

فيما سلف من سنيه كان يومه صورة ماضية ... صورة لا تقي تتكرر كل مطلع صباح فلا تختلف في الدقائق التواقه عنها في سابقاتها قبلها فضلا عن الخطوط البارزة والشكل العام ... ذات المادة ، وذات الألوان ، وذات الأضواء والظلال . كان آنس بالموت من الطفل بشدى أمه ، يسعى مشوقاً إلى غواشيه لا يرهب مأتاه . ويسير تحت ظله أو هجيريه ، في رحابه أو دروبه ما رأى الحق غاية للسير . فلم تكن الشجاعة ثوبا اكتساه إنما بضعة من أعصابه . . .

ولكنها قريش القديعة عادت تفترى عليه الأكاذيب ، وتجهد لتنتقص منه وتنكر عليه سبحانه . كشأنها بالأمس مع رسول الله ودت أن تخدع عنه الناس . وهي اليوم تريد أن تخدعهم عن الإمام فما خدعت إلا أنفسها حتى لبستبد بها الغرور قتراه على تقيض ما سوف تراه . وليس موعد اللقاء بينها وبينه بعيد . . .  
أما هو فكان راضى البال إذ سلك نهجه المستتير وإن خالفوه ، فقد أوفى ما عليه الله إذ دعاهم إلى الكلمة السواء . إنه لا يطلب النصر بل ينشد الحق ، ولينقبن عنه خاصرة باطلهم حتى يخلص إليه بسن الحسام بعد أن وهن صبره دون حماهم بالحسنى على التزام الجادة :

« ... والله لقد قاتلتهم كافرين ولأقاتلتهم مفتونين . وإني لصاحبهم بالأمس كما أنا صاحبهم اليوم ! ... »  
كم فيهم ممن تفتت إلى قلوبهم دعوته السمحاء ؟ . . . بضعة لا تغنى عن البقية ، غير ذات خطر لا تملك شيئاً ولا تقوى على إبرام شيء . . . حتى طلحة نأى بجانبه وآثر أن يسير وهواه ، وامله يتشرع للحرب تشرع أولئك المفتونين الذين ضمهم ركابه ، ومضى يتهاى للوقعة الكبرى يحسبها ورجاله سوف تحسم الأمر وفق ما يشتهون . . .

فلعل الله أن يهدي الرجل كما هدى رفيقه منذ قليل . إن الأمل في الوفاق لم يغب قط عن قلب على ، ولم ييارح تصوره . حتى في هذه اللحظة التي أشرعت فيها الأسنة الحديدية وسلت السيوف الظمأى كان ما زال يطمع أن يكون الله قد ادخر للشيخ مخرجاً قريباً من الخلاف الذي نفخ في سعيره . فما أضيق المدى بين الهدى والضلال ، وما أرقه من فاصل ، كأنه شعرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار . . . وإن هي إلى خطوة إلى عين أو إلى يسار تكتب المصير ! ...  
وكان الإمام يأمل أن تجحج نفس طلحة إلى اليمين ! . . . كلما كر بذهنه إلى ماضى الرجل : وتلك الأيام الأولى من عمر الإسلام التي شهدته يبلو في الله أحسن البلاء ، رآه أكرم على الله من أن يفرق به شمل الأمة التي كان له بعض الفضل في تشييد بنيانها الركين ، وزاد إيمانا بأنها محنة موقوتة لن تلبث شدتها أن تزول . . . كان الرجاء في على يكاد يسبق الحقائق البغيضة ويود لو يحجبها عنه . وكان اهتداء الزبير إلى الجادة يوشك أن يعلا قابه إيمانا بقرب اهتداء صاحبه وميله عن هواه . أم الزبير كان أهدي بصيرة وآثر من رفيقه عند الله ؟ . . .

تأبى الرغبة إلا أن ترسم للمرء صورة المستقبل الذي يشتهيه ، وكذلك فعلت رغبة الإمام . حبه السلام أفعمه ثقة في نجاح دعوته إليه ، ويقيناً بتلبية خصومه ندائه الذي سيوثق عرى الوحدة بين فريق الإسلام . ولم يكن شعوره هذا وهما كله ينبعث من الأصداء التي ترددها نفسه النقية ، بل الواقع أيضاً أمدّه ببعض الثقة وبعض الاطمئنان فلقد شهد كيف أسلس الزبير ، في اللحظة الأخيرة ،

مقاده ونزع عما كان فيه . غدا رجلا غير ما كان ، وفعلت كلمة واحدة بنفسه  
ما لم تفعل عشرات من الكتب والرسائل طالما حملت له العظة والعتب واللام ،  
وبضعة من الرسل والسفراء عجزوا عن تألفه ، في شهور وأيام . . .

وكانت كلمة كأنها السحر . . ليست تلك التي أنبأته بما أنسيه من حديث  
رسول الله ، بل أخرى فتحت قلبه ونقته حتى أحسن استقبال ذلك الحديث . .  
وكان هذا قبيل التقاء الجمعين ، ذلك اليوم انشهود من جمادى الآخرة بساحة  
القتال إذ ذاك كانت طلائع الزبير لا تني تروود له الطريق ثم تعود إليه بأنباء  
تحرك جيوش الإمام . وكم من رائد أتاه ، وكم من نبأ بلغه حتى بدت أجناد على  
قيد النظرة من البصرة فجاءه النبأ الذي حول تيار أفكاره إلى غير مجراه . . .

أقبل عليه أحد طلائعه يقص ما استقصاه ، ثم قال :

« . . . ثم لقيت عمار بن ياسر ، فقلت له . . . »

فما تركه يتم بقية الحديث ، بل صاح به كالنفزوع :

« ابن ياسر ؟ . . . إنه ليس فيهم ! . . . »

« بلى والله أيها الأمير . . »

« والله ما جعله الله فيهم ! . . . »

واعجب أنت مع الشاهد الذي يكذبه غائب عن موطن مشاهداته . . .

وزد عجباً من الزبير وهو يعمى في التكذيب والإنكار كلما أكد الرجل صدق  
نيته . . . أما الرسول فقد امتلأ حيرة ودهشه من موقف أميره منه وهذا القلق  
الذي رآه يغشى وجهه لخبر كهذا من عرض الأخبار . وأما الزبير فلم يجد معه  
التوكيد ، ولم ترحزحه الأيمان ، بل مضى وإنسكاره وإن كيانه ليهتز من فرط  
خوف خفي ملكه فصيره مثل ريشة في مهب إعصار . . .

وكأنما شاء أخيراً أن يخرج مما أوقعه فيه ذلك الخبر المزعج المخوف فهم يقطع  
الشك باليقين . . وهتف ببعض أهله ، وصوته تعتريه رجفة تسكاد أن تنثر بها  
حروف الكلمات :

« اركب وانظر أحقاً ما يقول . . . »

ووقف في غمرة من فزعة غامرة ينتظر فصل الخطاب . . .  
ولكن الذى خشيه هو الذى كان . فما رأى مبعوثه يعود حتى سأل كالمهوف  
« ما عندك ؟ . . »

« صدق الرجل »

فبغتة الجواب . ونال منه أشد منال حتى صاح ، ثم هاض ، ثم تماسك جهده  
ومضى يفر في زحمة الناس . . .

وكان جون بن قتادة واقفا ينظر ، لم يخف عنه شيء من القصة منذ بدأها  
الرائد ، فقال هامسا لنفسه وهو مشدوه :

« هذا الذى كنت أريد أن أموت معه أو أعيش معه ؟ . . ثكلتنى أمى !  
والذى نفسى بيده ما أخذ هذا ما أرى إلا لشيء قد سمعه أو رآه من رسول  
الله . . . »

ولقد سمع الزبير حقاً من رسول الله ما خلع قواده ، إذ ذكر ، ورده إلى  
الصواب . سمع بنياً الفئة الباغية التى ستقتل ابن ياسر فأشفق أن يكون الأجل  
سوف يوافي في هذه اللحمة نفس عمار . . وسمع أيضاً كلمات محمد عن قتاله عليا  
هو ظالم وهذا مظلوم ، فرضى من أمره بالفرار . . .

وكذلك تفتحت نفسه للحق ، وفعلت كلمة عابرة فعلها فيه . . . كلمة واحدة  
كان لها ما لومضة البرق الخافظ إذ تنير لمدلج بليل فيتبين على سناها معالم طريقة  
بعد طول تخبط في الظلام . . . أفما آن أن يصغى طلحة لمثيلة لها ترده عن غيه  
وتنوء به إلى جماعة المسلمين فيتحقق الوفاق ؟ . . .

ليس هذا على الله ببعيد . فما أقرب المدى بين الهدى والضلالة ، وما أرقه  
فاصلا كأنه شجرة دقت كما يدق الصراط بين الجنة والنار ، تحدد المصير فيه خطورة  
إلى يمين أو أخرى إلى يسار ! . . .

الجمال



جو ساج ، وليل داج ، قرت الريح فيه بعد ثورة ، وصمت ما كان من عزيفها  
الذى شابه عواء الذئب وزئير الليوث الغضاب . . . الطبيعة الشكلى رقات دمعها  
ولاذت بالسكون الحزين ، تكاد تكتم الشهقة والزفرة . وأسدت على وجهها  
نقاباً كثيفاً من الظلام يخفى عن العيون الوجيب المكنون . . . والضوء الباهت  
الذى تخاف عن القمر الغارب كان كالطيف يلون جوانب السماء بخيوط شاحبة  
من نور كلا نور ، تنشر الظلال كأنها أعلام سبقت موكب الظلام . .

ولكنه هدوء مرسوم موهوم . بدت سماته في الأراضى الوسطى ، ولاحت  
آياته على رقعة الأفق النعسان . إنه طلاء . أو هو الجلد الناعم المرقش اكتسته  
رقطاء . . أما الحبيء فنار حامية في جوف بركان ، تتعين لحظة اندفاع للانفلاق .  
لا خباء في العسكرين كان باطنه كظاهره يشيع فيه الهدوء ، بل كانت قشرة  
من السلام تغشيه وفيه حم وضرار . . بل العيون المسلمة جفونها لهدأة النوم  
قد غمضت أيضاً على توجس . بل النفوس الحاملة بالدعة تهيئها في أعقاب الفجر  
قد تنازعت في أحنائها ملائكة السلم ومردة القتال . . .

وكان الرجل من القوم إن خلا بنفسه يتفصل اثنين لهما كيانات : في أحدهما  
قسوة المحارب ، وفي الآخر رقة المواطن الوديع . . وكانت الحيرة هي التي تشطره ،  
تارة مع الرجاء ، وتارة مع الطيرة . فإذا تقاسمه الهم الذي يحالف الحيران ،  
أسلم عينه للنوم لو أنه استطاع ، أو همام خياله في وادي حدس تملؤه أشباح من  
الروى والأوهام ، أو مال إلى رفيق يبادل فكره بفكرة ، ونظرة بنظرة ،  
ثم تسلمهما معاً يد الوسن إلى الغامض المجهول الذي ستيغزغ عليه شمس الصباح . .  
لا أحد فيهم حاد به الليل عن التخمين إلى اليقين . كلهم كان من حيرته  
في بحر لجى عجاج الأمواج لا يدرى على أى شاطئه سيكون مرساه . . .

حق الإمام المفتون بالسلام كان موزعا بين القلق وبين الرجاء ، يود لو ترفقت به  
وبقومه رحمة الله فأزلت السكينة عليهم أجمعين : أولياء وأعداء ... وحق طلحة  
اللائذ بمحمد الحسام ، السافر اللدد والحصام ، قد اشتهت عليه التائب ، أصبح  
وفي يده سيف النسلخ من إهابه أو قر في قرابه ؟ . . . آية الوفاق التي استجابت  
لها نفس رفيقه قد زعزعت إيمانه بشبوب نار القتال ، واحتدام الضرام ، تليه  
لدعوة الانتقام . . . بل الزبير أيضاً لم يكن من موقفه على بصيرة . استبان له  
الهدى في المهادنة والتزام الجماعة والنفى إلى الطاعة ، ولكنه كان كالسائر على  
شوك من آراء أعوانه يعوق وصوله إلى مبتغاه الرشيد . . . وعندما حسب أنه  
سيجد نصيراً له في أم المؤمنين كان مجاوزاً حدود الواقع الذي تنتهى عنده الثقة  
في التفاؤل . فما أقرته السيدة على نظرتها الجديدة التي هي توبة بعد حوبة ،  
بل رده رداً زلزل فيه الفرحة بنشidan الحق ووجدانه وكادت أن تدفعه إلى  
جانب الباطل الذي أوشك أن يتحرر من إساره وما كاد . . .

أقبل الرجل عليها في حياء ، يتخير من الكلام ما يحسن التعبير عن الراحة  
التي يحسها بعد إذ قابل وحادث الإمام ، فقال صافي النفس خفيف الضمير من  
وقر ما اجترح وأصاب :

« يا أم المؤمنين . . . إني والله ما وقفت موقفاً قط إلا عرفت أني أضع  
قدمي فيه إلا هذا الموقف ، فإني لا أدري أمقبل أنا فيه أم مدبر . . . »  
فإن هي إلا نظرة أرسلتها إليه حتى عرمت خبيثته . . . لأمر ما توصل الرجل  
بهذا الحديث الناعم الذي يتبطن بالتوبة . . . ولغاية يكتمها كان يسوق كلماته  
لينة ، عسى أن يلقي منها ما يعينه على الكشف عما يحثيه . . .  
ولسكنها لم تترفق به ، ولم تل له في الإفاضة بالاعتراف ، بل هتفت وثيدة  
اللفظ تقطع سبيل الكلام :

« يا أبا عبد الله . . . أظنك فرقت سيوف ابن أبي طالب . . . »  
فصمت كالبهوت . آده هذا الهجوم المفاجئ الذي شنته عليه ، وهذه  
السخرية المرة البادية من خلال كلماتها الرقيقة وبسمتها التي تفيض بالهكم .

ولم ينبس بشيء ، بل وقف صامتاً وقد عاجلته سراحاً بما جمد اعتذاره فوق شفثيه :

« . . . إنها والله سيوف حداد ، معدة للجلاد ، تحملها فتية أنجاد . . . ولئن فرقتها فقد فرقها رجال قبلك يا أبا عبد الله . . . » .

غير أنه كان أمراً بعيداً عن الجبن والخشية ذلك الذى دفع الزير إلى اختيار الموقف الجديد وإن لاقى من ابنة أبى بكر الزراية . فكم تنكر للعق الناس ، وكم استقبلوه بالميون العشواء لا ترى فيه النور لأنها انطوت على ظلام وقام . . . وندع الرجل وما أصبح فيه ، قلقاً قد لعبت بقلبه التوبة المطهرة وعبثت بنفسه الريب المحيرة ، يطوى ليله ساهر الجفن تذود الكرى عنه أفكاره ثم لا يفقد الرجاء قط فى أن يأتيه الصبح القريب بما قد يضى على ضميره الهدوء وللصمائية . أولم يعلم أن المستمسك بالحق أثناء فتنة كمثل القابض على جمرات النار ؟ . . .

بلى قد علم فبقى على رأيه ما وسعه البقاء ، وكمثته كانت طائفة رأت الحق حيث كان فى جانب الإمام ولكنها لا تعلم أن ترد نوازي الشر أن تعبت به وتفوض أركانه فأسلمت الأمر إلى يد القدر تنسج مصيره كما تشاء : سلماً مجزية أو جرباً عادية باغية . . . وكان نمة طائفة أخرى دانت بالباطل وانساق له وهى موقنة أنها إنما تطاهر الصواب وتنضح جاهدة عنه ، تلك ساء ما تراه . . . أما الثالثة فأصحاب البهتان تلبسوا بالوزير والضلالة ، وضع أمامها النور اللائى فأثرت اللياد بالظلمة العمياء . وإنك لسمع طرفاً من أنبائها بعد حين ، عندما ينجاب الغبار عن حلبة القتال مخلفاً على أديمها جرحى وشهداء . ولكنك قبل الواقعة المقبلة لن تسمع لها نامة ولن يسرى إلى أذنيك منها صوت لأنها رجال ليل ، يعملون فى الخفاء مستترين بسجف الظلام وغفلة النيام ، رواق المساء مسبخهم كأنهم خفافيش . . .

أولئك كانوا أعداء على وأعداء أعدائه على السواء . بل هم عدو الأمة والدين . الحفنة التى ليس لها من حياة إلا فى الفرقة ، بين مسيل الدم ومهوى الأشلاء .

غايتهم الذات يروون غلتها من أى سبيل . وهدفهم أشخاصهم التى استهوتها الدنيا يسعون إلى إشباع نهمها من المخطوط والمآرب ، وما كانوا قليلين حينذاك . . .

ما كانوا قليلين لو حسبنا كل ذى هوى فى إنشأب القتال كى ينال طعمة عاجلة ، أو يحقق مطمحاً قديماً عز عليه من قبل تحقيقه ، أو يسترد جاهاً فقدّه إذ دالت دولة عثمان فعلم أن لا مكان له فى دولة الإمام التى لا تعرف التحيز ولا تستهدف خير أفرادها إلا وهم كيان وثيق العرى ولا تراهم فرادى مفرقين . كل أولئك كانوا دعاة القتال والتفرق ، ود الواحد منهم لو استطاع أن يشب نار الحرب كما يشبها فى هشيم . وغبرهم أيضاً فرقة موتورة وأخرى وائرة ، هذه شركت فى الثورة التى أودت بحياة الخليفة القليل نخشيت إن كان صلح أن تقوم دعائمه على رقابهم التى سيحتزها القصاص ، ولك ونزها الإسلام إذ غرا قلوبها وأراضها فأسلت على ضغن ، وراحت تصانعه وتصانع سلطانه عسى أن تجيئها لحظة النار المرقوبة ، ذات يوم قريب ، فى ركاب فتنة كهذه يختلط فيها الهدى بالضلالة ، وتشتبه على الناس الدروب والطرائق ، ويغم عليهم اكتناه عقبي الأمور . . .

هنا يهمس التاريخ كرة أخرى باسم ابن السوداء ، يهودى اليمن الذى أبدى الإسلام واندس بين أهله ليفسد عليهم عقائدهم السمحاء ، ويفرق جمعهم شيعاً تسود فيها شريعة الخصام . وكما هى الحال المألوفة فى أمثاله من بنى جنسه وملته تحمل إلينا الصحف التى رددت ذكره أنباء ما طوى عليه صدره من عداوة للدين الناشئ وللأمة الفتية هى صورة مما طواه اليهود كلهم من قديم من الغل والضعينة لكل شعب عاشروه منذ وصم وجودهم على الدنيا جبين البشرية . . . فلم تكن الأمة الإسلامية وحدها مستقر بفضائهم بل جرى الحسد والحقد فى شرايينهم مع الدماء ينوشون بهما جميعاً الشعوب والأفراد . وعداوتهم الآن حلقة من سلسلة طويلة طول الدهر ، ممتدة مع الزمن حتى تظهر منهم الأرض . . .

فى تلك الليلة تحرك ركاب الشيطان ، وامتدت يده الشائكة تقلب مهد الفتنة وتكشف جمراته . وكيفما كان الدور الذى لعبه اليهودى الآثم فقد اندلعت النار وعلا لهيبها يصيب وجه السماء . انطلقت من قربها السيوف وتطايرت الأسيهم

المريشة تروى الأرض الظامئة من سيل الدم . . . أما التاريخ فقد وقف وقفته  
يمرض موكب الحوادث ولا يعنى بأن يحدث الأجيال من أين كان مبدأ مسيره .  
إنه لا يشير إلى ابن سبأ إلا بايعة كأنه خالق الخطر الناشب ، أو كأنه بعض  
خالقيه ، أو كأنه خط من خطوط تكتمل به الصورة . فهاهنا لا تتفق الروايات  
المنقولة بل تختلف هونا حيناً وتباین أحياناً أشد التباین . تارة ترى الصحائف غفلا  
من اسم اليهودى الحاقدة قد تطهرت من حروفه حتى لتحسب ذكره مضى في قبر  
الغابر ، وأخرى تجده بادياً من وراء السطور والكلمات . فإذا ركنت إلى  
التوفيق جهدك بين هذه الروايات المختلفة لم يستعص عليك أن تقر للرجل بنصيب  
من الفتنة القرية لا ينكره عليه ما ألفناه من ماضيه الموسوم . . .

نعم قد أدلى ذلك الهدام بدلوه مع غيره من الدلاء حتى نشبت الحرب التي  
شاءت لو تجنبتها أحلام العاملين للسلام ، وكان ذلك وراء متر كفيف من ظلمة  
المساء ، تلك الليلة الشاتية في جمادى الآخرة قرب مسجد الحدان . عندئذ جرت  
خواطر اليهودى حتى ظن أن الوفاق سيلاّم الفريقين من أصحاب طى وأصحاب  
عائشة لأما يجمع الشمل ويرتق الفتق فلا ييسر عليه أن يكيد كيداً للإسلام الذي  
قرح قلبه . فإن هو أن ظن ظنه وخشى خشيته حتى قام يؤلب ويحرض وينفث  
في أسماع من أصغروا إليه سم الرقطاء .

تخير له فرقة ممن غلبت عليهم الوسوس وراوا فيما سلف منهم خلال محنة  
عثمان شبهات قد تبدى أكفهم أمام الناس ملطخة بدم الشيخ المقتول . . أولئك  
الذين شركوا في الثورة الدامية وآذن الصلح المرجو أن يجعلهم أكبش القصاص .  
أفيسر عليه أن يحسم مخاوفهم حتى يثيروها حرباً طاحنة تقضى على الوفاق قبل  
أن يقضى عليهم الوفاق ؟ ...

وكذلك أسروا القدر والناس نيام . وما علم أمرؤ قط سوام بما بيتوه ،  
ولا وضحت نياتهم الخفية حتى تحت صحوة الشمس والمركة محتدمة الأوار ،  
ولكن التاريخ حدثنا عنهم وأبلغنا نبأهم بعد حين بعيد ، عندما سكن النقع  
وتوالت الأجيال تباعاً جيلاً في إثر جيل ، فلم يخل حديثه من قصد في دقة الرواية  
وإسراف في شطحة الخيال . . .

٢

أغرق الرواة في الخيال أيعا إغراق عندما أضفوا على ابن سبأ روعة الأساطير...  
الرجل كان حقاً ذا كيد ، غرق النفس في بغضائه ، يضرر للإسلام عداوة ليست  
تخفى تحت أثواب ورعه . ولكننا لا نستطيع أن نرى أصابعه وراء كل فتنة ،  
تنسجها خبوطا ثم تحيكها ملاءة من نار تلف الأرض والسما . . .

لنكاد أن نحمله فوق ما تقوى عليه طاقته لو أصغينا لكل ما سطر الرواة  
عنه . ولنوشك أن نلمحه مارداً جباراً يعلأ الفضاء الرحيب بهيكله الضخم إن  
ألقينا العين على الصورة العجيبة التي تبدت لنا من بعض صحف التاريخ . أما  
الهدم فكان ديدنه ، يحاول أن يتولى به الكيان الإسلامى بغية تقض بنيانه . وأما  
الحقد فكان مركبه إلى غايته الملبسة بإثم الآثام . غير أنه لم يكن بقادر على خلق  
الحوادث أو ابتكار المناسبات التي تؤلف لجة يسبح عليها شراعه . إيعا كان  
يتربص بها ، وينتظر تدبير القدر أن يعينه ، فإذا وقع حادث نفخ في رماده  
المتهب حتى تستشرى النار . . .

كذلك كان دوره أيام عثمان ، وكذلك هو الآن ، ينتهر الثغرة التي ينفذ منها  
بتدبيره اللثيم . وهو إذ رأى بوادر الانقسام بين الأمة ، ودخان الحرب الأهلية  
يكاد ينبىء عن كارثة عامة ، لاحت على شفثيه بسمة شيطان . . . فلما أن حسب  
الصالح سيؤلف بين جميعها سارع بصوغ أحابيله . . .

ومن العيب أن نظنه وحده عدو الوفاق . بل كان فرداً بين طوائف  
وجاعات قادتها الأهواء العمياء إلى اختيار طريق التفرق . فلو قد خلصت  
النيات حينذاك وأجمع الشعب رأيه على الألفة ولأم الصدع لما كان وسعه أن يضار  
الوحدة المنشودة . ولذهب كيد حصة في محيط . . . ولكن التاريخ ألبس الرجل  
غير طيلسانه حتى بدا من خلال السطور كأنه السبب الأول ، بل الأوحد ،  
لإنشاب القتال بين أحلاف الجمل وبين على وما كان غير عامل واحد بين كثير  
غيره من العوامل والمسببات . . .

وحين يعرض الرء سيرة اليهودى على ضوء الحوادث المتعاقبة منذ جأر بفتنته الدينية حتى وقعت الواقعة ، يكاد يحزم أنه لم يتبد في الميدان سافراً صريحاً إنما شرك في دواعى الفتنة الجديدة من خلف ستار ، متخفياً بالظلمات في مسامح الحفافيش ! . . . وهل كانت قصة الرجعة التى تأولها على التنزيل السماوى لا تموق تقدمه ولا تحد شيئاً من اجترائه على الدنو من صفوف الإمام ؟ . . .

بل قد كانت حرية بأن تقتضيه ذماء روحه وخفقة أنفاسه فى هذه الحياة لو أنه أقدم غير هيب للانضواء تحت لواء ابن عم الرسول . وعندما نخلاله غريراً واهى التبصر وقد سمى إلى اللحاق بمسكر على والسير فى ركابه فإنما نحرمة مكره وزاه قد مشى مختاراً إلى حتفه ووضع رأسه بين فكي الليث ! . . . وليس الرجل بالساذج الغرير . وليس على بالذى يغفر له قط تأويله الأثيم ويشتري منه نصرته بما سلف من افترائه على الله . بل قد كان أولى بمن هو مثل الإمام الذى لا يساوى فى حق الناس ، ويعالج بالسيف تحيف بعضهم على بعض ، أن يعالج هذا اليهودى الصابى على تنزيل السماء بنفس تلك الأداة . وما نحسب إلا أن صفحة من التاريخ كانت حرية بأن تبدو لنا اليوم ، دامية مروعة ، تنقل لنا نبأ ما أصاب ابن سبأ من عقاب رادع على يد الإمام جزاء وفاقاً لافترائه على الله . . .

نعم كان هذا أدنى إلى الحدوث لو أن الرجل وقع بين أصابع على فى ذلك الحين ، ليكون أمثلة لسواه من أصحاب الرجس ، الداعين إلى الفتنة ، البائين الخرافات فى ثنايا العقيدة ، ولكن بعده عن الإمام فى هذه الفترة أولاً ، ثم فيما تبعها من الأيام بعد ذلك حتى نهاية عهد على قد جنبه — فيما نعتقد — جزاءه الرهيب . فإذا تركنا جانباً غلواء التاريخ إذ أرانا الرجل عاملاً فى صفوف على ، متصراً له عند البصرة قبيل الواقعة . فقد ييسر أن نراه خلف الصفوف ، متربصاً بالفريقين الدوائر حتى تحين فرصة يضرب فيها ضربته وهو قابع فى الظلال . . . فما سوى الحفاء ميدانه ، وما الظلمات إلا مسارب خطاه .

غير أن هذا الافتراض نفسه حقيق بالتدبر لو أننا أخذنا بما بقى من رواية الرواة . فقد حدثنا التاريخ فى شطحته أن ابن سبأ استمال إليه رجالا بمن شرك

في دم عثمان راح يحضهم على إنشأ القتال خلصة والناس نيام حتى يأمنوا أن ينال منهم القصاص الذي لا بد واقع بهم عندما يرم الصلح ويتم الوفاق . ولنا ننكر على اليهودى ترتيب مثل هذا التدبير ، ولا البعث بيضعة من العقول الواهنة التي تستجيب لنزغها ووسوسته ، فما هو إلا شيطان ، ولكن قصة المؤامرة المبيتة في الظلام تجاوز الحقيقة في بعض سطورها وتبدي لنا أسطورة نسجها الخيال ولفقتها الأغراض عندما نلقى العين على أسماء أبطالها المتآمرين فيطالعنا من بينها اسم الأشتر : مالك بن الحارث النخعي أخلص رجال الإمام . وهل يسع المرء إلا أن يحزم بأن هذا الاسم النبيل قد أقحم إقحاما في هذه الرواية في عصر لاحق بغية النيل من براءة صاحبه ، وإلقاء ظل من الشبهة عليه يوهن موقف على إذ يديه ضالما مع قتلة عثمان ؟ . .

إن التاريخ نفسه يجار بأن اشتراك الأشتر في مؤامرة ابن سبأ كان أكذوبة ، ودليلنا على هذا سيرة النخعي وخلق على . فما شرك الأشتر قط في اغتيال عثمان ولا علق به من دمه رشاش . وإنما كان رجلا بمن أساء الخليفة القليل إلى مواطنهم ، فاستشعر إنكاراً كان به يعبر عن الشعور العام الذي شمل بقية الأقطار ، وهب هبته كغيره من دعاة الإصلاح يبغي إفاءة العدل والطمانينة على البلاد . ولم يكن أيضاً رجل خفاء ، يحسن تدبير المؤامرات ، بل كان شجاع القلب يجاهر برأيه ولا يكتمه وإن أضرت به الصراحة وتركته هدفا سهلا لنقمة الخليفة ورجال عهده الذي لاحق أصحاب الشكايات بالتشريد والعسف والنكال . . . انظره كيف نقد تصرف عثمان وعاب سياسته في كتاب إليه خاص حين كان غيره لا يجاوز بشكواه دائرة الهمس والإسرار . . . كتب إلى عثمان إذ ذاك يقول :

« من مالك بن الحارث إلى الخليفة البتلى الخاطى » ، الحائد عن سنة نبيه

الناشد لحكم القرآن وراء ظهره . . . .

أما بعد : فقد قرأنا كتابك . فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسير الصالحين نسمح لك بطاعتنا . . وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا وذلك ظنك الذي



أرداك فأراك الجوو عدلا والباطل حقا . . . وما محبتنا فأن تنزع وتوب ،  
وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا . وتسيرك صلحاءنا ، وإخراجك إيانا من  
ديارنا ، وتوليتك الأحداث علينا . وأن تولى مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى  
الأشعري وحذيفة ، فقد رضيناها . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك  
إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله ، والسلام . . .

ولسنا نعرف أن امراً يبطن غدرآ ويبيت النآمر للخلاص من خصمه  
يسدى لهذا الخصم النصيح الذي يرفع من قدره ، ويصلح أمره ، ويرده مرضيا  
عنه من كل الناس لو أنه احتذاه ، إنا الغريم الذي يتها لتسديد الضربة القاضية  
هو من يكتم خطواته ويملى لغيره في الغي والفساد . وما كان الأشتر من هذه  
الشاكلة ، بل قد شاء لو صلح إمامه فصلحت الرعية بصلاحه ، وقام من لدنه  
يهديه إلى محجة الصواب

فإذا استقصينا بعد هذا الأسباب التي أحقت الأشتر على عثمان وأثارت فيه  
كوامن الخصومة ، رأيناها في جماعها تكاد أن تكون مطلبا « إقليمياً »  
لا يعدو إبدال حاكم بحاكم وأمير بأمير يسوس أمور بلدته الكوفة خيراً مما  
ماسها سلفه المكروه . وعثمان في نهاية الأمر قد استجاب لهذا المطلب ونصب  
أبا موسى بعد سعيد ، عاملاً برأى ناصحه ، فلم تعد إذن شمة حاجة بالاشتراك  
إلى الإقامة على خصومته دع عنك تبييت القدر وتدير المؤامرات . ولعل أبرز  
ما يظهرنا على صفاء ما بين الرجلين أن عثمان ، حين اشتبكت عليه الأمور  
وضاقت حلقة الحصار ، بعث إلى الأشتر يستنصحه ويطلب منه المشورة التي  
تكشف عنه البلاء وتفرض جموع الثوار . . . قال له :

« يا أشتر ، ما يريد الناس مني ؟ . . . » .

فأجاب دون إخفاء :

« ثلاثا ليس من إحداهن بد . » .

« ما هن ؟ . . . » .

« يخبرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول : هذا أمركم فاخاروا له من شتم ، وبين أن تقص من نفسك ، فإن أبيت هاتين فإن القوم قاتلوك » .  
« أما من إحداهن بد ؟ . . »

« ما من إحداهن بد » .

فلو كان استغشه لما استشاره ، ولو كان المشير يضر العذر ويرجو الإيقاع بالمستشير لخدعه عن شأن عدوه ، ولأخفى عنه حقيقة موقفهم منه . غير أن الأشر كان تقيا أمينا يبتغي رضوان الله وصلاح الشعب والخليفة عندما قام يناهض عثمان . وكان كذلك جديراً بسيرته التي لم تلبس بالشبه والمظنات ، وبالثقة التي أودعه على إياها فيما أقبل من الأيام لأن طبائع النفوس لم تكن لتستغرق على فراسة الإمام . . . . وهل كان صفي محمد وأطيب الناس بعده خلافاً وخلاتق بالذي يستصفي غادرا وهو الذي قد وصف مالكا بعد انقضاء أجله فقال : محمدا الوصف في خير مقال :

« كان الأشر لي كما كنت لرسول الله . . »

وكذلك يظهر أن ظلال الاتهام التي شادت أن تلتصقها بالرجل رواية الرواة لم تكن غير نسيج وهم متدائب ، أو عقل كلف بالافتراء وصياغة الأباطيل أراد أن ينتقص من قدر على خلال التحصى . . . . وليس هذا على طبيعة الأمريين يعيد .

وندع جانبا هذه الأسطورة الباغية التي ود ملفقوها أن تنال من قدر الأشر ومن نقاوة صحيفته ثم نردد ما بقي لنا من سطور التاريخ التي لم تدمغها شطحة الخيال ولم تشبها الأهواء والأباطيل فكيف نرى الرجل إذ ذاك ؟ نراه رزينا لا ينطلق كغيره مع المغالاة وإن منهم لكثرة بالغة من أعداء الإمام كانوا بالأمس حربا مشبوبة اللظى على عثمان غدوا بعد مصرعه يدعون لأنفسهم ولاية دمه والتصاص له . . . . وما تعالى إذ تقرر أن الأشر قد أنكر اندفاع الثوار وركوبهم بالعنف خليفتهم حتى قتلوه . . . بل قد اعتزلم ولم يدل في فتنهم بمنطق لسان دع اشتراكه بسيف وسان . بل قد كره عدوانهم على الشيخ وإهراقهم

دماء الحرام حتى ظن الناس أنه لن يفتر عن اللحاق بعن دعوا بدعوة النار ...  
قال علقمة ، وقد عجب إذ رآه لا يؤازر طلحة وأعوانه ، على خلاف ما كان  
يتوقع منه :

« قد كنت كارها لقتل عثمان ، فما أخرجك بالبصرة ؟ » . . .

فأجاب معبرا عن طبعه الذي يأبى القدر ويكره نقض العهود والمواثيق وهو  
يعنى ما كان من خلع طلحة والزبير طاعة الإمام من بعد ولأ :  
« إن هؤلاء بايعوه ثم نكثوا ! . . . »

فلغير هذا العف الطاهر يساغ سوق الاتهام . وما كان مثله بالفرير الذي  
تستهويه بدعة أو تفتته ضلالة وإن أزجيت إليه بلفظ معسول على ألف لسان  
ولسان تندلع بكلمات يهودى اليمن من شدة الشيطان ! . . .

### ٣

من أخرج الجمر من رماده ؟ . . من نافخ البوق للقتال ؟ . . من أشعل  
النار في الهشم ؟ . . .

سليل إسرائيل ؟ . أم رجل في القوم سواء ؟ . أم أفراد أنطوا على مثل  
غدره وتبييته ؟ . ليس هذا بذى أثر ، ولا كان محولا تيار الصراع عن مجراه .  
ولو قد سكن الرجل لوقعت الواقعة ، وإن تأخر الزمن بها قليلا إلى ساعة من  
نهار ، بعد بضع ساعات . . .

أما الآن فداهمة الأمر دهمت الناس حين غفوة وهم رقود ما زالت تنادم  
الأكثرين منهم في الكرى أحلام السلم . . . كان كل من في العسكريين آمنا ،  
ظن هدأة الليل جنة وقته شرة القدر القادر فأسلم مصيره إلى طلحة الصبح . غير  
أن الغسق أتى باللمة ، فلما بزغت الشمس بعد قليل على أرض البصرة ، كان  
شعاعها الدامح كأنه خيال الثرى المصبوغ !

وهب اليهودى سكنت نفسه تلك الليلة ونام عنه شيطانها ، أليس نعمة أنفس أخرى كانت تأكلها اللهفة على إثارة القتال ؟ . . . بلى وكثيرا . . . وعندما ننشرها للإحصاء قد يعيننا الحصر . وإذا وسعنا أن نستقصيها فلن نراها جميعها كذات ابن سبأ سوداء ضليعة . بل في أصحابها أناسى على إيمان . أم ابن الزبير يملكنا الشك في حسن إسلامه ؟ . . .

إنه لا ريب واحد ممن شغلهم القتال حتى ودوا لو أنهم تعجلوه . ولم يكن يخفى شغفه ، ولا احتجازه لنفسه دون أن يعدى به سواء . إنما قد راح حينذاك يبسطه كبسط البنود ، وعندما آثر أبوه أن يقعد عن الحرب ، وينفى إلى الحق والطاعة ، ثار به حتى آذاه . . .

قال له الزبير ، وكان حديث الامام قد ألان شكاسته وعطفه إلى التزام السلام :

« ... ما لى فى هذه الحرب بصيرة .. »

فصاح به عبيد الله :

« إنك قد خرجت على بصيرة ، ولكنك رأيت رايات ابن أبى طالب ، وعرفت أن تحتها الموت فجئت ا . . . »  
« ويحك ا . . . »

ولم يشفع له عند ابنه أن يعتذر بقسم أقسمه ألا يقاتل الإمام ، بل قال له القى العنيد المشغوف بالقتال :

« كفر عن عيذك بعق غلامك . . . »

تلك صورة من صور تظهر لنا مشاعر طائفة من القوم ، كثيرة العديد ، لم يأبهوا للسلم ولا ارتضوه وإن لم يسيطر على قلوبهم ما يملك فؤاد ابن سبأ من الزيف والإلحاد ، وإن لم يبطنوا مضرة للإسلام . فلو غاب اليهودى عن الميدان ولم يقدم خديعته فى أطواء الظلمة ، لقاموا عنه بإشعال الحرب فى واضحة النهار . . .

ومع ذلك فالقطرة الأولى من الدماء المسفوحة لم تكن بنت الليل ، كم من راو أتأتنا أخباره أن طلائع الصراع بدت مبكرة ، قبل أن يوغل الليل فى مسيره ،

وقبل تهيؤ مواكب الظلام لاستقبال باكورة الفجر . . . ثمة ضحايا لقوا مصارعهم تحت سرادق النور ولما يولد المساء — رجل ، ثم بضعة ، من سحب على ، أصابتهم الأسنة الغدارة وما التقى الجمعان في ساحة وغام .

ولكن الإمام تحاجز دونهم بصبره . مكثت عن العادين وفي نفسه بقية من أمل أن تسترقهم سماحته فتفتح قلوبهم للوفاق . قد كان يطمع أن يصنعوا أخيرا لمنطق العقول الرشيدة والحكمة المنجية الهادية وإن لجوا بدءاً في غيهم وسايروا هوام إلى مداه . فعندما نزل البصرة أول نزوله قنت لربه مخاضاً أن يهدي غاويهم ويؤلف عاصيهم عسى دماؤهم ألا تهراق . ولما اصطفوا أمامه ، جموعاً في سلاحهم شاكين ، قد باتت سورة الوغى في مآقيهم ، دعا جنده أن يصابروهم ولا يبدأوهم يعدوان وطعان :

« . . . لا تقاتلوا اقوم حتى يبدأوكم ، فإنكم بحمد الله على حجة . وكفكم عنهم حتى يبدأوكم حجة أخرى » .

غير أن الذي تبطره الكثرة وتعلـكه السورة وتقوده الغدرة ليس يهديه رفق ولا تسامح . وكذلك كان أحلاف الجمل ذلك النهار أو كان سوادهم الكبير كثرة غادرة مهتاجة . فما هو أن بدت لعيونهم أجناد على ، عند الحافة الأخرى من خندقهم ، حتى بدأوا العدوان .

وسقط امرؤ علوى أول ساقط في الساحة ، وقد أصمى سهم خرق إلى صدره خباء الهواء . . . لم يكن آخر ضحية طل دمها وذهب مهدراً دون ثأر ذلك اليوم قبل إعلان بدء الوقعة ، فما هر الاعتداء من على هدوءه ولا أخرجه عن الترفق بالعدو المقتال . . . ولم يكن أيضاً الضحية الوحيدة بل أتبعها السهام العادية ضحايا تترى ، كأنما حسب أصحاب عائشة أنهم إذ يرمون أخصامهم يتلهون بصيد سانحات من الطير ! . . .

وغضبت لهذا التحدى طائفة من رجال على ، أقبلوا يحملون صاحباً لهم بمن دهمهم إحدى تلك الرميات وحملت إليهم المنون . فلما أصنى إليهم الإمام هتفوا به يقولون :

« يا أمير المؤمنين هذا أخونا قد قتل . . . »

ولبثوا ينتظرون أمره . أفضالهم بغير ماردده عليهم من قبل كلما حملوا ضحية منهم اقتنصتها سهام الخصوم ؟ بل قال كما اعتاد أن يقول :  
« أعدروا إلى القوم » .

فلم يتسع حلمهم هذه المرة اتساع حلمه . وقال ابن أبي بكر له وقد أخرجه عن طوره ما قابل على به بغى القوم وتحديهم من هوادة لغير أهل ورفق نظير قتل :

« إلى متى ؟ . قد والله أعذرنا وأعذرت إن كنت تريد الإعذار . والله لتأذن لنا في لقاء القوم أو لنصرفن . . . »

وكأنما أحس الفتى أنه جاوز حده فأردف وفي صوته رنة من الندم يشوبها أسى عميق :

« . . . يا أمير المؤمنين ، إلى متى نستهدف نحورنا للسلاح ، يقتلوننا رجلا رجلا ؟ . . . »

فلعل هذا الحادث وأشباهه كان آية الأمل الذى ظل يراود بضعة من النفوس فى أن ينتصر السلم . العدوان المتواتر من جانب عسكر الجمل فت فى عضد على ، وأثقل قلبه ، وطمس آية الوفاق التى تبدت فى أفاق أسكاره كنجم غائر فى جوف الظلمات . ولم يبق من رجاله أحد إلا أقام على خشية ، لا يستريب قط فى أن عدوه سيدهمه حين لحظة تحين . . .

ومع ذلك فجمعهم قر تلك الليلة . ولانت له المراقدة فأسلم العيون للنوم إسلامه مصيره إلى الصباح القريب . ما حسبوا قط أن ليلهم خادعهم وحامل إليهم فى أطوائه الوغى القتالة . . . وكيفما كان الدور الذى لعبه ابن سبأ فهو دور كان حقيقا أيضا به سواء من خصوم الإمام الذين تلبست نفوسهم بالنهم إلى الدم . فما يدرى امرؤ من أين أنت أول طمئة ، وأى صدر من الفريقين استقبلها والغلس ينشر ظلامه كشيئا على المضارب والأخبية التى ملأها الجنود . وعند ما نصفى قليلا إلى رواية التاريخ نسمع كيف وصفوا لنا اضطراب العسكرين فى عماية الظلمة

والسلاح يشق صدورهم ونواصيهم وفي حسابان كل فريق منهما أن عدوه قد بدأه بالعدوان . وبين ظن الظنون ورحم التخمين يتيه أول عاد ركب الناس بصدوره في مراقدهم ، وتضل الحقيقة حتى يعسر أن يهتدى المرء منها إلى رأى قاطع وحكم حاسم صريح . . .

فليكن إذن ابن مباح مشعل النار ونافع البوق للقتال . ليكون هو قبل سواء — لا دون سواء فكثير غيره إلى الفرقة ساع وإلى الدماء منهوم ! . أما الواقعة ف وقعت منذ انطلق أول سهم في جوف الليل ، ضريراً يندفع عن غير بصيرة ولا إحكام تصويب حتى استقر بصدر أو نحر . . . وقعت ، ودهمت داهمتها الناس وهم رقود ، فاءوا إلى المضاجع في أحضان حلمهم بالسلام . . .

واندلعت ألسنة الحرب . واختلط القوم من الفريقين شر اختلاط وأبغضه ، يضرب بعضهم وجوه بعض وما يدرى الرجل أ يقتل رفقائه أم يقتل أعداءه . فمن عجب أن تختار سهام الرماة ورماح الكماة أقرب أناس إلى قلوب أصحابها وأحبهم إليها . . . كانت تختار لها أهدافاً من الأهل والمشيخة . ذلك أن رجال طي عندما نزلوا البصرة رأوا أن يسكروا تجاه أبناء قبائلهم من جند عائشة ، فنزلت عن الكوفة إلى عن البصرة ومضر إلى مضر وريعة إلى ربيعة وكلهم يظنون أن صلحهم قريب . . .

وانطلق على إلى الغمار وقد فجأته الضجة التي علت على غير توقع يهيب بالجموع التي ملكتها حمى القتال .

« أيها الناس ، كفوا . . . كفوا فلا شيء . . . »

فكان صوته يخرق في الضوضاء كما غاب هيكله عن العيون في الظلمة الكثيفة ، لا يكاد امرؤ أن يراه أو يسمع دعواه . . .

ومال إلى رجل دان يسأله عما دهى الناس ، فأجاب :

« ما فجأنا إلا وقوم منهم يبيتونا فرددناهم من حيث جاءوا ، فوجدنا القوم

على رجل . . . »

عندئذ قال ونفسه تسيل أسى وموجدة على ما انتهت إليه حال رعاياه من

تفرق وانتشار :

« لقد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ،  
وأنهما لن يطاوعانا . . . »  
فكأنما صبرا بأحرفها في فمى غريميه تنطلق كلاما عبر عما ظناه ، مآلا  
أصحابهما عن الداهية ، فلما قالوا :  
« طرقتنا أهل الكوفة . . . »  
أجابا وهما يسترجعان ، بنفس ما قاله فيهما الإمام :  
« قد علمنا أن عليا غير منته حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة ! . . . »  
وكذلك أخذت الريبة على كل فريق مسلكه إلى التفاهم والمصافاة مع الفريق  
الآخر ، وسدت دونه الطريق . . . فإذا الحكمة تتوارى ، وإذا العقل يهبط ،  
وإذا المنطق الرشيد يخلى المنبر ليخلفه السيف البتار . . . »

## ٤

أنتم على طوافه ثلاثة بين رجاله ، ثم رفع المصحف أمام عيونهم في عناه ونادى  
وما زالت بقلبه أمل أن تتدارك الناس رحمة الله :  
« أيكم يأخذ هذا المصحف يدعوهم إلى ما فيه . . . وهو مقتول ؟ »  
فنهض له الفتى الكوفي الصغير — نفس ذلك الحدث الذي أجابه إلى دعوته  
مرتين من قبل وإن نفسه لتفيض حماساً ولهفة ، وإن لمح عينيه ليتلهب من  
عزيرة وتصميم :  
« أنا يا أمير المؤمنين . »  
فأشاح برهة عنه . ودلو الغلام تأخر عن هذه المهمة لمن هو أقوى منه  
وأشد لحاد عن المنون بشبابه . . .  
وقال الإمام وعينه ترقب الشاب :  
« . . . فإن قطعت يمينه أخذه بيساره ، وإن قطعت يساره ، أخذه  
بأسنانه . . . »



فلم يحتاج في انقلام جارحة من خوف . بل زاده التلويح بالخطر الذي ينتظره :  
تمسكا بعزمه .

ودفع على إليه أخيراً بالمصحف .

« اعرض هذا عليهم ، وقل هو بيننا وبينكم . . . والله في دمائنا ودمائكم » .  
فانطلق الفتى به في الغمار مزهواً ، ينطق تطلق أساريره ، وتلك البسمة التي  
شاع نورها في حياه بمقدار فرحه ، كأنه يسير إلى عروس مجلوة ساعة زفاف  
وإن قباه الأبيض ليعلمه ويزيده رواء على روائه . . .

ووقف جند الكوفة في صفوفهم يرقبونه تكاد قلوبهم أن تسير حوله وهو  
يشق لنفسه طريقاً بين أسنة الأعداء . لو نجح إذن لاحتقن الدم ، ولو استجاب  
رجال الجمل لدعوته القدسية التي يتحدث بطهرها كتاب السماء لعاد الناس كلهم  
إخوة على صفاء : فما بال هؤلاء يتنكرون له ، وييطرون بالنعمة التي تقدم يزجها  
في دعوته السمحة الرضية ؟ . . . قد أكلتهم شريرة العداوة فانقلبت إنسانيتهم  
ضراوة ، واختفت فيهم طبيعة البشر خلف ثمر الوحوش وسكان الغاب .  
وإن أسنتهم لتلعب إذ ذاك دور الخلب واللب فتعاور الغلام وتضرب فيه ،  
لا تكبحها حرمة المصحف المرفوع في يمينه . ولا تردّها عنه ما يرد العداة عن  
خصومهم إذ يسرون نحوهم حاسرين ، بغير سلاح ، يعلنون وهم عزل غير شاكين ،  
أنهم في أكناف الأمان . . .

تعاور أصحاب الجمل هذا الفتى الأعزل إلا من كتاب الله غير متلومين ، تقد  
منه أسنتهم الباغية وتفريه . ولكنه صبر أمام العدوان ، ومضى وما عزم عليه  
يناديه إلى الكرامة السواء وإن خائنه يمينه وتخلقت عنه في مضيه شلوا مبتوراً  
رقد على الثرى وقد أغرقه الدم ! . . . فما زالت نعمة يسراه تستطيع حمل الرسالة  
المقدسة ، وما زالت قدماه تحملانه إلى حيث لعله يستطيع الأداء . . . وما زالت  
أيضاً له أسنان تمسك بكتاب الله عند ما تأتيه ضربة أخرى عادية فترسل يده  
الثانية لقي على الأرض . . . أفلا يسهه أن يحتضن المصحف بين صدره ونحره  
ويجاهد طاقته لسمع القوم دعوة السلام :

« كتاب الله بيننا وبينكم . . . الله الله في دمائنا ودمائكم . . . » ؟ .  
ولكنها صيحة لم يتح لها التردد إلى كثير . صمت عنها في البدء الآذان  
ثم خرس عنها صاحبها الآن . . الخلب والخاب ووحشية الغاب قضت منها الوطر ،  
ورمت بالفق الصغير ، أو يبقاياها ، ساكنا على الأديم قد راح قباؤه الناصع  
البياض مزقا حمراء . . .

أنة للصبر بقاء ؟ . أفه ذماء ؟ أم تفرى إهابه وتقطعت به عن الوجود  
أسبابه ؟ . ود على لو قدم على مذبح السلم ضحايا آخر وقرابين تصل بينه وبين  
خصومه ، فتلين له عاصيمهم ، وتؤلف عليه شاردهم ، وتمسك وحدة أمته أن تتهار .  
ولكن بوادر الصراع أيقظت الفتنة ، ورائحة الدم المسفوح انسابت من الحياشيم  
إلى الأوردة والشرابين تحرض الدم الحبيس على الفران والتحرر . في كلا  
العسكرين حميت نخوة القتال وبان في العيون التئمر . وعندما رد الإمام طرفه  
عن الفقى الصريع ، الذى مزقته الأسنة ، إلى صحبه وأجناده طالعه منهم غضبة  
ليث جريح مزير ، قتل صفاره ، وديس غاره .

ما لعلى بعد هذا سبيل إلى الإعذار ، إنه قد أعذر حتى ظن أنه خوار وصبر حتى  
حسبوا الصبر منه مجبته . بل لعل عدوانهم على جنده ، وملاحقتهم رجاله — وإن  
كانوا كافرين — ينفى السيف ونار الحتف لم يكن لولا حمله الذى أطمعهم فيه  
وأملى لهم فى الطغيان . أما وقد كف وصابر حتى كاد أن يصبح عوناً لعدوه على  
أوليائه ، فلم يعد له معدى عن ترك الحلم إلى الحزم والكف إلى السيف ؟ . . .  
وهتف وما زال يلوح لعين خياله الفقى الحدث فى قبائه الناصع البياض كما  
تلوح بقية رؤيا ورق عنها الوسن :

« حل قتالهم . الآن طاب الضراب ! . . . »

ودعا قواده فأقامهم على أماكنهم فى الميمنة والقلب واليسرة من جيشه .  
وكان كعب بن سور فى صفوف الجمل واقفا ينظر ، فما رأى تأهب الإمام حتى  
أخذته خشية أن تستمر الحرب بين الجمعين . . . إن هاتفا فى أعماقه يحذره ،  
ويكاد أن يندره بشر قاصم سوف يلقاه فريقه غب الالتحام . . .

وانتفض الرجل فبرح المكان مسرعا صوب عائشة ليخبرها الخبر ، ويهيب بها أن تبعد وسمها لتكف عن أصحابها المصير المخوف الذي سيجنونه كفاء الطغيان : « يا أم المؤمنين .. أدركي فقد أבי القوم إلا القتال ، لعل الله أن يصلح بك ... » فبرزت من حيث سترتها الدار ، مضطربة واجفة ، فقد أعداها ما أحسه ابن سور وعاناه .. وجاءوا إليها بعسكر على الأثر ، ألبسوه الجلود وشدوا عليه هودجا درعوه بالحديد حتى بدا كأنه القلعة الحصينة . الله يعلم أي أمر طوته وهي تحت مطيتها الدارعة إلى الميدان . . . ولكنها حين شارفت الساحة ، ورات الجموع في التقائهم تمتد ثم تنحسر كالأمواج ، وسمعت السلاح يصطفق والسيوف تعتق أخذتها رهبة غلبت ما كان من قبل في نفسها من صرامة ، حتى همست أسبابة إذ التقطت سمها تلك الجليلة المدوية من جانب جيشها الذي ملكه المهرج وشاع فيه الضجيج :

« أي الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون ! . . . »

ونأت بعينها رائية . . . ولوت جيدها نحو كعب بن سور تهيب به بلهجة فيها حدة الأمر وفيها رقة الضراعة :

« خل يا كعب عن البعير ، وتقدم بكتاب الله فادعهم إليه . . . » . ودفعت إلى كفه بمصحف كما فعل على قبلها مع الفقى الكوفى صاحب القباء ولكن رسولها لقي مصرعا كصرع سلفه . استنزف منه دم الحياة وما استجاب امرؤ إلى ندائه ... عندئذ صاحت وقد أشفقت أن تأكل شرة الحرب الناس . . . عادت بها رهبة الموقف الضنك وشبح الموت الذى خلق على الرؤوس إلى ما هو مألوف فى هذه الموطن من طباع النساء ، فراحت تصيح :

« . . . يا بنى البقية البقية ! . . . الله الله ! . . . اذكروا الله عز وجل والحساب . . . » .

فلم يلق أحد منهم بالا إلى دعوتها ، ولا بدوا كأن قد سمعوا صوتها الرفيع الجهير . بل مضت الوغى سبيلها فى سورة مجتاحة ، تأكل من عرض لآظها أو تأخذ منه . والساحة بعد هذا تغطيها رويداً رويداً الدماء ، ثم الأشلاء ، ثم

الحمام بعد الأقدام...! فما ارتضى امرؤ توقفا عن الطعان ولا أثر التريث ، يستوى  
في هذا أولئك وهؤلاء .

ومع ذلك ثم قلة ودت لو أصفى الناس إلى دعوة السلم المرتفعة من بين  
العمقة والصليل ، عسى الله أن يهدي إلى سبيله ويحقن دماء المحاربين . وإذا  
كان الغلام الكوفي قد لقي من أهل الجمل شر جزاء على خير دعاء ، فليس  
مصيره بعمد سواء عن القيام مقامه والتنادى تناديه . . . وما هو رجل من  
صحب على من عبد القيس ، يزدلف خفيفاً نحو عائشة إلى أعوانها المضربين ،  
فيحدثهم هادئاً غير هباب :

« أيها الناس ، إنا ندعوكم إلى كتاب الله . . . »

فصاحوا به محققين :

« وكيف يدعونا إلى كتاب الله من لا يقيم حدود الله ، ومن قتل كعب

ابن سور داعى الله . . . »

ذكروا صاحبهم ونسوا صاحبه كأنما ليس لغير صريعهم حساب . . .

ثم وشت بهم نواظرهم بعد قليل ، فإذا لمح النعمة يتأجج في مآقيها تأجج  
النار ، وإذا جمعهم يلتف بالداعى المتفرد يسد عليه منافذ النجاة ، ثم يرمونه بنبلهم  
كأنما عن قوس واحدة حق غدا جسده ، من ما فرط رشق به من سهامهم كأنه  
جسد قنفذ غطته الأشواك . . .

وضاعت الحكمة في حلبة التزال المجنون . وانقلب الناس كالوحوش لا يدينون  
بغير شريعة الغاب ، ولا يصغون لغير حديث السيوف والحراب . . . وعندما أسفر  
النهار ، وألقت الشمس وشاحاً من ضيائها البراق على جوانب الكون ، كان النور  
علاً الأرض ولكن الظلمة كانت عملاً العقول . . . ولم يعد أحد يشهد إلى أكثر  
من مرمى عينيه ، فالبصر سليم والبصيرة كليلة . . . وأخذ السلاح يلتمع ، إذ  
يتهاوى في سرادق الضوء ، كالرايا المصقولة . . .

٥

هذه صيحة الحرب راحت تزار : « يا لثارات عثمان ! » فيها مثل قصف  
الرعود ، وعزيف الإعصار ، ودوى الانفجار المجلجل جاشت به فورة بركان...  
من ناحية « عسكر » أقبلت مدوية ، رجفت لها الأرض والسماء . . في طيها  
غضبة وفي إثرها رهبة قد أطلقتها ألوف من الحناجر الصاخبة وألوف . بضع  
عشرات جمّة ، في جرس واحد ثابت كأنما أرسلها لسان وشفتان . .  
إنها نداء الدم . . شعار نقمة هوجاء رفعت النفوس الموتورة كرفع الكتيبة العلم . .  
دعوة للقصاص فطرية ، ترددت عن قلوب ملائمتها إلى حوافيها شهوة الانتقام  
وآمنت أعمق إيمان وأقواء بشريعة الثأر كإيمان إنسان الكهوف والمغاور . .  
وكان فيها رنة غير رنة النعمة الحبيسة تندفع من عقالها بعد طول احتباس .  
اندفاع ينبوع الفوار . . فيها أيضاً تنغم النشوة ينمي بزهو غامر بعنه الشعور  
بالتفوق فتلك آية النصر بادية ، لاحت لهم بواكيرها ولما تأكل الحرب منهم  
سوى قليل .

حيثما مد امرؤ من رجال « عسكر » عينه إلى أطراف الساحة التي عجت  
بالأسنة المشتبكة كر إليه بصره وفيه إشراقة التمتع بها بسمة الرضا والطعام نينة .  
الراحة في القلب والفرحة في العين ، والأمل المعسول كخفق الضياء يداعب النهى  
والخواطر . حتى عائشة بهودجها ازدهاها الظفر الظاهر ، وغدا أمامها حقيقة  
محسمة ما كان من قبل حلاً طوف بها في هدأة التصور . فرغت الآن مما عراها  
من اضطراب ففادت إليها نفسها بعد خشية ووقع قلبها الجزوع موقعه . وطلحة  
ابن عبيد الله . . أين منه اللحظة هدفه — ذلك الوهم القديم الجميل ؟ . . كاد  
ها هنا يلتقي حلمه المنشود بالواقع المشهود على أديم الميدان وفي غيمة النقع الثائر من  
حوافر الحيل وحركة المشاة ، لا يفتأ يبدو لعين خياله المقعد الأثير ، وسيف  
الحكم ، وطليسان الخلافة تهم أن تتقدم بها نحوه النتيجة القرينة المرقوبة نصيباً  
حلالاً له وحده بعد ما كان من نكول الزير . .

النصر إذن لم يعد بارقة رجاء ولا نسج خيال ، وإنا أوشك أن تنقبض عليه كفاه . إنه ليراه مقترباً منه ، دائباً على الاقتراب ، يدنو إليه خطوة كلما دفع رجلاه بجند على خطوة إلى الوراء . ولقد دنا حينئذ ، وقطع أمشاطاً حمة بدل الخطوات . وما دام نصره قرين هزيمة الإمام فإنه منه مستيقن لأن هزيمة خصمه غدت تدق عليه الأبواب .

ليس يخامرهم شك الآن في عقب الواقعة بعد أن شهد من مكانه بقلب جيشه كيف راح جنود الكوفة يركنون إلى الارتداد . ما كاد ينزو عليهم جناحاه حتى نكلوا عن الثبات . الضربة الأولى ألزمتهم التقهقر ، فحسب الضربة التالية أن تلزمهم الفرار . . .

كذلك كان عامر القلب بثقته ، يغمر نفسه بالبشر والتفاؤل . فما كذبه حدسه في قائديه ، ولا خابت فيهما فراسته . وساعة أن نصب أولهما . عبد الرحمن ابن الحارث بن هشام على ميمنته ، وبعث الآخر عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ليقود ميسرته ، كان موقناً أنه أصاب أوفق اختيار ، فأنعم بما قام به السميان ونعم ما أبلياه . . . هما أن تصبح لهما الكلمة العليا في الصراع الدائر فيبلغاه وطره من عدوه . ولولا أن ثبت قلب جيش الإمام كل هذا الثبات لانقض السامر . . .

ومع ذلك فليس يكتف عن نفسه أن النصر الذي حازاه جاء خاطفاً سريعاً أكثر مما تخيله وهمه . كل من شهد الواقعة عجب كيف زالت هكذا ميمنة على وزالت ميسرته عن مواقعهما تحت هجمة الخصوم . وحق لمن شاء أن يعجب كما يشاء . فما كان جناحاً للإمام من الوهن والتهافت بهذا القدر الذي يردهما التقهقرى بعد أولى الضربات . لا وليست تعوز رجالهما الحنكة الحربية ، ولا البأس والصبر في مواطن الجلال . أفئمة ياترى أسباب خفية فرضت عليهم التقهقر أو قهرتهم عليه ؟ . . . أعني تدير ؟ . . . أم هي ضربة مفاجئة بدأهم بها جيش « عسكر » قبل أن يأخذوا أهبتهم للملاقاتة بالقتال ؟ . . . لعلهم أخذوا على غرة وإن اشتبهت حقيقة الأمر على الرواة . . . أو لعل علياً هو الذي مكن لعدوه من هذا النصر الخاطف السريع ، فقد كان مسرفاً غاية السرف في الصبر والموادة

كما عهدناه ، متحرزا أشد التحرز وأبلغه من لقاء خصومه في حرب إلا أن تعجزه  
أناته عن الضن باللقاء ، ولطالما صبر من قبل وأعذر فلا عليه لو أملى لهم هذه  
المرّة كذلك لتكون له على طلعة وحزبه الحجة البالغة بأنهم أصحاب العدوان .

على أى حال قد كان هادئا تلك اللحظة بقلب جيشه الذى ثبت أمامهم ثبات  
الرواسخ ، تشهد عينه ولا يضطرب جنانه ، وإن وجدهم ينالون من رجاله  
ويضغطون مجنبتيه ضغطا شديدا حسبوا معه أنهم هازموه . الشك لم يراوده قط  
في نتيجة المعركة ، وإن بدت للعيون مقدماتها لا تبشر بخير كأنه قد علم عاقبتها  
قبل أن تحين . . .

إنه هادى\* الحاطر رضى البال ، لا تسكاد المحنة الحازية التى أصابت جناحيه  
على يدى قائدى غريمه أن تنال منه . بل قد بدا محسور الطرف عن أطراف الميدان  
وعما يدور فيه . . . نعمة هدوء سابغ ، كأنه السلال أو سنة كرى ، جلى محياه  
المطمئن القسبات ، حتى ظن أدنى قومه منه أنه راح فى خفقة نعاس !

ولكنه رفع رأسه بعد قليل ، فى حركة بطيئة وئيدة ، ومال بأذنه يرهف  
سمعه إلى صيحة شقت نحوه غلالة الهواء من ناحية المودج الدارع . إنها تختلط  
بصليل السلاح وصخب الأجناد ، حتى لا يصله منها سوى ضجيج مبهم تضطرب  
حروفه ويوشك أن يغيض فى غمار الضوضاء . . .

ويلتفت ، وقد أعياه تبين الصيحة ، إلى امرئ قريب منه يسأله فى هدوء :  
« ما هذه الضجة ؟ . . »

« عائشة تدعو ويدعون معها على قتلة عثمان »

فترسم على الأثر بشفتيه بسمة حزينة ، فيها رثاء وعطف ، وتلتع بعينه  
نظرة تسيل رقة كأنها دمة يسكبها وهو يذكر الشيخ ، ويقول بصوت عميق  
حروفه لأحاسيس قلبه أصداء :

« لعن الله قتلة عثمان ، فى السهل والجبل . . »

ثم ينفى ثانية إلى الهدوء ورضا البال ، كأنه ليس بموطن حرب تنهاوى فيه  
الردوس والجوارح ، وتتحدث الألسنة بمنطق الدم . .

عندئذ يقبل عليه ابن جهين ، والعجب يستبد به ، يحدثه وقد كادت ألفاظه أن يقطر منها اللوم ويفيض الإنكار :

« تالله ما رأيت كالיום قط . . . إن بإزائنا لمائة ألف سيف ، وقد هزمت ميمتك وهزمت ميسرتك ، وأنت تحقق نعاما . . . »

فرمقه على مليا في سكون حتى ظن الرجل أنه لم يسمعه ، وهم أن يعيد عليه ثانية ما قال . . . فإن هي إلا لحظة ثم رآه لأعنه يرفع وجهه ويديه نحو السماء ، رانياً بنظرة ابنهال وضراعة وهو ينطلق في المناجاة :

« اللهم إنك تعلم أنى ما كتبت في عثمان سواداً في بياض ، وأن الزير وطلحة أبا وأجلبا على الناس . . . اللهم أنت أولانا بدم عثمان فخذ اليوم . . . »

وبأسرع من كرة الطرف نقض عنه هجمته أو ما بدا كأنه هدأة الناس ! . جرت في أوصاله حمية الشباب القديم دافقة فكأن بها ثورة إعصار . فلم يكن ثمة بقية لإمهال ولا تريث ، ولا معدى بعد عن مقابلة هجومهم بهجوم يرد عنه العوادي بعد أن شد ابن الحارث على ميمنة الكوفة شدة الصقتها بالقلب حتى نزوح الإمام . . .

وهتف بين رجاله نفر يقول :

« الموت ليس منه فوت ، يدرك الهارب ولا يترك المقيم ! »

فكانت هذه مجاز جنده إلى الثبات . تدافعوا نحوه من كل صوب تدافع الفراش للضوء ، فإذا هم حلقة حوله كأنها السوار .

وأخذت الشمس في مستقرها تسير ، وثيدة الحركة ، رويداً رويداً لتتوسط السماء ، ضاحية السنا كمين يقظى راحت ترقب الجموع المزدخرة بعيان الوقعة . كان الوقت يقترب بهم من الظهيرة ، والجو المليء بالدفء يزيد الجسوم توتراً وحرارة ، حتى ليندفع المرء منهم إلى حتفه دون إرادة إلا بإملاء عصبه ، ويندفع بين رذائه وأعضائه ماء دافق سيال ، فلا يدري أهو عرق الجهد أم دماء الجروح . ما كان فيهم امرؤ يستطيع أن يتحكم في وعيه أو يدرك الشعور الذي يقوده إلى هنا أو هناك . فإن هو إلا مس يحرك الشاعر ما لم عليه سلطان . . .



فلعله نشوة الصراع لعبت بماطفتهم الفطرية لعب المحيا برأس المخمور ، وهل الناس إلا غريزة قديعة ، عريقة القدم إلى عصور الفطرة التي لم تعرف سطوة العقل ، ولم تدن له بطاعة ؟ .. جميعهم تحرر من ربة إدراكه هذه اللحظة التي حجبت فيها الأسته ما هذبته منهم العصور ورفقته من طباعهم البدائية . فعاد الإنسان الأول ، السكامن في أعماقهم ، إلى الظهور ...

بوحشية الغاب والكهف استمر القتال ، ذلك اليوم من جمادى الآخرة على أرض البصرة ، حتى لتشهد الميدان اكتسى بأناس اشتبكوا ، فلم تكن بين المرء وغريمه فرجة ينفذ منها الهواء . التصق الكتف بالكتف ، والصدر بالصدر ، والذراع بالذراع .. وكان بدء صراعهم بينهم بالنبل تتطاير عن أقواسها كرمش الماء ذات يوم مطير ، ثم خلوا حديثهم بعدها للرماح والحرايب . فلو كنت هناك لأعجزك أن تصل من صف أولئك إلى صف هؤلاء إلا أن تعبر جسراً من القنا الناشبة ! ...

في هذه اللحظة الحازية ، التي رخصت فيها الأرواح أيما رخص ، وهانت الأنفس على أصحابها كل هوان ، رأى على أن يشن على أعدائه هجومه المضاد .. ولم يكن هذا مما يسهل من فريق أو شك أن ينهزم جناحاه ، وضافت عليه حلقة أخصامه ، حتى كادت أن تشل حركته . ومع ذلك فليس معدى للإمام عن القيام بكرة يسترد بها من الأرض موطناً لقدميه ، ولا سبيل أمامه إلا أن يقتحم ذلك الجند المعادي الذي أحرز بالسبق إلى الهجوم مزاي جعلته كالبنيان المرصوص ... وأخذ الراية فدفع بها إلى محمد ابنه ، وقال يأمره :

« تقدم » .

فأجال الفتي بصراً حائراً في القوم حياله — في هذا السد من الجند الذي يسد دونه الطريق . أئمة على الأديم فسحة لقدمه يعضى عليها بخطوه ؟ ثم أحس يد أبيه تدفعه من وراء ، وسمع صوته المهيب الأمر كركة أخرى يسمح به :

« تقدم ، لا أم لك ! .. »

فأجاب وهو مضيق حيران :

« لا أجد متقدما إلا على سنان رمح . . . »

« أدركك عرق من أمك . . . »

وخطف راية القتال منه . فإن هي إلا رجعة الطرف حتى رأى الناس عليا يحمل العلم بيسراه ، ويشهر ذا الفقار — سيف رسول الله — في يمينه ويقتحم وحده جند الأعداء . . .

لقد كانت هذه لحظة فذة في تاريخ الشجاعة ليس لها قط مثيل : أن يخوض امرؤ فرد جيشا برمته فيشقه ، كما يشق أديم التربة مكين المحراث . . . ولكنه ابن أبي طالب ، لا عجب فيما يأتيه وإن حارت العقول في تفهمه وأعيائها إدراكه ، وإن عز شبيهه عن طاقة غيره من المحاربين الأبطال . . . إن إقدامه هو الذي كان يفتح له في صفوف عدوه المكتلة — المأثور عندهم من جرأة قلبه الفريدة . قيل شفرة السيف . . . فكأنه كان صاعقة فجأت الجموع المدلة بنصرها منذ قليل لم يكن إلى اجتنابها سبيل . وكأنه نازلة القدر الداهم بطشت بمن اعترضها ، لم تترك جلدا أثبت لسياتها المحتاح ، أو رعديدا نكل وآثر السلامة من خلال الفرار . . .

شق جيش العدو وحده ، وفتح ثغرة عميقة في بنيانه المرصوص ، والرقاب تنهاوى على حد حسامه ، والناس يسقطون صرعى بين يديه كأنهم أوراق الشجر وهو هبة قارسة من رياح الخريف . ولولا أن نبا سيفه عن الطعان فائثنى في يمينه لما كف ولا عاد . . .

والتف به بنوه وأجلة صحبه ، وفيهم الأشتر وعمار ، يهتفون :

« نحن نكفيك يا أمير المؤمنين . . . »

فلم يجب ، وما رد إليهم بصره ، بل مسح بكمه قطرات العرق التي بللت بحياه ، ومد يده إلى إناء دفع به إليه أحد رجاله ليطفيء غلة عطشه ببعض ما فيه . . . وقال بعد أن حسا حسوة : . . .

« . . . إن عسلك هذا لطائف . . . »

« نعم . وعجبا منك والله يا أمير المؤمنين أن تعرف الطائفي من غيره في هذا اليوم وقد بلغت القلوب الحناجر ! . . . »  
فابتسم وقال بهدوء :

« يا ابن أخي ، إنه والله ما ملأ صدر عمك شيء قط ، ولا همه شيء . . . »  
وأمسك سيفه الحق فأقامه بركبته ، وهب فجأة كالإعصار على عسكر أعدائه  
يفوص في صفوفهم كما يشق سحيف الظلمة السوداء شهاب ! . . .

## ٦

الآن حانت الظهيرة . رقت الشمس الضاحية محاور الرءوس ثم مضت قدما  
تم رحلة النهار . . . قليلا قليلا راحت تزايل مستقرها العالي وتنحرف عنه إلى  
طريقها المذهب صوب المغرب البعيد فكأنها حينذاك كانت ميزان الواقعة المستعرة ،  
مالت فيه كفة فريق وشالت كفة الآخر بعد طول رجحان . . .

وخط القدر في تلك اللحظة أو سطر من نتيجة الصراع المشبوب . بدأت  
عند ذاك نقطة التحول فشهد الجمل أولياءه فارين وقد كانوا سادة الموقف ومالكي  
مصيره منذ قليل . وأخذت البصرة تستقبل منهم فلولاً مولية في إثر فلول ! . . .  
أما على فقد أينعت جرأته ، وأثمرت هجمته الفذة ثم أته على أعقابها بنصر  
مؤزر . . . وحين ألقى عينه على الميدان طالعتة القوضى تقود أخصامه ، فقد  
أعوزهم الآن التماس القواد ! . . غاب عنهم الزبير مؤثرا أن ينكل عن المعركة  
بجسمه كما نأى عنها قبل نشوبها بقلبه . . . وغاب أيضا طلحة بن عبيد الله . مضى  
يلتمس لنفسه متعجبا نائيا عن مهاوى السهام والحراب عسى أن يجد هناك آسيا  
لجرحه فما كان أسرع نضوب أمانيه ! . . وما أشبه أمله الآن بجسمه الجريح ،  
راح ينزف حق وشك أن يحف عوده ! . .

فلعل أعجب ما في قصة هذا الحالم بالسيادة أن يتنكر له في محنته ولي ويأسى  
له غريم . بل قد كانت نكبته هذه من نسج جليف له . . . عدا القدر عليه في  
ثوب صديق طالما أبدى له الولاء والطاعة ثم لم يعمله في وقدة النزال إلا ريثما يجعله

أمثلة أمام الناس لمن آوى الحية الرقطاء بين ردينه وهو يحسب أنها سوف تجزيه وفاء صرفاً على حسناء ! . . . ولكنها الحرب تنضو عن النفوس الزيف وتهتك المظاهر ، ثم تبديها عارية بلا طلاء : معادن خبيثة أو جواهر نقية الصفاء ، تربك النبل لا تشينه الخصومة ولا تنال منه . . .

لقد كان الأمر انكفاً على طلعة بأسرع مما تخيله وهمه حتى عجب لجنده المظفر كيف حاقت بهم هزيمة مباغتة ولما يكذب ينعم بتصره إلا لحظات . بدت له آية ظفروه المنهار كأنها سراب خدعته في البدء عنه ثقته فلما انكشفت عنه نشوة اعتداده رآها بلقما بلا ظلال . فما بقيت لجنده عزيمة تحملهم على الثبات ، إنما غدوا شراذم نهكتها الحرب فمضت تستبق سيلها إلى الفرار . . . كلهم فتنه نفسه عن الواجب ، وشغله حب الحياة . أما طلعة فظل بثوب الجندى وطبعه ، لم تخنه شجاعته ، ولم يفقد جلده . فراح يتذرع بالصبر عسى أن يسعفه الوقت بما يعينه في هذه النازلة فيستطيع المقاومة ثم يستطيع بعدها الثبات . وهل الحرب إلا تأرجح دائم بين نعمة النصر ونقمة الهزيمة ؟ . . . وهل حركات الجنود المصطرعة في ساحات القتال إلا كمثل الأمواج ، يلعب بها المد آونة فتفيض ؟ . . . ويكبحها الجزر أخرى فتفيض . فكذلك محنته الآن ، لعلها تنحصر عن شاطئه . وما دامت الحلبة لم تخل من رجاله فإنه سيعتصم بالرجاء . . .

وأهاب الرجل بمن بقي من جنده أن يؤازروه ، وثبت جهده للحشود الدافقة من رجال الإمام . فلو التفت به نفر يبأيعوناه على النصر أو الموت لكان هذا أجدى عليهم وعليه ، إن ظفروا فلهم العزة أو قضوا فموت الكرام . . . على أن نعمة امرء آ في صفوفه كان قد أيس النصر ، وقر في عزمه أن الثبات الذي يبتغيه طلعة ليس إلا خفقة السراج قبل انطفائه ، فقد جفت الفتيلة وفرغ الزيت . . . بدت الآن الدولة المنشودة حلاً بدهد الصبح . وصاحبها الحالم سوف يحتويه الغمار . وأنصارها البناة قد انقض بناؤهم ولما يرتفع عن أساسه فهم الآن صريع وقيل ، وهم غداً أسير وشريد . فما غاية الناس من قتال مآلهم من ورائه قتل أو ذل ؟ . . .

بهذه النظرة استقبل مروان بن الحكم عناد طلحة ورغبته في المقاومة والكفاح ماوسعه الرمي بسهم أو الطعن بسنان . وعلى ضوئها رنا أيضاً إلى أطماعه تلك التي منته بسطوة جديدة في الدولة الجديدة تعيد له بعض جبروته في دولة عثمان . الحلم الجميل انقلب كابوساً ، ثم أضحي حقيقة مفظعة أهون على نفسه منها صرعة الكوايبس . . . . . غربت منه آماله إلى غير مأب وأوشك أن يشهد لها بهذا الميدان قبراً يضمها رفاتاً محطمة . . . . لم ينل من السلطة وطره ، ولا من الوارث ثأره . . أفيدع يا ترى الحلبة هكذا في عمرة الهاربين دون أن يفوز بهدف واحد مما جاء هاهنا يبتغيه ؟ . . . .

الآن بطلت المواربة وفرغ الرياء . لم تعد به حاجة إلى التوارى خلف أعذار مصنوعة هو يعلم أنها مصنوعة من زيف خالص . . . . قدونه إذن الثأر إن عداه الوطر في رجائه المعسول وحلمه الجميل . ولن يعود إلا بعد فراغه من الانتقام . . . . . وصل الرجل من كناتته سهماً ركزه بقوسه ، ورمى بعين يلتهب لمعها صوب حليفه الكبير الكسير ، ثم أتبع النظرة الرمية فأصاب . . . .

عندئذ اشتفت نفسه وأحس الراحة تملأ قلبه . فلا أول مرة في حياته أرضى مروان ضميره إذ استجاب لصرخة طالما ترددت في أعماقه فلم يلبها إلا الآن . . . . . وحين رأى السهم قد نشب بطلحة أحس أنه نال شقاً من هدفه ، هو الثأر لثمان . . . . . فيا ترى قد فاء إلى الحق إذ رمى فأعلن للدنيا أي امرئ كان قد قاتل الشيخ أو في القليل من كان أول عون في القضاء عليه ؟ . . . أم علم الثعلب أنه لن يشم بعد يومه فائدة ترجى من وراء الضيغم المهيض ، فاستأسد وأصمأ ؟ . . . . إن وقت التفاق قد فات ، والحلف الذي كتبه الطمع بينه وبين طلحة لم يعد له الآن بقاء بعد هذه الهزيمة القاضية على المنى والأحلام ، وكذلك نزع الرياء عن ولائه اللقوت . . . .

وغامت عين القائد الجريح . فلعل بعض قطرات من عرق الجهد رانت على ناظريه ، أو لعلها دسمة سفحها وقد شهد كيف يكون تنكر الحليف للحليف . . . . . ولكنه مع ذلك لم يبرح أرضه ، ولم يحن ظهره أمام الأحداث التي راحت تنوشه

كأنها كلاب . . بل قوم الرجل من قامته ، وشد رأسه جليلاً مهيباً كما يجدر بقائد يعرف لنفسه أنه العلم لجنوده ، ما يزالون يلتفون به ما بقي خفاق الديباجة . . . ثم كظم آلامه المبرحة وصاح :

« إلى . . إلى عباد الله . . الصبر . . الصبر . . »

ولكنها كانت صرخة في فلاة . أو كأنها دعوة إلى النجاة . . إنه ليشهد قومه تأخذهم فزعة فلا يزيدون إلا انقضاضاً عنه ، وفراراً صوب البصرة إلى منتجع حسبه يدخر لهم الأمن والسلامة . . . ولولا أن كبح من زمام مطيته الفزعة لحبت شوطها هي الأخرى مع الفلول المهزومة .

فما كان أمر عيشه تلك الآونة وما أفساه ! . ودلو نزع الدماء الباقي من عمره مع دماء جرحه ولا يرى عاراً هو من الفشل عليه أشد . فكم غرته الأمانى كما غره الآن أولياؤه . وكم غلبه اليوم على شجاعته وهنه . ولو أسعفنه كفه لصال سيفه ، وللقى مصرعاً حرياً بجلد الأبطال . . .

وإنه لنهب ضاع بين وجع جرحه وألم نفسه إذ مر القعقاع به فشده يكاد أن ينوء ويتهاوى إلى الأديم لا يتماسك من ضعف ولا من هزيمة ، فرق له قلبه ، وأذاب النيل فيه حقد الغريم ، فأسنده في عطف وقال :

« يا أبا محمد ، إنك لجريح ، وإنك عما تريد لعليل ، فادخل الأبيات . . »  
فأرسلها إليه نظرة تفيض بشكره ، وهتف بخادمه بصوت واهن خفيض :  
« يا غلام . . أدخلنى ، وابغنى مكاناً . . »

وكذلك غاب الرجل عن الميدان ، مخلفاً على أديمه مع الأشلاء المتناثرة لجنده ، أشلاء الآمال العريضة ، والأحلام الحلوة التي طالما راودته من قبل في اليقظة وفي المنام . . .

٧

أمسكت عائشة في يديها الزمام . .

إنها لحظة حازية ، تذهل المرء عن كيانه . ندرت فيها الرؤوس ، وهافت النفوس ، وغدا المصير وقفا على الأقدام السبابة . . . ولكنه كان سيقا إلى فرار ومتجع هزيمة . كلما رمت السيدة بعين متلهفة من خلال ستر الهودج طالعتها النقيجة المريرة ، مقبلة عليها سريمة كسرة خطأ جيشها الهارب .

ولم يكن شئ يمسك على قومها عزمهم النهار ، فلا قوة لهم معنوية تثبتهم وإن توفر لديهم العتاد . . . وهل التزال إلا رباطة جأش وثبات جنان قبل ضربة سيف أو طعنة سنان ؟ . . . إنما أصحابها غدوا قطيعا من الشياه الفزعة أعارها الخوف أجنحة تنأى بها عن الذئاب المنقضة . . . وفيما بدا قد فرغت قلوبهم من الشجاعة لأنها فرغت من إيمانها بالقضية التي قاموا يناضلون عنها . فلو كانوا ذوى مثل سامية لمز على قوى البشر أجمعين أن ترحزهم شبرا واحدا عن مواطئ أقدامهم في الميدان . . .

أما الآن فليس معدى من علاج حاسم سريع حسبما تقتضى الآزفة وقد ذهب الراعى فانتشر أمر القطيع الجزع أيما انتشار ، وتفرقت هاهنا وهناك فلولة فرادى وجماعات . . . ذهب الزبير ، وذهب طلحة على أثره ، وتركوا وراءها شراذم في حاجة إلى من يرأب صدعها ويربط بين قواها المحلولة ، أفتتقدم السيدة فتمسك الزمام الذى أوشك أن يفلت أم توجه «عسكرا» وجهة البصرة وتقرر هي الأخرى مع المنذر بن ؟ . . .

لم يعرف الجبن وإن كانت امرأة طبعها أميل إلى حب العافية والسلامة . فقبلها بقية من إيمان بأنها أثبتت لهدف محمود هو إقامة حد من الحدود — الاقتصاد بالدم لدم حرام مسفوح يكاد أن يضيع . وكانت أيضاً تستشعر الرغبة في الانتقام لطلحة بن عبيد الله ، فما تدرى وقد ترك الوقعة أقضى أم سيمهله جرحه حتى مطلع النهار . . . أما صاحبها الآخر ، الزبير ، زوج أختها أسماء ، فمسيره

بكفة القدر ، لا تعلم أى أرض الآن وطأتها قدماه أو أضحى مشواه . فلو قضى تحت عينها إذن لبرأت شيئاً من هذا القلق البالغ عليه لأن الدنيا كلها — فيما تشعر — مفروشة أمامه بالمصارع . . . .

وكان حقاً ما حدثها به قلبها عن أبى عبد الله ، فما ألقت عليه مرة عينها بعد لحظتها تلك ، حين رآه يوشك أن يكون فريسة سهلة لرمح عمار . . . إذ ذاك شهدته وبقليها وجيب ، وبحلقها غصة بعثها الملح ، وبعينها دمعة تنيرى يرسلها الخوف الطاغى ثم بهم أن يمسكها الرجاء الذى يرادو النفوس ساعة النكبات المحتاجة . فقد مشى عمار يشق الصفوف ، وإنه لشيخ أوفى به عمره على آخر مرحلة من مراحل الحياة ، فما أقعده السكبر ولا أبطأت به شيخوخته عن خوض غمرة الموت . . . شئاً — فيما يلوح لعينها الرقبة — يسير خطأ هذا المعمر الواهن الحش الساق . شئاً غير القوة ، وغير حمية الشباب ، وغير الدم الحار فى العروق والأوصال كان يركب به من المواطن ما ينكل عن ركوبه الشباب الأجلاد من العزائم المواضى والصلابة التى لا تلين وكان مندفعاً خلال جندها كأنهم أغصان تقصف لضغطه وهو إعصار ، فإن هى إلا اللحظة حتى رآه قد نفذ إلى الزبير فى مستقره فخازه برمحه المسدد ، وسد عنه كل منفذ فلا عاصم ولا نجاة . .

عندئذ أحست الوجيب ، وعانت الغصة ، وعالجت برهة ، دمعها الحيرى بين حجر العين وسياج الأهداب . . لاح الزبير شارد النظرة ، مضيقاً ، على قسماته مشى اضطرابه كمشى البغلة فى ملامح فريسة احتوتها الشراك . . . ولاح ابن ياسر فى غبرة لونه ، وبما اكتساه من فراء ، كعثلب ، ثوبه الإهاب ورمحه الخلب . .

فلا مرام أعاد الوحش الظافر ظفره إلى إهابه وعف عن الفريسة المخدولة بنابه . . فى اللحظة التى حسبت العيون الرقبة أن ستشهد الدم ينخضب من حربته خلفته الضراوة ، ولم يكن شئاً ما يحمله على رد رمحه عن غريمه فى هذه الآونة التى يملك الحماس فيها النفوس وتأخذ المحارب صرعة الوغى حتى تشغله عن كل حواسه . . ومع ذلك فقد نكس الشيخ أداته الظامئة للدم . عاطفة غامرة شملت كيانه فامتلاً لها قلبه رقة على عدوه المغلوب نقضت للألوف من الوحشية فى شريعة الحروب . . هتف به الزبير فى هوادة كأنها ضراعة :



« أتقتلني يا أبا القظان ؟ .. »

فسرعان ما انتفض عمار للنبرات المبتهلة الحزينة ، فذاب عنقه ، وفاضت بقلبه الرحمة ... إن يكن ظفـره بهذا الغريم نصرا فإن المروءة عنده فوق النصر ...  
وقال مجيئاً وهو يدلى رمحـه إلى جانبـه ، في لفظ هزته عبرة غلبت عينه المغضية من استحياء :

« لا ... يا أبا عبد الله ... » .

وكان هذا آخر عهد الزبير بالقتال . ركب فرسه ثم خلا منه الميدان كما خلا بعده من رفيقه ، وراح مصير كليهما في غمار المجهول .  
وتلفتت عائشة حولها من جزع وحيرة ... أهكذا تن عزائم الرجال ؟ وهل من مهرب يا ترى من قضاء ؟ وأين ذهبت المروءات ؟ ... ما رأت جنـدها إلا رجلا مال عنها إلى عين أو انحاز مسرعا إلى يسار ثم لا يجمع بينهما غير درب البصرة : مسلك الفرار . فكأنهم جميعا قد عميت أبصارهم عن الهودج القائم بينهم كالقلعة . شغلتهم عن المحنة المحيطة التي خلت البدن وأكلت الروح . ولكن المحن أحيانا تلهم ، وهذه زودت السيدة بما أجل هونا نكبة الهزيمة وأرجأ داهمتها حق حين ... !

صرخت فيمن كانوا يعدون من حولها متلمسين النجاة . فإذا الحزى يوقف الأقدام الفارة ، ويشلها أن تمن في الحرب تاركـة خلفها حبيبة الرسول للمصير المخوف ... آبت القلوب ، وقرت النفوس المذهوبة ، وعادت الناس حمية بعثتها فيهم المروءة فإذا صرخة الحرب تنطلق ثانية من أفواههم ، مدوية الجرس في نبراتها ابتهاج مع الدعوة إلى القتال ...

وهتفت عائشة — وقد رأت الزمر المذعورة فاءت كرة أخرى إلى الثبات ، ملتفة بالهودج كأنها سياج — تدعو قائدى جناحى الجيش ، ابن عتاب وابن هشام ، أن قفا أمام السيل ...

وكان — أول من لبأها مضر ، راحت تنضح عن الجمل ما وسعها الدفاع ، فقد مضت النبل ترشقه من كل مكان حتى غدا الهودج عليه كالقنفذ ، ثم تبعهم

بقية المناصرين. ورويدا رويدا تكون القلب ، فما تكنت في الجموع حتى انفصل بعضها يؤلف الميمنة والميسرة للجيش الوليد الذي تمخضت عنه المحنة ، وعاد القتال كبدة مسعر الأوار ...

وكذلك أمهل في عمر الوقعة . وإنك لتشهد الحماس يشيع في الناس فتعجب كيف أوتيت صرخة امرأة قوة تستطيع أن تحيي موات الأنفس وتعلأ القلوب رجاء . رورة . وما أسرع ما عادت صيحة الحرب على شفاههم إلى الحياة ، يزأرون بها ثانية . كمثل صراخ القساورة في بطن الغاب . . دوت من جديد « يالثرات عثمان » . فيها ضغينة الموتور وثورة الغاضب ، تتنقل بين الأفواه ثم تتجمع مع الأنفاس اللاهثة في جو الساحة كأنها ملاءة كثيفة تحجب عن الآذان كل ما عداها من المهرج والضجيج . .

واندفعت عائشة في حميتها المهتاجة فأخذت بكفها قبضة من حصى الأرض استقبلت بها رجال الأمام المندفقين على حماها تدفق السيل ، فصبتم بها وهي تصيح : « شأهت الوجوه ! ... »

ولكنها لم تجد شيئا من قوة الهجوم وإن لمجبت بدعوتها تلك مرات . بل بلغ التدفق على هودجها أشده . وتلاحمت حوله الرماح ، ثم تلاصقت الأبدان حتى غدت الحراب في أكف أهلها مشاولة ، عز عليها الحراك . فلعل وقعة قبل هذا اليوم لم تكن قط كالجل من فرط اشتباك الأسنة حتى لتستطيع أن تسير فوقها مواكب حاشدة من المطى والخيول ! ...

وندت من رجال الأمام صيحة لحربهم جديدة . مضى الآن عهدهم بالترفق وإثارة الذكريات في النفوس للدخولة عسى أن تفيء بها الذكرى إلى طهرها القديم ... كانوا في بدء المعركة يهتفون : « يا محمد » كأنهم يشهدون الرسول على أمر إخوة لهم في الدين آثروا الانقسام بعد الوثام ، ولكن الاسم الطاهر لم ينق الأنفس ولم يغير القلوب . ومضى أصحاب الفرقة وشأنهم ، بعيداً في مشاقهم ، وإن ساروا شوطهم على أرض رشوها بالدم . ولم يعد من دواء لهم في الوطاب إلا العنف يشفي ما ملأ عروقهم من العنت والضغينة ...

هتفوا الآن صائحين :

« يا منصور أمت ! ... »

وانطلقوا على أثرها ينعون الموت فرائس جديدة ! ...

وهتف بهم على وقد شهد التعامهم بالخصوم :

« السيوف يا أبناء المهاجرين ... »

خفلوا النبل والحربة وهزوا الحسام وهل غيره سلاح يستطيع الآن صيالا  
وقد التصق الغريم بالغريم ؟ ... إن السيف كان وحده أداة القتال في هذه  
الآونة ، يصول ولا يكاد . ويهترثم لا ينال غير الأطراف ، من قدم أو ساق ،  
حتى لم يرقط معركة أكثر يداً مقطوعة أو رجلاً بتراء ...

ومع ذلك فقد نزع النصر وطال الصبر والناس على ما كانوا فيه من شدة  
التحام . كلما رميت بالعين فيهم أعياك أن ترى بينهم ثغرة تمر منها النظرة ! ...  
بل غدوا سوراً ضخماً ، وطيد القوام حول « عسكر » كأنه بناء وثيق الجدر ،  
لبناته وأحجاره من أجسام ! ...

وظلت الرحي دائرة ، قطبها الجمل ، لا تكف لحظة عن الدوران ، ولا تنق  
تطحن المظم وتمصر الدم ، ما وقع بين شقيها فريق من أولئك أو غيره من  
هؤلاء . فكل الفريقين وليمة شهية ، تستطيها الوغى المنهومة !

## ٨

لم يفتقر القتال حتى أوشك النهار يزول . وكان الجمل العلم بين أصحابه ، التفت به  
الكتائب المدافعة . بل غدا لهم مثل الحجر الأسود داخل البيت العتيق ، له  
قداسة جمعت القلوب والخواطر ، وهفت نفوس كثيرة مفتونة ، أطاقوا به إطفاء  
الحجيج بالحرم ، واستشعروا نحوه بما يحسه الوثني لصنمه . . . وهذه الأزد  
لا تنضح عنه فحسب بالروح إنما قننت له ، وراح منها رجال يفتون بعره ويرفعونه  
إلى آناقهم يشمون في نشوة من التقديس الضال وهم يلهجون :

« بعرجل أمنا ، ريمحه ريمح المسك ! ... »

وكانت عائشة قد راودتها الآمال . كلما ألقت البصر أحست الأمن يقاربها شيئاً شيئاً ، والنصر يلوح لها يبارقاته . فما دام جيشها عرف الثبات من بعد فراره ، فثمة في رحاب المنى بقية . . . لقد غدا الدفاع عنها شرفاً تسابقت عليه القبائل ، واستهانت بالردى في سبيله . بل كانت تستقبله بالرضا والابتسام ، مشرقة الوجوه كما استقبل المياه ظمآن .

لم ينكل رجل قط إذ ذاك عن موقفه ، ولا أخذته على حياته خشية . فما غدت الحياة عندهم غاية كما كانت ساعة الفرار . دماؤهم الآن فدية رخيصة للجعل الدارع ، وللهودج الحصين ، وللسيدة التي رفعت لهم عصا القيادة . وإنها لترى ما غمر قومها من حمية فتزيدهم بحديثها حماساً على حماس ، وتنطلق الكلمات من ثغرها الذي شده العزم ونحله صلابة ، تهيب بهم ، وتدمرهم إلى المقاومة كأنها تصور أمام عيونهم أبواب الجنة فيندفعون في طرائق الموت سراعاً يبتغون الخلود . . .

التفت يسرة ، وسألت حماتها هناك :

« من القوم ؟ . . . ؟ »

قال صبرة بن شيان :

« بنوك الأزدي أم المؤمنين » .

فردت تبث فيهم النخوة وتثير من أمجاد الماضي بأنفسهم ما يشترون بعثله الموت سلعة ثمينة :

« يال غسان حافظوا اليوم على جلاذكم الذي كنا نسمع به . . . »

وجالد من غسان أهل حفاظها وهنب وأوس جالدت وشيب

ونظرت يمنة وسألت :

« من القوم ؟ »

« بكر بن وائل »

فهمت فيهم .

« لكم يقول الشاعر :

وجاءوا إلينا في الحديد كأنهم من العزة القعساء بكر بن وائل » .

فما كان لأحد فيهم يسمع هذا الحديث منها وأمثاله إلا استبسل وثبت ثباتا لا يترشح عنه أو يهلك ، ثم يتلوه آخر من قومه مكانه ، كأنهم جميعاً شلال ماء ليس يبطل اندفاقه . . . وما سمعها امرؤ من قوم آخر إلا سقط على أجله يتصيد لعلها مزجية حديثاً إليه يرفع في السير شأنه شأواً عالياً وشأن أهله . كان مباحاً إلى الموت لم تخل حليته ، تدافع فيه الناس غيراً كأفراس سبق كريمة . .

عسكر كان محور الحومة . على خطامه تساقط الأبطال من أعوانه كأنهم فراشات جذبتها وضاعة اللهب . ولكنهم ظلوا جهدهم يجالدون الهجوم الذي لم يفتروا ولم تنحسر عنهم أمواجه . وما كانوا قط فريسة سهلة لجند الكوفة المهاجمين بل جاوزوهم دراكا الهام بالهام والحسام بالحسام ، كلما استقبلوا منهم فئة خروا وإياها عند قوائم الجمل صرعى كأنما كانوا جميعاً على موعد والحتوف قرب أخفاقه .

فلعل الأرواح لم تعرض قط سلعة رخيصة كمرضاها بهذه السوق . . . وكان اليوم قد صار أصيلاً يصبغ الثرى بسيله ، حتى احمرت الأرض فلا يدرى أمن لون الشفق مكبته الشمس المائلة عند جانب السماء أم الأفق غدا صقال مرآة انعكست عليها حمرة الجروح . أما الأنفس خالت غيرها منذ قليل ، إذا اقتحمت بخيالكم الجسوم المكدودة إلى القلوب فيها سممت خفقها الدائب يردد أكرم الأحاسيس . الآن شغلها النبل عن الذات . خلفتها الأثرة البغيضة وملاها الإيثار . أصحاب عائشة أبدلتهم المروءة غيرهم رجالاً تشور في عروقهم دماء النخوة أن رأوا أمامهم أنثى توشك أن تكون مرشقا للسهام ، وأعوان على زادتهم المقاومة صلابة فعادوا عزائم مشدودة كوتر القوس عند التصويب ، لا هدف لهم إلا أن يتبعوا التضحية بأخرى تشغل وعيمهم عن نداء الحياة . .

وكانوا آية في إنكار الذات والفناء في شخص قائدهم العظيم . كانوا سفراء حافلاً من الإيمان بحقه قلب صفحة فتطالع بعدها صفحات أجل من سابقاتها وأزهر ، فاقت الإحصاء وجاوزت الحصر حتى هان بها المجد ورخص الفخر . . من البدء كانوا أحرف الوفاء . . الهول الذي خاضوا غمراته لم يباعد قط ما بينهم وبين إخلاصهم للإمام ولا يثقل خط اليراع . . ولا شابت الوجي

المخدمة حبههم إياه بشائبة من ريبة وإن عم الكرب أو فدح الخطب . ولكم همت  
الحرب أن تدع بيوتاً لهم خواء إلا من أنة أرمل ثكلى ودمة صغير يتيم ومع  
ذلك فلم تستطع الانتفاص من رجولة الرجال ، إنما مضوا أشواطهم جميعاً  
— من شباب وشيب — على أرض الساحة يستبقون متنافسين إلى موت أعز  
عندهم من الحياة . .

استبق الجند يعصفون بمن حياهم من حماة عسكر ، لا يردهم غير الهلاك  
وإن تشابكت حوله الأسنة ، وإن نافح عنه أقوام أشداء أجلاذ بالعدد أو بالعتاد .  
ولقد وقفت مضر كالطود عزيزة النفر تنثر الموت لمن حدثته نفسه بالتقدم فلم تغن  
عنها عزتها ، بل انبرت لها طائفة قليلة فيها بنو صوحان يسدد خطاهم ولاؤهم  
للإمام ، ليس منهم رجل تمسكه خشية أو يرده وعيد . وحين سمع زيد من بين  
الناس صوتاً محذراً يقول له :

« تنح إلى قومك يا ابن صوحان . مالك ولهذا الموقف ؟ . . ألسنت تعلم أن  
مضر بحياك ، وأن الجمل بين يديك ، وأن الموت دونه ؟ . . » .  
ابتسم على الأثر وقال :

« الموت خير من الحياة . الموت أريد . . . » .

فكانت له على الفور طلبته . وسار سبيله إلى حتفه يتبعه أخوه سيحان ، ثم  
يوشك أخوها صمصمة أن يرد نفس المورء لولا بقية من أجل حرمة أمنيته . . .  
وكذلك مضى المقاتلة من جند الكوفة يعصفون بأهليهم ورجال قبائلهم  
البصريين ، ويقصفون قصفا شديداً كل من وقف أمامهم ب مقام صيال . وبقدر  
ما بلغت حمية أزد عائشة الذين قدسوا الجمل بلغ حماس الوغى بأزد على ذراه ،  
فتساقطوا على عسكر عسى أن ينالوه ، لا يعينهم أن يقعوا تباعاً صرعى بل يهجمهم  
ويملك بالهم أن تمل رايتهم . . . انبرى بها في البدء مخضب بن سليم يشق قلب  
الجموع فصاده حينه ، فتناولها منه الصقب فقتل ، فالتقطها أخو مخضب عبد الله .  
وظلت هكذا رافعة خفاقة ، كلما أوشكت أن تغلتها كف قائد صريع بادر آخر  
من بيته يرفعها ليخلف سلفه على مزلق الحمام . . .

يمثل هذا تتابعت فرائس الموت ذلك النهار . وبأبلغ منه نالت الختوف نيلها من بكر وعلمها إذ ذاك في أيدي الدهليين . . . فلعن قاداتهم أجمعوا إلى أبعد الأشواط في التضحية والفداء ، واسترخا ص الحياة ، لأننا نسمع أبا العرفاء الرقاشي يقول للحارث بن حسان الدهلي ، حامل الراية ، وهو مشفق عليه :

« أبق على نفسك وقومك يا ابن حسان . . . » .

فلا يأبه لتحذيره ونصحه ، ولا يلقى نظرة نحوه أولى بها موقع القتال ، بل يهز علمه ويصيح بقومه بصوته الجهير :

« يا معشر بكر بن وائل . إنه لم يكن أحد له من رسول الله مثل منزلة صاحبكم فأنصروه . . . » .

ويندفع راضيا نحو حتفه ، ويسير على أثره ابن له ، ثم خمسة إخوة يسلكون نفس المصير . . .

وتشيع المقتلة تواء في الدهليين فيسقط منهم خمسة وثلاثون تباعا في فترة من الزمن قصيرة كلحة الطرف . إنهم تهاووا كما تهاوت السنايل على منجل الحصاد . ولكنهم لا يثنون قط ولا ينكلون . وتعصى بقيتهم شوطها في الحومة يتسامرون كمن في ندوة . . يقول رجل منهم لأخيه وسيفه يقدر الأعناق :

« يا أخى ، ما أحسن قتالنا إن كنا على حق »

فيعاجله الآخر وقد خشى أن يكون إيمان صاحبه مسته ريبة :

« فإننا والله على الحق . إن الناس أخذوا يميننا وشمالا وإنما تمسكنا بأهل بيت نبينا . . . » .

مفر حافل بآيات الإيمان بالهدف الذي قاموا يناضلون عنه ، ملائته صور من الوفاء والبطولة تجل عن الحصر إيهون معها المجد ويرخص الفخر .

شاعت المقتلة في أصحاب على شيوعاً عز مثله في الوقائع والمركة تسير سيرها إلى النهاية . وكان الموت إذ ذاك نقاداً يتخير الخاصة من القواد قبل الأجناد ، فهم على كتائبهم ، يشقون بها أمواج العدو كما يشق النيزك كسفة الظلمة . وما منهم إلا رجل قد وعى وصية إمامه التي أدلى بها إلى ابنه محمد حين دفع إليه راية الجيش وقال يبصره ويحضه على الثبات عند اقتحام الغمرات :

« تزول الجبال ولا تزل . . . . . عض على ناجذك . أعر الله جمجمتك . تدفى الأرض قدمك . ارم يبصرك أقصى القوم ، وغض بصرك : واعلم أن النصر من عند الله سبحانه . . . . »

ما من رجل فيهم إلا اعتنق هذه الوصاة شرعة أعز على التبديل والتأول فكلمهم للإمام ولد يأسره البر وتملكه الطاعة . وليس منهم إلا راغب في مصير يشارك به رافع اللواء وإن فدحتهم المصاير ، فظهم جميعاً سواء . وعندما أمر على ابنه أن « أقدم بهذه الراية حتى تركزها في عين الجمل » لم يكن يدفع به لغير فكي الموت ، ولم يكن أيضاً قد تجرد من شفقة عليه بل كانت نفسه تسيل رقة وخشية على فتاه أن يتخطفه أجله . ولكنه كان يرنو لغاية أعز من عاطفته يرخس في سبيلها الفداء بالمال والولد والروح .

على أنه كان محتجز ولديه الآخرين عن اقتحام المهالك ، فذانكم سبطا رسول الله لو ذهبوا لا تقطع نسله العاطر وعطلت دوحته الزهراء من ثمارها الطيبة . . . فكأنه استهدى سنة محمد في أخريات أيامه عندما احتجز علياً عن القتال بعد مصرع أخيه جعفر حرصاً عليه أن تنقطع ذريته الطاهرة بموته . وهل بقي الآن لرسول الله غير سبطيه أحد ينقل نسله إلى الأجيال ؟ . . .

قيل ذات يوم لمحمد بن على :

« لم يغرب بك أبوك في الحرب ولا يغرب بالحسن والحسين ؟ . . . »

فقال الفقي الذي عرف لأخويه قدراً عند ربه وعند الناس يغطهما

ولا يحسدهما عليه :



« إنهما عيناه وأنا يمينه ، فهو يدفع يمينه عن عينيه . . . »

وكذلك كان يركب المهالك ويخوض غمرات الموت راضى القلب رضى البال يقوده الولاء والإيثار ، وتدفعه شجاعة تدفقت في أوصاله من صلب أبيه . وعندما انبرى للجمل ليركز في عينه الراية لم يقعه الهول عن التقدم ، ولم تؤخره الوقدة الحامية التي شها رجال عائشة حول حصنهم الحي حتى غدت الأرض دونه قطعة من الجحيم . . . فكأنه إذ ذاك أعدى جنده بهذه البسالة التي تغلغلت في كيانه فاندفعوا إلى الغمار مثل اندفاعه لا ينكصون كأنما قد مات الموت . . . وأخذت الرحى الدائرة تطحن منهم القادة ، كابرأ بعد كابر حتى قتل على علم على من اليمن وحدها عشرة ، وعلى راية ميسرته طائفة موفورة بمن تألفت منهم كتابتها المختلفة الأصول والبطون . ولو نزع المرء إلى الحصر لأعياء أن يلم بالمصارع . ولكنها كانت منجلا حصاده الرءوس من كلا طائفتي المقتلين ، يسبق قادتهم إلى الختوف تبعهم من الجند ألوف تلي الأوف ! . . .

ونظر على وما زالت الحركة أمامه مصطفقة ، بين مد وجزر كأمواج اللجة في مهب العواصف . . هذا سراج البصرة يضطرب ويتذاب ، يلعب بذبالته تداول الصراع ، وها هي حقائقه تلتصع آنا وهاجة وآنا آخر خاية الضوء كأنها أشرفت على الخمود . ولكنها لا تكف عن بعث سناها ينير لأصعابها طريق الجلال المروور . وما دامت البهيمة الدارعة باقية بينهم على قوائمها فلانجاء إذن لهم ولا لحصنهم سواء بسواء ، ولا حياة لامرئ أو بقاء .

الإمام علم هذا قبل أن تشيع المقتلة في الناس كل هذا الشيع . وحال من البدء أن يكف غائلة الهلكة فهتف بأصحابه :

« من رجل يحمل على الجمل ؟ . . . »

فانتدب له هند بن عمرو المرادى ، ولكنه لقي مصرعه بسيف فارس كان يحمي البهيمة ، ويمسك بخطامها معتزاً كما أمسك في يديه بوثن معبود ! . . ولقى أيضا مصارعهم حفنة آخرون من خيرة العلويين ، منهم زيد وأخوه شيعان ، وعلباء بن الهيثم ، كلهم اخترمه سيف الفارس ، ونقذ إلى صميمه برجفة الموت . . .

عندئذ دعا الإمام إليه الأشتر ، وعمار بن ياسر ، فوجههما نفس الوجهة وهو يقول :

« اذهبا فاعقرا هذا الجمل ، فإن الحرب لا يخدم ضرامها ما دام حيا . . .  
إنهم قد اتخذوه قبلة . . . »

فانطلق الرجلان في فتية من مراد . واستبق عمار سبيله في ثوبه القرو وقد شد خصره بحبل من ليف . . إنه ليسرع الخطا ما أمكنته التسعون التي قضاها بهذه الدنيا عازفا عن وجهها مستدبرا أطايبها وأمانها المغرورة . حتى إذا شق له سيفه طريقا بين عدوه قطعه على الأشلاء والجحاجم ، انبرى له نفس الفارس الرهيب الجنب ، بهم أن يستقبله ، كما استقبل الدين قبله ، بالحمام النهم على شفرة حسامه . . .

ذلك كان ابن يثربي ، مدلف كعب بن سور على قضاء البصرة ، قد نشط وتيته ونقر عرينه . . . الشجاعة كانت لحنا يترنم به خفق قلبه ، والخيلاء جاءت صدى لنصره على تلك البضعة من أخصامه الذين راموا الجمل فدهتهم الردى من دونه . . . فلعله حين رأى الشيخ يدب نحوه حسبها خطوة لعمار نحو القبر فابتسم رثاء أو استهانة . وهل لفان كابن ياسر طاقة بعجندل المغاور ؟ . . .

ولكن عمارا كان أبصر منه بالمغامز ، أعرف بالنفوس من أين ينفذ إليها العطب نفوذ الديدان في الحماة الرخوة . كان الشيخ واسع الحيلة كشلب ، عرف من غريعه افتتانا بالفخر فنفذ إليه من خلال خيلائه . فما أن سمعه يرد مزهوا شعرا غثا يشيد بانتصاره على ضحاياء حتى هتف به عمار :

« إن كنت صادقا فاخرج من هذه الكتيبة ، فلقد لعمري لذت بحريز وما إليك سبيل . . . »

فكبر على ابن يثربي تحدى الشيخ المعروق ، وخشى إن هو لم يسرع فيلحقه بمن أصاب أن ينتكت عليه نخره . . فليردنه إذن ثم يعود إلى خطام الجمل يسك به ، وإلى الهودج ومن فيه يحميه . . .

واندفع غاضبا نحو عمار ، وهز سيفه سريعا ثم انقض به انقضاض صاعقة .  
ولكن الشيخ الواهن الضعيف كان أسرع منه حركة وأكثر بقظة . قبل أن  
تنبه العيون الرقية سبقت درقته اللحظ كما سبقت السيف الهاوى فتلقت الضربة ..  
وفرت من ابن يثرب فرصة للمباهاة ! ..

فما أسرع ما انتقلت البسمة من فم الفارس الساخر إلى شفتى ابن ياسر ! ..  
وما أضل عين الكبرياء الجريحة ! .. في سورة من غضبه اندفع ابن يثرب يعالج  
السيف المنتشب بدرقة غريعه فكان كمن شاء اقتلاع دوحة بعيدة الجذور  
في أغوار الأرض . عصاه السيف ونخبطه الاضطراب الذى أوقعه فيه حرج  
موقفه أيما تنخبط . فقد غدا الآن أعزل لا يملك شيئا لنفسه ، حياته ملهاة في يد  
العدو الهزيل . . .

وشهد الناس إذ ذاك مجندل المغاوير مسلوب الحول ، ذلك الذى شق خندقا  
من الموت حول عسكرهم أن يحتويه خندقه ، وأضحى الرثاء كله الذى أحسته  
الجموع نحو الشيخ الواهن منذ قليل يحوط البطل الصنديد . ولم يعمله حينه ،  
ولا ترفقت به النازلة التى أعدتها خيلاؤه لخصمه المجترى عليه ، بل جاءته سراعا  
في برقة من حسام عمار لمعت ثم هوت فأطاحت عنه ساقيه . وتركته لقي على  
الثرى قد انهار دفعة واحدة كما انقض بنيان . . .

فكم من صريع إذ ذاك رقد عند قوائم البهيمة ؟ وكم علما انتكس ونجما هوى  
من الأعلام والنجوم ! .. طائفة حمة من الوجوه والأكابر . وزمرة بالغة لقيت  
الحتوف وافرة وما فيهم إلا أماجد وغول ، حتى لقد شككت قريش من أعيانها  
على خطامه سبعين . . إن عائشة لتنظر فلا تبصر ، فالدفع حجب عنها مضاجع  
الفواجع والأسى الساج في جو آمالها سحابة من قتام اليأس وسواده ، ردتها توا  
من نعمة الحلم إلى نقمة الواقع . . .

وأخذ الزيت في السراج ينضب . وبدأت الذبالة تجف وتحقق خفقتها الباقية المؤذنة  
بالانطفاء . . أين من الحومة الآن بنو ناجية ، أولئك الذين كانت تذرهم السيدة  
فتقول : « سيوف أبضعية وسيوف قرشية ! » ؟ . وأين الأزد التى فتت البعر

تشمه في نشوة غامرة من الولاء والتقديس الضال ؟ .. وأين بكر الدارعة في الزرد  
والحديد ذات العزة القمساء ؟ .. تحظفتهم جميعاً المصارع ، وخلت منهم ساحة  
القتال إلا أشلاء منشورة على أديعها تؤلف أدمى وليمة للنسور والعقبان ! ..

ومع ذلك فلم يبرح الرجاء قلب عائشة بعد نزول كل هذا البلاء . وما زال النصر  
يخطف بخيالها خطف البرق في ليلة قر كثيفة الغيوم . فتمة بخيالها بنو ضبة ،  
الذين دعته « جمره الجمرات » تحملهم أقدامهم وترفع هامهم ، وإنهم ليدفعون  
عنها كدفع الليث ، وينطلقون في جلادهم خفافا كأنما راموا هزيمة الموت ! ..  
ولكن السور الذي بناه أولئك الأبطال من جسومهم حول الهودج راح  
يرق مع اللحظات ، كلما حيت الحرب وزاد الكرب . . أخذت تنشر في كيانه  
المتين ثغرة هنا وثغرة هناك ، الموت أعتى عليهم عدواً من أن يستطيعوا جلاده ! ..  
وبدأت أيضاً ترق معه غلالة الأمل التي كانت تغشى خيال عائشة وتمسك قلبها  
الشجاع أن يذوق وخزة الهزيمة .

عندئذ همست ، وصوتها الخفيض الراءش تحبسه أن يجاوز سمعها ، وقد سرح  
همها على خديها في دمة :

« ما زلت أرجو النصر حتى خفتت أصوات بني ضبة . . . »

وردت نفسها عن اليأس الطاغى ، جاهدة ، إلى حفنة منهم بقيت في الحياة .  
نعم ما كان من بلاء قومهم من أجلها ، ومن وفائهم لها وفاء لم يأكله الموت وإن  
أكل كثرتهم ! .. إن قلبها الثقيل بالأسى لا يستطيع أن يكن حزناً عليهم يكافئ  
ما أبدوه من شجاعة . وإن عينها لتطيف بمواقع أقدامهم فتراها خواء لولا  
شرذمة أخرى من الجند ملائمتها وخالطت بقيتهم ، تهم جهدها أن تتلوهم  
في مسارى الخلود . . .

وقالت عائشة تسأل عن الحماة الجدد :

« من أنتم ؟ »

« بنو عدى ، خالطنا إخواننا من ضبة . . . »

فزفرت من حسرة تقول :

« مازال رأس الجمل معتدلاً حتى قتلت بنوضبة حولي . . . »  
فكأنما لسعهم من كلامها بنار ، سرت دماؤهم في عروقهم شواظاً فوقعوا  
تباعاً على الموت يحاولون رد موكبه وسد السبيل دونه عن الهودج ومن فيه ، حتى  
أقاموا كرة أخرى رأس الجمل رافعة شماء . . .  
ولكنها كانت الخفقة الباقية للسراج يافظها ثم لا ينير . . .  
وكما يسطع ضوء الدبالة أزهر وهاجاً في خفقته الأخيرة ، فكذلك أبدى  
رجال عائشة من ضروب الشجاعة والجرأة في الدفاع عنها ما لم يبدعه أحد منهم قط  
من قبل ، وما يعز مثله على طاقة البسالة .

## ١٠

هاض جيش عائشة .

لم يعد جيشاً بعد . لا ساقة ولا جناح . غدا كله قلباً ، بل شيرذمة من القوم  
عند الجمل ، تنضج وسعها عنه في اضطراب وزحام ، يتنافس أفرادها في مسك  
خطامه ، وفي رفع رأسه عالياً كما يرفع القائد اللواء . كلما سقط حام مجندلاً تحت  
قوائمه زحف آخر ليمسك بعده الراية العجيبة ، ليتبعه إلى نفس مصيره . . .  
ولم يعد لهم أيضاً قائد يوجه قوامهم ويسدد خطاهم . كلهم غدا ذلك القائد ،  
يعمل غفو خاطره وحسباً تملئ عليه حركة الصراع العنيف المشوب . . . حتى  
ابن عتاب رضى مختاراً أن يترك عصا القيادة وآثر عليها الخطام ، بل آثر وهو  
مكره فلا مجال أمامه للاختيار وإنه ليظل حامل هذا اللواء حتى تأتيه ضربة  
سيف تفصل عنه يمينه ، ثم ترسله على أثرها حطاماً بين الأشلاء . . .  
وأضحت السيدة الآن لا تدمر الكتائب ، ولا تثير في الناس حماس الحرب  
بالتحدث عن أمجاد قبيلهم وأهلهم ، فقد تفككت وحدتهم ، وباتوا فرادى بعد  
تكامل واجتماع . وراحت عينها تستهدف الزمام وحده ، كلما أمسكته يد سألت عن  
صاحبها ثم أثابته عن بلائه بلفظ مشير . . .

وسألت عن ممسك الخطام قليل :

« محمد بن طلحة » .

فدعت له . واستأهمها الفتى ما تريد :

« مربي بأمرك يا أماء . . . » .

فقات وقد أخذها الريب في بقائه حيا إلى كثير :

« يا بني . آمرك — إن تركت — أن تكون خير بني آدم . . . »

وكان هذا آخر ما سمعه في الواقعة كلاما واضحاً بغير إيهام . وكان آخر قوله

أن صاح وهو يحمل على السيول الدافقة من جند عدوه :

« حم . . . لا ينصرون »

ثم إحتواه الرغام . . .

ثم أقبل امرؤ طوال نحيل ، أجرد الوجه لا يحف وجنتيه شعر ، أطلس  
اللون مثل ذئب الصحراء . فعندما أمسك زمام البهيمة لم يعلن نفسه كما كان  
يعلن سواء ، بل ختم على شفثيه بالصمت . . . قد كان يؤثر أن يجنب السيدة  
مغبة الإعلان . . .

ولكنها سأله . ثمة رجفة من القلق زحفت إلى صدرها ، لها مثل ملمس  
الرقطاء ، جعلتها تسأله في اضطراب :

« من أنت ؟ . . . »

« ابن أختك . . . أنا عبد الله » .

فصاحت جزعة من خشية عليه :

« واثكل أسماء . . . »

غير أنه لم يزايل مكانه ، ولم يتخذ لنفسه ملاذا بعيداً عن الموقف الذي كان  
شدقا للموت يزدرد كل من دنا إليه وإن جزعت خالته وودت مخلصه لو جاوزه  
وتركها وحدها لمصيرها كيفما يكون . . . بل وقف بذود ويصول . . .

فإن عى إلا لحظة حتى جاء الأشر وقارب الوجار ؟ . . . إنه لميشى إلى مريض

الذئب الأطلس ، يروم صيداً يقصف به الجمل ، ويخضع صاحبه ، ويشكل أسماء .

ولحه من أعوان السيدة عبد الله بن حكيم بن حزام ، فأسرع يحول بينه وبين مبتغاه . لم يغب عنه قدر الأشر ، ولا شك لحظة في أنه جاءهم برسالة الهلاك . . . .  
ولكن ضربة واحدة قضت على المعترض وفتحت الطريق . . . .

ووقف الغريبان وجها لوجه تلتمع في حديقهم نظرة الضراوة . فما تقابلت عيونهما حتى تقابل سيفاهما ، وما اختلفا ضربات إلا كان لجسم عبد الله بن الزبير منها أوفى نصيب ، كلما رمى غريعه بطعنة أصابته مقابلها بضع طعنات . . .  
أما السيدة في هودجها فلاملها ذقت المات مرة بكل ضربة أسالت من ابن الزبير ولو قطرة واحدة من الدماء . . . نخصمه شديد عنيد ، بدا كأن قد آلى على نفسه ألا يدع ربيبها إلا جدثا هامداً فارقه الحياة . . .  
وصاحت كرة أخرى من قلبها الكسير :

« واثكل أسماء . . . »

وكان الأشر حينذاك قد قل من حد مصاوله ، وأحاله كتلة صامته من اللحم لا تنطق فيها إلا السن الجروح . . . ومع ذلك فقد ترفق به وسمه ، ورد سيفه أن يجهز عليه . كم لقي المنتصر من هذا الكبح الذي حرمه لذة الظفر كاملاً غير منقوص . . . . إن بقلبه هاتفاً رحيماً يمسك عليه عنقه — ذكرى من الماضي الغابر يوم كانت النفوس كلها تدين بالآفة وقد صفت من شوائب الضغائن . . .

ولم يجد الرجل متنفساً لضيقه الذي أحسه غب السكتان إلا أن يأخذ برجل خصمه المهيض فيقذف به في الخندق كقذفك الصخرة وهو يقول :

« والله ، لولا قرابتك من رسول الله ما اجتمع منك عضو إلى آخر . . . »  
وتركه حيث رماه نهبا تقاسمه الموت والحياة . . .

كان على حينذاك قد أبطأ عليه الجسم . فالبعير ما زال قائماً ، رافع الرأس كالعلم بين الكتيبة ، وحماته نسوا الموت وإن لم تنسهم نوازلهم . . . كلما مضت إليهم فئة من أخصامهم حكموا بينهم وبينها السيف حتى شاع القصف وذاع الحتف . وظل كلا الفريقين على عناده لا يتزعزع ، ولا يبطأ طيء رأسه لاشدائد . . .

أبطأ على الإمام الفصل حق غدا بينا لديه أن الناس لن ينفذوا أو تسقط  
عائشة صريعة في الغمار . وخشى عليها هذه المغبة الحزينة التي ستجلب حتما بالعار  
جهاده وتسم جلاده . . . . . ومتى كان يستبيح من الأقران المغاوير إلا الأكفاء  
دع النساء . . . . . وأين له النصرة عند الأجيال لو صرع رجاله امرأة وإن أجلبت  
عليهم بالخيال والرجل وعدة القتال الرهيبة بعد إجلالها بالحقد والضغينة . . .  
وكيف يستطيع إذن أن يحتفظ بوفائه لذكرى صفيه رسول الله لو حم الآن  
في امرأته القضاء . . .

عندئذ صرخ في أعوانه ممن هم أدنى إلى البعير منه :

« اعقروا الجمل . فإنه إن عقر تفرقوا . . »

ثم انثنى إلى رجل من ضبة فأمره :

« دونك الجمل يا ابن دلجة . . »

نخف الرجل لما انتدب له يشق زحمة الخلائق المشتبكة على مواطئ البهيمة  
وإن شعوره ليدفعه دفعا إلى القيام بهذه المهمة الحبيبة إلى نفسه عسى أن يبقى على  
ما فضل من بنى ضبة أهله الذين راحوا صرعى إلاقلة . .

غير أن الاشتباك أوشك أن يفسد عليه أمره ، فما يرى فرجة في الناس ينفذ  
من خلاها إلى البعير ، ولو نفذ لما أمن أن تهتله طعنة يضع على ظبة سيفها أمله  
كما يضع دمه . . . فاعل القعقاع رأى من حيرته حينذاك علائم علت ملاحه ،  
فقال له ييسط رأيا يحقق أربه :

« يا بجير ابن دلجة ، صح بقومك فليعقروا الجمل قبل أن يصابوا وتصاب

أم المؤمنين . . . »

فلحمت على الأثر عيناه الآن تدرك الحيلة مالا يدرك البأس

وصاح من مكانه بقومه الضبيين حماة البعير :

« يال ضبة . . . يا عمر بن دلجة ! »

فإذا صوت ابن عمه يأتيه :

« ما تريد يا بجير . . . »



« ادع بى إليك . . »

فدعا به . حتى إذا بلغ مقربة منهم قال يستأمن :

« أنا آمن حتى أرجع ؟ . . »

« نعم . . . »

فما رنت بسمعه الكلمة حتى وثب وثبة شيطان جعلته من الدابة عند قوائعها .  
وقبل أن ينتبه أحد إلى مايروم ، كان سيفه قد انسل ، ثم هوى فاجتث ساقها  
وأهوى بها تهدر من ألمها على الأديم .

حدث هذا ولما يطرف لحظ ، ولما ينقشع عن الجو صدى لفظة الأمان التى  
ألقاها ابن عمه إليه . ووجم الناس فقد أذهلتهم المفاجأة ، ولكنها وجهه مباركة ،  
شملت حركة الحماة أن يماودوا القتال . . . لقد ذهب العلم فهاض أمر الكتيبة ،  
تحطم الصنم الذى قدموا له كل هذه الضحايا والقرايين . . .

وهتف على فى ذات اللحظة التى سقط فيها البعير :

« أيها الناس ، إنكم آمنون . . . »

فارتدوا إلى وعيهم حيارى ، ولكنهم منعوا الحياة . . . انطوت الآن محنة  
الحرب ، وبقيت محنة السلام . . .

بعد المعركة

هدأ النقع وهدمت النار . الجمره التي تأورت فشبت جميعاً عادت سيرتها الأولى  
سوداء باردة ، قد غلفها رماد الهزيمة ورماد الانتصار . . . وفاءت النفوس بعض  
فيها إلى الطمأنينة . والقلوب التي تملكها من قبل سورة الوغى حتى التمسست أمنها  
في المنايا ، غلبها الآن على مبتغائها الحياة فوجدت أمنها في السلام . . .

وكانت كلمة الأمان قرب السيوف المسنونة . ما إن دوت حروفها في أرجاء  
الميدان حتى أسلم القتال علمه ، فترجل الفارس ، ووقف الراجل ، ورقدت فورة  
الحماس في ظلال السكينة ، ثم ألقوا جميعاً زمامهم إلى وجهه مذهلة ، لا يعرفون  
أيان تفضى بهم إلى مصيرهم الخفي المجهول . . .

ولكنه كان مصيراً لا يغشى الظلام دربه ، بل سطعت في مسراه بارقات الرجاء .  
إن قلوبهم لخبرتهم بخير وإن امتلأت إلى حوافها بمرارة الهزيمة ، فذلك عهدهم  
بأبي طالب وما يعرفونه من خلقه الرفيع . إنه الخصم الشديد العنيف حين  
البأس ولكنه المترفق الشريف حين القدرة إذا ما ضاقت عن عفو غيره من  
العالمين جعبة الغفران . وما كانوا في استمساكهم بالرجاء واهمين ، ولا أخطأوا  
تصور سماحته ، فها هو مناديه بحبب الصفوف رافعاً صوته على ملائمة الناس :  
« . . . ألا لا يتبع مول ، ولا يجهز على جريح ، ولا يقتل مستأسر : ومن  
ألقى سلاحه فهو آمن ، ومن تحيز إلى عسكر الإمام فهو آمن . . . »

فأعجب بالنصر كيف غير النفوس الظامئة إلى دمائه ودماء ناصريه أخرى  
تراحمت على ابتغاء رضوانه . . . ولكنهم الناس دائماً في كل أرض وحين ،  
بطانة الغالب وخصم المغلوب ، والويل منهم لمن توطأت له المزالق . فإنك لتشهد  
ولما ينقشع عثير المعركة ، جموعاً من أجناد البصرة أتوه صاغرين ، أحنت هامهم  
الطاعة ، يبسطون باليعة الأكف بعد بسطها بالسيف . . . بل قد كان منهم  
فوج سارعوا إلى استرضائه والقتال مرفوعة بنوده ، بل لعلمهم زمراً إذ ذاك وأفواج ،

كتلك الطائفة من الأزد التي راحت تبت في طريقه الختوف ، فلما طعنتها المنايا  
صارعت تلوذ بالولاء له ... هتف أحدها حينذاك يهيجها وقد أخذته حمية الصراع :  
« كروا .. كروا .. »

فاتبعوه ، ينزلون على عدوهم نزول الصواعق . فلو لا أن لقيتهم من أصحاب  
على فئة تمرست بالشدائد . لقصفوها . ولكنهم قابلوا أطراداً رواسخ ليست تميد ،  
يقودها حيالهم محمد بن علي فيزلزل في قلوبهم ثقتهم كما زلزل تحتهم الأرض .  
عندئذ صاح من بينهم من كان يؤثر الحياة :  
« يا معشر الأزد .. فروا .. »

فما أغنى عنهم الفر بعد الكر ، ولا جنبهم المصارع . إنا آبت بهم الضربات  
القاصمة التي اعتورتهم إلى اللياذ بالمعصم الأوحى الذي يرد عنهم العوائل ، فإذا  
بهم يصرخون ضارعين :

« نحن على دين على بن أبي طالب .. »

وكذلك آب مثل أوبتهم ، غب الموقعة ، سواد جند البهجة ، وفاءوا يبتغون  
رضوان الغالب . وإنهم ليزدحمون على التحير إلى عسكر الإمام وإلقاء السلاح  
ازدحاما أشاع فيهم جلبة دونها جلبة العركة المحتدمة ، فحب البقاء عادهم ثانية . ثم  
استبقوا يريدون الإدلاء بالبيعة إلى الرجل الذي حاربوه أشهراً بالسيف والفضيعة ،  
إلى قلة منهم تفرقت في مشارف البصرة تصمم بالفرار . . .

ولم يكن على ليأبه إذ ذاك بالأكف المدودة . ثمة ما هو أولى الآن باهتمامه  
وأحرى بأن يلقي باله إليه قبل غيره من الأمور . ثمة عسكر والهودج وساكنه  
أم المؤمنين ، لأن أغضى عنها جميعها حتى حين فقد يعنى حدث يخلط عليه العواقب .  
إنه لا يأمن أن تهتل بضمة من العوغاء في جنوده فرجة الاضطراب السائد فتتال  
السيدة بشر يعيذها منه ، فما زالت النفوس في أغلبها تجيش بالرغبة في الثأر منها  
إذ هي عند أعوانه أصل الكرب وناخلة الحرب . . . وهو أيضاً لا يأمن أن تفتن  
بضعة كبيرة من جند البصرة بتلك البهيمة الضلة ، كمثل الأزد التي قدستها ، لو  
خلى بينها وبين الحياة ولو خفقة نفس أو تردد زفير ، فما زالت في أولكم نفوس

ضعيفة ، تغلبها سذاجتها كما تغلبها جهالتها على تلويث عقيدة الفطرة التي لا تستجيب  
لخارف الأباطيل . . . لذلك ما كادت الموقعة تؤذنه بالنهاية بعد عقر الجمال ، حتى  
دعا على إليه محمد بن أبي بكر ، فوجهه إلى عائشة وهو يقول له :

« انظر هل وصل إليها شيء . . . »

والحق به عمار بن ياسر ، فانطلقا سويا صوب الهودج فاحتملاه بعيداً  
وصاحبته فيه لم يصبها أذى ، بعد إذ قطعاً بطن البعير ، ثم انتظرا ما يأمر  
به الإمام .

وكانت نجاة عائشة أول ما أفاء الهدوء على علي وأعاد إلى قلبه الطمأنينة .  
فما يحمل بها قط ضغنا ، وإن نفسه لأصفي معدنا من أن تمتلج بها الأحقاد .  
وألقي على الأثر قضاءه في الدابة المضلة ولها إذ ذاك هدير يصم الآذان ، أمر  
بها أن تقتل ، ثم نحرق ، ثم يذرى رماد جثتها مع الريح فلا تبقى منها بقية تفتن  
البله وضعاف الإيمان ، وحين فرغ أصحابه من الجمل ، وغدا تراباً يذروه الهواء ، قال :  
« لعنه الله من دابة ، فما أشبهه بعجل بنى إسرائيل ! »

ثم تلا وعينه تفتقل من جند البصرة إلى ذرات الرماح المتطاير في الجو  
فوق الرموس :

« . . . وانظر إلى الهلك الذي ظلت عليه عاكفا ، لنحرقه ثم لنسفه  
في اليم نسفا . . . »

وكان المساء قد أخذ يضرب خبائه على الجموع ، ظافرههم ومخذولهم ، وقد  
جرت في هوائه قرة الشتاء — ولكن علياً لم يلد بأوار البلدة التي مدت إليه  
أكفها بالترحيب . آثر أن يظل حيث هو بساحة الموقعة حتى يفرغ من الأسرى  
والسلاح والغنائم ، وحتى يفرغ الناس من دفن موتاهم واستنقاذ جرحاهم . وقد  
ظن بعض صحبه أنه لن يدع من عدوه أحداً حياً بعد أن أظفروه بهم الله فجاء  
إليه من قال :

« بأمر المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى . . . »

فأبى وأجاب :

« لا أقتل أسيراً من أهل القبلة إذا رجع ونزع . . . »

وجىء إليه على الأثر بموسى بن طلحة والناس يتسارون بينهم : « هذا أول قتيل » . . . فما حسبوا قط أن يلين ابن زعيم المناهضين إمرة الإمام وإن وقع عنقه تحت شفرة السيف . ولكن الفتى أقبل فبايع ولقى من على رفقاً أسكن بقلبه الطمأنينة . . .

ومع ذلك فلم يقتل الإمام امرأً من أخصامه أتت به إليه ذاته ، يستوى عنده من تاب وباع ومن علم ألا خير من ورائه وإن أبدى طاعة هي في حقيقتها بنت القهر ثم أخفى خصومة ناعقة كإخفاء الثاب اللامع سم الثعبان ! . بل هو اتسعت رحمة عفوه لأعنى خصومه عليه عداً وضغينة . وسرى من آيات رفقته وحسنه جلائل رائعة في القريب .

وقضى وقته من بعد بعيان الواقعة ، يتفقد فيها أمور جنده وأسراه ، ويعنى بجرحاهم وجرحاه . . . وهو لا ينفى في كل لحظة تسنح له عن كبج غلواء أعوانه ، وما استجاش بقلوبهم على أعدائهم من زهو النصر . كان يروض وسعه كراهمهم لأولئك الخصوم لعلها تعود ثانية إخاء ومودة ، فخر شعبه الآن في الألفة ، ولا غناء في رأيه لأحد من الفريقين عن تصفية النفس من أدران الحقد وشوائب الحزازة . . .

إنه ليضرب المثل لهم بلغة يتحدث بها فعلة قبل قوله . فما مر بقتيل من عدوه إلا ذكره بخير أو بكاه فأبكى حوله الناس . ولا صادفته جثة منهم تبين صاحبها إلا نشر من فضائل خصمه الصريح صفحة مطوية . . . توقف هنيهة عند أشلاء كعب بن سور فترحم عليه ثم قال لمن حضره من رجاله :

« . . زعم أنه لم يخرج إلينا إلا السفهاء ، وهذا الخبر قد ترون . . . »

ولما شهد جثة محمد بن طلحة بان الأسى على محياه ، وقال وهو يرد دمة تغاليه :

« رحمك الله يا محمد ، لقد كنت في العبادة مجتهداً ، قواماً آتاء الليل ، صواماً

في الحدود . . . » .

ثم التفت إلى أصحابه وقال وعينه لم ترتفع عن الصريح :

« هذا رحل قتله برأيه . »

وكذلك ظل يرثى قتلاهم ، وينشر من أمجادهم على الناس ما أباحه وقته القصير . بل قد صلى على الموتى منهم ومن أجناده على السواء . وأمر بقبر كبير أن يحفر ليحتوى الأطراف الكثيرة المقطوعة من الأيدي والأقدام . . . .  
وحين مر في البصرة بتلك الحربة التي شهدت آخر لحظات طلحة بن عبيد الله على أديم الحياة ، ذكر من مشاهد الصداقة القديمة والصديق القديم ما أعادته الجثة الطريحة إلى ذاكرته ، فإذا عينه تبتدر ، وإذا دمه يلتصع تحت ظلمة الليل . . . ووقف برهة خاشعا ، قد ختم حزنه على شفثيه بالسكون وإن تحدث بقلبه أساء في خفق دائب متذائب .

وقال بعد قليل ينفس عن بعض ما يعاينه :

« أعزر على أبا محمد أن أراك معفرا تحت نجوم السماء ، وفي بطن هذا الوادي . . . أبعد جهادك في الله ، ودفعك عن رسول الله ؟ . . أما والله لقد كنت أكره أن تكون قریش قتلى تحت بطون الكواكب . . . »  
وملكته العبرة حتى لم يسمع سوى صوت أنفاسه ، لولا أن هتك امرؤ عليه هداة الحزن يقول :

« يا أمير المؤمنين ، أشهد لقد مررت عليه بعد أن أصابه السهم وهو صريع فصاح بي : « من أنت » ؟ . . فقلت : « من أصحاب أمير المؤمنين » . . فقال لي : « امدد يدك لأبايع لأمر المؤمنين » فمددت إليه يدي فبايعني لك . . . »  
فرفع على رأسه في هدوء كأنما قد انجباب عنه إذ ذاك وقر ثقيل ، ثم قال :  
« أباي الله أن يدخل طلحة الجنة إلا وبيعتي في عنقه . . »

ثم مضى طريقه وإن قلبه من صفائه ليرجو المغفرة للعدو قبل الصديق . وإنه ليرد طرفه الذي غشاه الدمع عن جثث القتلى المتناثرة في جنبات الميدان ، ثم يهمس في ابتهال وعينه على السماء :

« إني لأرجو ألا يكون أحد من هؤلاء نقي قلبه إلا أدخله الله الجنة . . »

٢

كان محقاً إذا خشى أن تنوش عائشة سفاهة السفهاء، فماله على النفوس المغلولة سلطان، ولا تستطيع عينه أن تكون رقيقاً على هذه الألوف المحتشدة من جنده الذين تغريهم نشوة النصر، فتدفعهم إلى ركوب المحذور.

ولقد صدق إذ ذاك حدسه ووقع بعض المكروه وإن لم يتسع الوقت لتكرار وقوعه، ولكنه على أى حال صورة كانت حقيقة بالتكرار إذ ذاك، لها دلالة واضحة على ما علق ببعض النفوس من زراية بعائشة، والتهاون بقدرها الجدير بالسمو عن الزراية والامتهان فقد أقبل غب الموقعة أعين بن ضبيعة المجاشعي فمد عينه تفتحم الهودج حتى اطلع على ما فيه فروعت السيدة جرأته البغوضة، وصاحت به مستنكرة :

« إليك لعنك الله ! .. »

فضحك اللئيم باستهانة وقل وهو يهز كتفيه :

« والله ما أرى إلا حميراً ! »

وتركها تستنزل عليه أقسى الدعاء ..

جنبها على هذه المشاهد المرذولة التي تضيف على قلبها بعد ذلة الهزيمة مرارة الهوان، فأمر أخاها أن يضرب عليها قبضة بعيدة عن مهاوى الأشلاء وشماتة المظفرين . وكان القتي وابن ياسر قد استنقذاها من بين القتلى واحتملا هودجها فوضعا حريزا في خباء بعيد، فلما خفت حولهم حركة الجنود أقبل فمد يده من خلل الستر معلنة عنه .

حينذاك أجفلت مروعة، وهتفت به .

« من أنت ، ويلك ! »

فلم يزد محمد على أن قال :

« أبغض أهلك إليك ! »

فعرفته في التو :

« ابن الحثمية ... »



« نعم . أخوك البر »

« عقوق ! . »

ولوت وجهها عنه مغضبة .

على أن نفسه السيالة عليها بالرقعة ، المليئة بالعطف والرثاء ، لم تطاوعه أن يلقاها بعثل غلظتها التي أثارته في قلبها مرارة الخذلان ، فقال لها في ترفق :

« يا أخية . . هل أصابك شر ؟ »

فسايرت غضبها إلى مداه :

« ما أنت من ذاك . . »

« فمن إذن الضلال ؟ »

« بل الهداة ! . . »

وساد الصمت بينهما لحظة غالب فيها كلاهما خفق قلبه ، فلما أن خلفتها سورتها ، وآبت نفسها إلى عواطف الأخوة التي جهد غضبها أن يكتمها عنه ، ارتدت كرة أخرى أنثى ضعيفة ، تنازعها عواطف الحنان والتراحم ، فهمست له في صوت جاش بفرحتها أن شهادته أمامها يزدخر فيه ماء الحياة :

« بأبي أنت وأمي ! . . الحمد لله الذي عافاك . . . »

ونسيت في هذه اللحظة ما كان بينها وبينه من خلاف . نسيت الغضب والحرب والحزازة ، وأقبلت عليه تملأ ناظرها بمنظره . .

ووسعهما من بعد الحديث بفنوته ، وبما تشعب منه من عتاب وملام . أما هو فقد كفاه نصره الإيمعان في إثارة المواجه بنفسها المغلوبة ، وأما هي فقد جهدت طاقتها لتتأى بالكلام عن مغامر الألم التي ينكأها بقلبها الخوض في محنة اليوم الناشئة عن أخطاء أمسها القريب ، حتى لقد ودت بعمرها لو لم يثر فيها الققي الشجن حين قال :

« ... أما سمعت رسول الله يقول : على مع الحق والحق مع على ؟ ... »

بل قد علمت إن لم تكن سمعت لولا أن للزمن سطوة وللنفس كبوة . ولو قد خلى الآن بينها وبين عمرها فلعلمها ترتد به إلى الوراء أعواما حمة ثم تغير من فعلها ما يجنبها اليوم مرارة الندم ووخزة الضمير ...

إن المرء لا يكون خالصاً لعاطفة بعينها تسيطر عليه ، وتوجه خطوه في كل طريق ، بل هو دائماً نهب لقدر من العواطف ، فيها توافق وفيها تباين ، لا تنى تتجاذب نفسه وتلعب بخطاه . وما على غير هذا النحو كانت عائشة عندما عادت الإمام ، فهي صورة من النفس البشرية في ميولها وفي استجاباتها للنزعات . طالمتنا بحقدتها على علي حقدآ ألب عليه البنود والجنود ، ثم كشف لنا عن قلب جرى الندم في عروقه جرى الدم ... ولم يكن تدمها إذ ذاك مستحدثاً أبدعته الهزيمة ، إنما استشعرته ولما يبدأ بينها وبين خصمها الصراع ... أأست تراها عند بدء الوقعة تصيح وقد سمعت من جيشها اللجب ضجة وضوضاء :

« المنازعة في الحرب خور ، والصياح فيها فشل ... وما برأي خرجت مع هؤلاء ... »

فلعل إذن نزعها حاجتها وأخرى ردتها ... كبقية الأنفس البشرية لا يسيطر عليها ميل فرد ، بل تكون دائماً نهباً تتقاسمه شتى الميول والنزعات .

وكذلك — فيما نحسب — بقيت السيدة حيرى ، لا تعرف على أى شاطئ ترسو سفينتها المضطربة بين نوء المشاعر . فلما أتها الهزيمة بالاستقرار ، وفاء قلبها فيثا فلا تهزه الحمية ولا يفسده الحماس للصراع ، وجدت نفسها التائهة بين اصطخاب العواطف المختلفة التي كانت تتجاذبها فتضلها عن الصواب ...

نعم ذاقت الندم الآن حق ذوقه وطعمت صايه . وهل أبعث له من قدرها للمهض هذه الساعة في أعين الناس وكانوا قلبها لا يكاد أحدهم يتناول اسمها على لسانه لفرط شعورهم نحوها بما يفوق الإكبار ويوشك أن يبلغ مرتبة التقديس ... الآن غدت ملهاة الألسن العيابة وأضحى شأنها محاض زراية الخثالة وعرض الجمهور . ولقد هز هذا من اعتدادها حتى أوشتكت نفسها أن تنهار إلا بقية من الندم أورثتها إياها المحنة ... زارها ، بعيد انتشارها وهودجها من بين القتلى بعد نهاية المعركة ، القعقاع بن عمرو مسلماً فقالت له :

« إنى رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدي وارتجزا ، فهل تعرف كوفيك

منهما ؟ ... »

فأغضى الرجل يخفى تأثره ، وقال فى خفوت :

« نعم ، ذاك الذى قال : أعق أم نعلم . . »

ثم أردف يهون عليها الأمر :

. . كذب والله . إنك لأبر أم نعلم ، ولكن . . لم تطاعى .

ولكن تهوينه ومواساته لم يردا عن نفسها شعورها بالألم ولا وخزة الندم ،

فقالت وهى تعالج دمعها أن يفيض :

« والله . لو ددت أنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة ! » .

ثم راحت تتخيل من كرامة الموت ما كان أولى بأن يكفها الآن ذلة الحياة ..

. ولم يطل بها المقام بالقبة المضروبة لها على أرض الساحة . رأى الإمام أن

ينزلها منزلاً أكرم وأسهل ، فأمر بها أن تؤخذ إلى البصرة قبل أن يوغل المساء .

وغشى وجوه الناس تلك الليلة فسطاط عائشة ، مسلمين أو شامتين . وكان

ابن ياسر ممن سمعوا إليها ، مع الأشتر والنخعى ، فلما وقفوا ببابها قال عمار :

« كيف رأيت ضرب بنيك اليوم يا أمه ؟ » .

فهاجها حديثه الذى قطرت منه سخريته ، وقالت له :

« من أنت ؟ . . »

« أنا ابنك البار عمار »

« لست لك بأم »

« بلى وإن كرهت ا » .

فصاحت به فى غضب مهتاج :

« غفرتم أن ظفرتم وأنتيم مثل ما نقيم . . هيهات والله ! . لن يظفر من

كان هذا دأبه . . »

وسكنت ملياً تذود عن نفسها الخنق الذى تملكها . وسكت أيضاً عمار

ولكنها استشعرت حركة بياض الحباء آذنتها بأمرىء غيره هناك معه ، فقالت

تسأله بعد قليل :

« يا عمار ، من معك ؟ . . »

« الأشر » .

فقلت وهي تعني النخعي بالحديث :

« يا مالك ، أنت الذى صنعت بابن أختي ما صنعت ؟ »

فأجاب :

« نعم . ولولا قرابته من رسول الله ما اجتمع منه عضو إلى آخر ! »

عندئذ لعقت الجرح الذى أصابها من كلامه الصريح المرير ، وهتفت به تؤنبه :

« يا مالك ، أما علمت أن رسول الله قال : لا يحل دم مسلم إلا بإحدى ثلاث :

كفر بعد إيمان ، أو زنا بعد إحسان ، أو قتل نفس بغير حق ؟ »

فلم تلجمه حجتها ، بل أجابها على الفور :

« على بعض هذه الثلاث قاتلناه يا أم المؤمنين ! »

ما كان أكرم الصمت لها ولهذين الزاريين لو استطاعته وحملتهما عليه !

أما وقد عيراها فقد غلباها . إنها تشعر أن الوهدة التى انزاحت قدمها فيها كانت

بتدبيرها هى ، ولو كانت أصغت من البدء لأم سدة ، ولقولة الحق فى منطقها

حينما نصحتها أن تنأى عن الخروج وتقر فى بيتها مكنونة ، إذن لكفت نفسها

الشماتة وكفتها التعبير .

وسمعت من خارج الحباء صوتا يقول :

« يا أم المؤمنين . » :

فأصغت إليه . نعمة فى نبراته شيء غير مرارة الشماتة ، هو أدنى إلى العتاب الرقيق :

« يا أم المؤمنين ، ما أبعد هذا المسير من العهد الذى عهد إليك . . »

حقاً ما أبعد مما كان أجمل بها وأجدر . . الآن تبلغ لبصيرتها الحق الذى

غم عليها من قبل . .

وقالت بصوت خفيض :

« أبو اليقظان ؟ »

« نعم » .

« والله إنك ما علمت قوال بالحق . . »

فنزلت الراحة على قلب عمار أن فاءت السيدة الطاهرة إلى الصواب وقال :  
« الحمد لله الذى قضى لى على لسانك . . . »

وكانت الظلمة إذ ذاك قد شملت جنبات المكان ، والهدوء قرى فى أنحائه فإذا  
الإمام يلم بموضع القبة عندما فرغ من بعض شواغله الجملة ، ويقف بالمضرب يستأذن  
ما كنته . . .

ولم يزد حين لقيها على أن قال :

« كيف أنت يا أمه ؟ . . . »

فاختلجت لنبرة صوته الهادئة ، التى لم ييطنها شيء من صاب الغضب ولا زهو  
الانتصار ، وقالت تجيب :

« بخير . »

« يغفر الله لك . . . »

« ولك . . . »

### ٣

الآن قرت البصرة . وجد الأمن فى قلوبها مساكنه ، فأغلقت دورها على  
سلام . وآب الناس فيها إلى نفوسهم بعد طول اضطراب . ثم مسحوا أدمع المآسى  
التى أراقها القتال .

فى مشارفها رقد لهم أحياء ، تحت أعين النجوم الساهرة ، قد سببتهم المنايا  
النوازل ولم تخلف من حياتهم إلا أسطورة . وفى دروبها سارت جموع أحيائهم  
على أسى عميق كأودية ، شقه الحزن ومهدته الفجيعة . ولكن صرعاهم أحتوتهم  
المشاوى فسكوا لهدأة غامرة ، الهدوء السابغ حياها ضوضاء وضجيج . فلموت  
بيان بلا لسان تحت أطباق التربة ، وللصمت الحى السنة حجة تحت القبة . ليس  
للالم هواتف بأحناء القلوب الحزينة تملأ على أصحابها الدنيا نواحا وإن يتردد  
فى جنباتها صداه ؟ . . .

ولكنه حزن أورث الراحة وقرت به أنفوس قطان البلدة بعد طول قلق  
وحيرة . الآن بانث لهم طرائق الحياة مبسطة ، لا يعوق راكبها خوف طالما سد

سبيله في الليالي السوالف ، مضى الغابر بما كان يبتث فيه من خشية الترقب ورهبة انتظار الغد المجهول ، وامتد أمامهم حاضرهم صافياً شفافاً يرون من خلاله مستقبلاً لا تحفه المخاوف . إنهم في أبهى أحلامهم لم تطف بهم قط رؤيا أطلعهم على مصيرهم رخياً بعد الهزيمة كما أطلعهم عليه حقائق الحاضر . هم اليوم المغلوب فحسب على سلاحه ، ولكن حياتهم وحياة الغالب تسير معاً في نفس المجرى لنفس المصير . الأخوة عادت ثانية تربط بين الفريقين ، وترتق مامزقته المعارك . وما من رجل ضمته البصرة أصبح آسياً على هزيئته أو أحس لها في فؤاده حرارة . . . . .

فنعن ما أولاهم الإمام . . . . . إن أحدهم لم يحسب مطلقاً أن غريمهم يمثل هذه السماحة . خلال الأيام الطويلة التي سبقت الواقعة ، كان طالما يثيبهم على لجاجهم أناته ويعدهم حسنى ، ظنوها من بوارق الوعود ، حقيقة أن تتقلب علمهم نقمة مستطيرة إذا سالموه أو أظفروه الله . . . . . أما الآن فقد كشفت له المحنة التي أصابتهم صديقاً رفيقاً ، سرعان ما نسي إساءتهم واتسع لمردهم عفوه وغفرانه . . . . .

الناس لا تكف ألسنتهم تتحدث عن صروب رفيقه بهم ودفعه عنهم . إنه ليغالب من أجلهم جنده الذين كتبوا له النصر سطوراً من الدماء وأقاموا له صرحاً باذخاً على أشلاء الألوف من الضحايا والشهداء . فلقد أطمع الفوز الجند حتى غدوا يرون العدو سلعة حق أن تكون في الغانم ، وحدثوا إمامهم أن يبيعهم رقابهم وأموالهم وذرايرهم وكل ما لهم من متاع . . . . .

قالوا له :

« اقسم بيننا أهل البصرة نتخذهم رقيقاً ! . . . . »

فمجب للجشع كيف ينسبهم وفق الإسلام . لو لم يبين لهم قبل الواقعة سيرته في العدو ، في كلا النصر والهزيمة ، لكان لهم بعض العذر . ولكنه كان أوضح لهم ناموسه ولما يشتبك منان ، ولما يلتحم صف من رجاله بصف من أعوان عائشة الذين تجيشوا لحربه . . . . .

قال لهم حينذاك ، وهو بعد على حدود البصرة ، في خطاب له طويل :

« . . . وإذا هزمتهم فلا تتبعوا مدبراً ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمشوا

بقتيل . وإذا وصلتم إلى رجال القوم فلا تهتكوا أستره ، ولا تدخلوا داراً ، ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . . . ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم وسبين أمراءكم وصلحاءكم ، فإنهن ضعاف العقول والأنفس ، ولقد كنا نؤمر بالكف عنهن وإنهن لشركات . . . »

بهذا الدستور القويم طالع رجاله والمركة لم تزل غيباً في الغيب . وإنه لقضاء الدين ، وشرعة الفروسية ، وسنة مكارم الأخلاق . ومع ذلك فإنهم الآن أغضوا عن بيانه عين الأذهان . . . فما يبدو قد أبطروهم النصر ، أو بهظهم ثمنه فقالوا اليوم في تقويته وتشمينه أيما مغلاة حتى لا يرضون دون امتلاك عدوهم المغلوب امتلاك السلعة أو رقاب الإمام والعبيد . . .

وأبى عليهم الإمام ما أرادوه :

« لا . فالقوم أمثالكم ! »

فأنكروا منه رأيه وصاحوا به :

« فكيف تحمل لنا دماءهم وتحرم علينا سبيهم ؟ . . . »

« كيف تحمل لكم ذرية ضعيفة في دار هجرة وإسلام ؟ . . . »

ثم راح ثانية يبصرهم ، ويرسم لهم الحدود والمحارم :

« أما ما أوجب به القوم عليكم في معسكرهم فهو لكم مغنم . وأما ما وارت الدور وأغلقت عليه الأبواب فهو لأهله . . . وما كان لهم من مال في أهلهم فهو ميراث على فرائض الله ، لا يصيب لكم في شيء منه . . . »

عندئذ أغضب حكمة طائفة من الغلاة غدوا من أبعد نواة الخوارج الذين تربصوا له الدوائر بالسيف واللسان . ومضوا يهيجون من امتثل ويكثرون عليه باللجاج والعنت حتى ضاق بتفكيرهم وشتمتهم نفسه . فلما رأهم لا يردعهم شيء عن مجادلته ، أبدى الرضا لهم وهو يضر درساً سوف يردم عن جشعهم الفاحش البغيض . . .

قال لهم في هدوء :

« اقترعوا . . . هاتوا سهامكم . . . »

ففعّلوا فرحين وهم يحنون النفس بالغنم الجزيل . وإذا به يسألهم بغتة :  
« فأياكم يأخذ أمه في سهمه ؟ . . أفرعوا على عائشة لأدفعها إلى من  
تصديه القرعة ! . . »

فبهت القوم وصاح سوادهم يعلنون التوبة :

« نستغفر الله يا أمير المؤمنين ! »

وقضى بهذه الحكمة التي ابتدعتها يديهته على الفتنة ، وإن كانت بقيت في  
نفوس بعضهم بقية موجدة عليه سوف تظهرها الأيام بعد حين . . .  
وكذلك أبقى على عدوه كرامتهم ، وضرب للناس أمثلة عن الخصومة الشريفة  
التي تنزه عن الدنيا كيف تكون . وما كان قضاؤها إلا شرعة لآداب الحرب  
وآداب النصر يحذر أن تحتذيها البشرية في كل آن وجيل .

وأقبلت عليه الوفود تترى مبايعة ، دفعت بهم البصرة إليه لم تنتظر دخوله ،  
فقد سرى الحديث بهذه السباحة مع الهواء فاستشعر الناس لنبته راحة تفرمهم ،  
إذ أمنهم — قبل أمنهم على المال والولد والرقاب — على كرامة الحياة . .

ثم دخل البلدة المغلوبة ، بعد مكثه بميدان الواقعة ثلاثة أيام فرغ فيها من  
شواغله . . . الآن لا تستشعر البصرة نحوه شيئاً من ضغن ، فقد استعبد لها أن  
جنب رقابها الاستعباد . . . إنما الحياة عنده إباء وكرامة ، ودلو رآها تسودان  
أنفس الناس ، حفظ لعدوه حياتهم حرة ونفوسهم شماء كريمة . بل هو مد لهم في  
مروءته ، يتقيأون من ظلالها ما لا يعده الولي الحليم . . . كانت حربهم إياه — في  
اعتقاده — عن ضلالة ، الرقى أولى بكشفها عن قلوبهم الغاوية . كانت صفحة من  
الجهالة سودتها أيديهم ، فإذا به يمزقها ، ويلقي بها في متاهة الغابر السحيق ليستقبل  
بصفحه الكريم من سفر حياتهم أخرى يضاء . . .

بهذا جرت سيرته فيهم ، لم يعدل عنه لحظة من نهار . إنه العدل والعطف  
وال مروءة ، بل غدت كلها وأمثالها من المكارم ظلاله . . . فمن عجب أن نرى  
هذه الخلال الشريفة التي استأسرت خصومه ، تثير عليه غضب بعض أوليائه . فما  
عدم حظه العاثر أن زوده بطائفة من أنصاره رانت على أبصارهم غشاوة التعصب حتى



أرتهم الضياء ظلمة كشيعة أخفت عنهم حقائق الأمور . أولئك بلغ من حبهم إياه وإخلاصهم له أن أبوا عليه الرفق بأبنا رجل كان قاتله أو خان عهده ، فقد كان أعداء الإمام في رأيهم أئمة كافرين لا يستأهلون رحمة أو يكون راحمهم قد خالف فيهم شريعة الله . . . . . وحينما بدا للإمام أن يعفو ويرفق كان إذن يسمح بغفرة ليست من حقه لم يقره عليها أولئك الأنصار . . . . .

هكذا غلت تلك الطائفة من شيعة وأخشت في الغلو حتى تنادت فيما بينها ذات يوم بكفر على إذ أباح أعداءه صفحه ونزل لهم عن بعض حقه عسى أن يعطفهم ويؤلف حوله كتلة الأمة الإسلامية ، مملومة الشمل وثيقة الجماعة . وعندما تنطلق مواكب الزمن موعلة هونا في درب المستقبل فإننا سنراهم حربا على الإمام أعق عليه من خصومه ، ينالون بأسيا فهم وألسنتهم من سلطانه ومن إيمانه . أما الآن فهم وليد تمخضت عنه اليوم خلاله الشريفة ، لن يلبث سوى قليل ثم يشب من الطوق ويصلب عوده . . . . .

عاده أمسية دخوله البصرة ، موسى بن طلحة ، فاستبقاه برهة لديه يتحدث حديث الصديق ، وقد صفت نفسه من مواجدها ورق قلبه للفتى الزائر . فلما أن عرضت لها خلال الكلام سيرة طلحة بن عبيد الله ، قال الإمام ، وقد بان في وجهه الرثاء :

« يا ابن أخي . . . إني لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله فيهم :

« ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين : . . . »

فما كان أبلغه من عزاء ، وما كان أجملها من إشادة بسيرة الراحل الكريم . . . وفارقه الفتى المرزوء في أبيه وقد انعطف قلبه ، وخفف رققه السابغ شيئا من حزنه ومن فجيعته . . . . .

على أن هذه السباحة كان لها صدى خبيث الدوى بنفس امرئ من غلاة أنصاره هو ابن الكواء الذي غدا فيما بعد رأس الخوارج . فلما إن دخل ، عقيب خروج موسى على الإمام وسمه يبهج بعطفه على زائره ، حتى سأله عنه .  
قال على :

« كان عندى ابن أخى . . . »

« من هو ؟ .. »

« موسى بن طلحة . »

فصاح الرجل صيحة نكراء :

« شقيننا إن كان ابن أخيك ! . »

عندئذ عصف الغضب بالإمام أن رأى عوناً له قد نزع التزمت من قلبه عاطفة الرحمة حتى غدا كالصخر الصلد وran التمصب على بصيرته حتى خفى عنها الهدى . وهتف به يلوومه ويرد غلوه البغيض :

« ويحك ! . . . إن الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . . . »

نخزى ابن الكواء . ولكنه خزى ساعة ستتحرر نفسه منه فى القريب لتعود كرة أخرى أصلب عوداً فى العناد ، وأشد شكيمة فى المغالاة .

#### ٤

أين الحفنة الغالية فى عدائه ، الحاملة أمسها العريب بالمجد ، السابحة — فى بحار من النكت — للصولجان ؟ .. أى أرض توطأت لهم مواطنى ، وأى منزل أثابهم مرقداً ناعماً وضجة رفيقة ؟ .. ومن ذا ترى فى الناس أمدهم بالسلام الذى منعوه أمتهم وأبدلوها به الدماء ؟

إنهم لضالون . بالأمس ضلوا نفوساً وقلوباً عن محبة الحق الواضح واليوم ضلوا جسوماً حيرى وعقولا فزعة . فما لهم الآن من مثابة الأمن وإن عرفوا الأمن قد مد على غيرهم رواقه . يكاد القلق أن يسوقهم للمصارع . هم من خشية الموت فى موت داهم ، ومن خوف الأسر فى أسر دائم ، خيقتهم خفيثتهم الهلكة ثم جثمت على صدورهم تنازعهم الحياة ، وحجبهم عن الميول الهروب ولا طمأنينة ! .. وهل من فرار من الفرار ؟ ..

تستروا بالظلام . نسجوا من سواده ردنا تسربلوا بطيلسانه ... أصحاب الليل آمن وفى قتامة رهبة تهد القلوب ووحشة تزعزع الجنان ؟ كلما خفت النسمة

الندية تلفت جزعا بلفتة المستريب ، فهي تحمل إليه وقع أقدام طالبيه . أو كشف السكون حوله حسبه هداة متربص يتعين منه سانحة غرة . إنه الطريدة الحيرى ، والظلمة مسرب لكلا الفريسة والمطارد .. لا راحة له قط فى شعابه ، والصمت عليه ثقل ، والليل طويل طويل !

ود القرار لو صبروا ساعة بأرض الموقعة يعرفون بعدها مصيرهم إلى أى قرار: أعيش العبيد أم محات الأحرار ؟ . أم العفو يمسح عن جباههم غبرة الذلة كما يحقن عليهم دم الحياة ؟ . ولو كانوا قدروا عدوهم حق قدره إذن لأوه فياضاً قلبه بالرحمة على سربهم الخائف ، رحبا حله وغفرانه . فما حركوا شيئاً من نمسه حين قاتلوه حتى يحركوه الآن إذ هم فى أيدى القلاة أو حبسو جدران . وكفاهم هوانا عليه أن خشوا لقاءه . وصيفه مغمدا !

غير أن فيهم من عزت على الإمام عقباه . . ذلك الزبير . طراه حينه وهو بمنأى عن ساحة القتال فهلك هلكة هارب لاميتة محارب ، وكان المجلى بين الأبطال . فما للقدر تعقبه حتى أصماه ؟ . لتوشك المنايا أن تبدو كلفة به حتى تأثرته بعد نأيه عن الصراع ثم طعنته غيلة ، كأن قتله كان نذراً حق عليها وفاؤه . . إن عليا ليأسى وقد جاءه نبأ الفاجعة التى ختمت أجل الرجل وطوت سجل حياته الحافلة من بعد نشور ، أبعد ما كان من رجوعه للصواب . . وركوبه إلى الهداية ؟ . . وتوبته الخالصة لله ؟ .

ود على لو أبقى الزمن فى عمر غريمه النادم بقية ينعم فيها براحة التوبة . ولو استدبر الآن من أيامه القلائل مافات فلعله كان احتجز الزبير عن مصيره . ولكنها أمانى ، تخفف عنه هوناً وطأة الفجيعة ، وفيها ملاذ لنفسه الحزينة المرزوءة ، وإنه يستجلب جهده الصبر بالتصبر . فعسى التأسى أن يمسح أساه ، والزمن أن يعفو الشجن ، وقد رد صاحبه وديعة إلى الله

ونقض الإمام عنه بعض دمه . من عجب أن نحسب طائفة دم الزبير قربى إلى على تدنيهم منه وتنفى عليهم رضوانه . وها هو ذا الأحنف بن قيس قد دخل عليه يخبره الخبر ، وجاء معه فى ركابه ابن جرموز ، الرجل الذى تلطخت

بدم الضحية البريئة كفاه ... فلو علم الأحنف أى حزن سوف تشيره الفاجعة فى قلب على ، وأى غضب عليه وإنكار لكان جنب نفسه اللقاء .

ورأى الزبية فى عيني الإمام ، وسمع صوته بطنته المرارة وهو يهتف به فى هدوء رهيب :

« تربصت يا ابن قيس ... »

فأجفل . قد كان حقا ذا يد فى الخاتمة الأليمة التى انتهت بها حياة القليل . لعله وحده هو الذى رسم خطوطها دون غيره من الناس وإن لم تعلق بكفه قطرة دم . فليته ظل قابعا بواذى السباع فى معتزله لم يشترك فى هذه الخاتمة بشيء كما لم يشترك قبلها فى القتال ، ولكنها كانت محنة سارعت إليها نفسه وهو يحسبها منه يسديها إلى الإمام فتقربه منه ، وترفع درجة مكانته التى هبط بها الاعتزال . ظن فى البدء أنه حقيق برضوان على إذا كفاه عدوه الزير ، فلما أتبع ظنه المؤامرات التى قضت على حياة الغريم ، غدا نهبا للعيرة ، لا يدرك أهو أحسن أم أساء حتى إذا وقف الساعة بين يدي الإمام تبددت عنه حيرته وهو يرى لمح الغضب يكاد أن يلسعه بشواظ من نار ..

وأغضى مليا . ما لكلامه يعصيه ؟ .. شفيعة الآن نية رامت الخير فضلت عنه ...

ثم ألهم الجواب من بعد ، حديثا رقيقا فيه وعد وابتهاال ومعدرة :

« ما أراى إلا قد أحسنت ، فارقى يا أمير المؤمنين .. إن طريقك الذى سلكت بعيد ، وأنت إلى غدا أحوج منك أمس . فاعرف إحسانى ، واستصف مودتى ... ولا تقوان مثل هذا فإنى لم أزل لك ناصحا . . »

وتلبث ليسمع كلمة ترد قلبه . ولكن الإمام أثر الصمت ، وأشاح عنه . ماجدوى لومه الآن بعد نزول القضاء . وهل من سبيل إلى إجازة اعتذاره بنية مكنونة فى طى ضميره ؟ .. إنما أمر هذا المرض وأمر الضحية كليهما إلى الله هو أعلم بما تكنه السرائر ...

ثم دعا إليه بالقاتل المخاتل ، فإذا ابن جرموز أقبل وهو يمشى على شفر ،  
الرجاء يملأ قلبه ، والأمانى تحرك خطواته . . أم لا وطمع نفسه ماونى يحدثه  
طوال الطريق بجزالة المثوبة المأمولة جزاء وفاقا بما قدمت يداه . . ؟

وسأله الإمام بصوت خافض عميق :

« أنت قتلته ؟ . . »

فأجاب بخيلاء :

« نعم يا أمير المؤمنين . »

غير أنها رنة للمباهاة لم تلبث سوى قليل . بددها على الأثر أن سمع عليا يقول

في مرارة وحزن :

« والله ما كان ابن صفية جباناً ولا لثماً ولكن الحين ومصارع السوء . . »

وحلقت غيمة من الصمت كثيفة في جو المكان ، سترت الحاضر هنيئة عن  
علي ، وأرسلت بخياله بعيداً يرود وادى الذكريات . . هذه ملاعب الصبوة  
ومراتع الشباب جمعتهم وغريعه أخوين على صفاء ، قد فرغ قلبهاها إلا من حب  
وسلام . . من بطحاء مكة ومشارف بيتها العتيق إلى حدائق المدينة وبساتينها  
النضيرة وثقت بينهما دعوة السماء وألفتهم جنديين في كتائب الله ، يدفعان عن  
رسوله ، كتفا لكتف ، بخفق القلب ، ومنطق الشفة ، وبطش الكف . وبين  
ماء بدر وسفح أحد ووادي تهامة سارا معاً يخضدان عومج الضلالة ، ويغرسان  
في الأرض الطيبة زهر الهداية . كلما ركز المضلون في سبيل الدعوة فنا ورماحا  
تثير الحرب وتشعل نيرانها مسعرة عصفت بها الكتائب الهادية نجبا الضرام  
وانتشر الإسلام ، حتى رفرفت بنوده على العالمين خفاقة .

ذاك أمسه البعيد ، فليت الزمن لم يطلع بأمس القريب الذي شاب الحب  
وفرق القلب من القلب ، ولكنها مشيئة سبقت في الغيب ، وسنن جرت عليه  
المقادير ، ولا دافع اليوم لواقع ، ولا راد لحاضر . . .

وآب موكب الذكريات بالخيال السارى فآن لعيمة الصمت أن تنقشع وحنان  
أن ينثلم بناؤه الركين عندما هتف الإمام بابن جرموز .

« ناولنى سيفه . . . »

ف فعل الرجل ، ومد إليه يده المقتالة . . .

وهز على السلاح فى كفه ثم قال فى نبرة آسية :

« سيف طالما جلى به الكرب عن وجه رسول الله »

ترى أن خاطر راود الآن ذهن القاتل الأثيم حتى عدا به بعيداً عما يجيزه له المقام . . ؟ أى خطل ركبته الرجل الطامع فى المثوبة على إثم ، النهم إلى إحسان على مضلة ووزر . . ؟ ابن جرموز أركبه جشعه مركباً ليس يحمدّه ، لئنه لم يركبه ولم تود به سقطه من لسانه . فقد اجتراً فى هذه الآونة أخبث جرأة وأسوأها وقال للإمام :

« الجائزة يا أمير المؤمنين . . »

فاخترمته نظرة قاسية على الأثر ، أخف من وقعها ضربة رمح تفوس فى قواده وسمع بعدها جواب على . رهيباً كأنه كلمة القدر الداهم والقضاء القاصم :

« النار . . . ورحم الله أبا عبد الله . . »

ثم سرح باله هنيهة إلى بعيد ، وراء الأعوام السوالف ، وعاد يهمس محدثاً نفسه :

« أما إني سمعت رسول الله يقول : بشر قاتل ابن صفية بالنار . . . »

## ٥

أورد العذر صاحبه الهلكة . . .

وإنها هلاك الروح لا هلاك الجسد . . اللعنة التى تتبع المرء وهو مزيج من اللحم والعظم والدم على ظهر دنياه ثم لا يستطيع الفكك ، وإن غدا ذكرى تميش فى الخواطر فى حياته الآخرة تتعقبه تعقب الظل ، وتظل تنهش بقاياها نهش السباع فريستها الدسمة . .

فلعله كان قد غاب عن وعى ابن جرموز حين باغت الزبير ثم أرداه أن اللعنة ستكون له كفاء غدره . ولكنه كان أمراً مسطوراً وقديراً عليه مقدوراً ، همس

به الوحي ذات يوم في صدر رسول الله . ولم يكن هذا الجزاء سرّاً خافياً تمام الحفاء ، فقد تحدث به بضعة ، وروته طائفة ، وبشر به على القاتل فلم يعد ببشراه ما نطق به محمد منذ أعوام ! . . .

وكان المصرع قصة الجشم والغدر والخديعة . . .

وهل من مناقص أسفل دركا من كل أولئك وأخرى منها باصطلاء الجحيم ؟ . . .

من اللحظة الأولى التي شهد ابن جرموز خلالها فريسته ، لعبت بنفسه الأثيمة أوزارها ودفعته دفعا إلى الكيد للهارب الثائب ، عسى أن يتحين منه سانحة تمكن له من حياته ، وتفيء عليه سلبه ، ثم تجعل الزبير في نهاية الأمر سلعة يساوم عليها ويبيعها بغنم من عروض الحياة . .

جاش ذلك بذهنه ساعة أن شهده ، وقد ترك الموقعة ، وهام بجتاز وادي السباع . . .

كان الزبير قد رأى النفي للمدينة ، لعل عودة إلى حاضرة على تؤذن الناس فيها بندمه على ما سلف منه في حق الإمام . أو عساه آثر المكث في جوار قبر الرسول ، يقضى بالبقعة الطاهرة ما بقي من حياته في هدوء ودعة ، بعيدا عن الأحداث التي أخذت تعصف بأرض الإسلام . .

وشهد الناس ذلك اليوم فارسا يتستر جهدا ، ومطيته تحجب به ، وخادم له يتبعه ، وقد شق سبيله من البصرة وراح بجتاز وادي السباع . ومرت القافلة الصغيرة في سيرها بمضارب الأحنف بن قيس ، وهو منحاز إذ ذاك بقومه عن وقعة الجمل ، يعتزل القتال . . عندئذ لعبت الشكوك بقلب الأحنف والفارس ينساب مستخفياً عنه وعن سواه ، وعجب أي عجب لأمر الزبير وتخلفه عن المعركة وهي إلى سيفه وشجاعته أحوج الآن إذ اشتد ضرامها والتحمت النصال .

وهمس الرجل لنفسه بنبرة المستريب :

« والله ما هذا انحيازاً ! . . . »

وحق له أن تنوشه الرية . . . لأمر ما يخرج الزبير هذا الخروج ويدع  
أطعمه وأمانه لقي باليدان . لأمر سوى أن يكون قد فاء إلى الحق بعد لجه في  
العناد وما اشتهر من إباءه الصلح والمهادنة ، فلعله رأى اليوم من غريته قوة  
تستعصى على جيوشه ، فخرج يؤاب أقواما ممن لم يلحقوا بعد بأحد من الفريقين ،  
أو يستمد لمسكره أمداداً من هنا وأخرى من هناك تدعم أداة حربه . . .  
وتلفت الأحنف حوله يستحث بعض رجاله ممن شهد معه فرار الزبير :  
« من يأتينا بخبره ؟ » .

فنهض على الفور عمرو بن جرموز وقال :  
« أنا آتيك . . . »

فكأنما الشقاوة أنطقت لسانه ، أو الشيطان نفسه تحدث في فيه . . . منذ  
تلك اللحظة تحدد مصير الرجل ، وكانت اللعنة نصيبه ، فقد قام يتبع الزبير وإنه  
ليضمهر له العذر في دخيلته ، ويعدو بإضماره الحد الذي رسمه له الأحنف بن قيس .  
لم يرص أن يقوم بمهمة الجاسوس يتقصى خطوات الطريدة ويستكنه سر الأمر  
الذي تهم أن تسير له ، بل غلب الجشع عليه فسل الخديعة وأخفى العذر وبيت  
المكيدة ، كلها أدوات تنيله مأرباً غنائاً من مأرب الحياة . . .

وحانت له الطريق لحظة أدنته من فريسته فساراً مما كما يرى سبيل جمع  
بينهما السفر والمصادفة ، حتى إذا امتد هتية بينهما الحديث فاجأ الزبير بقوله :  
« يا أبا عبد الله ، أحييت حرباً ظالماً أو مظلوماً هم تنصرف ؟ . . . أتائب  
أنت أم عاجز ؟ » .

فتوجس سامعه الشر ، ولكنه جنح إلى الصمت يلوذ به عسى أن يكون في  
الصمت ما يدفع عنه فضول الغريب . غير أن ابن جرموز بقي على دربه ، يسير  
في آثاره كما يزحف ظله ولا يحيد قط عن سبيله . . .

وكذلك أوجس غلام الزبير ، ومال على أذن مولاه يحذره هذا المتأثر خطاه :  
« إنه معد يا أبا عبد الله . . . »

فهب القارس كتفيه مستخفاً وقال :



« وما يهولك من رجل ؟ ... »

ثم التفت صوب مقتفيه :

« ما وراءك ؟ ... »

« إنما أردت أن أسألك ... »

فتفكر أبو عبد الله هنيهة . ماذا لو مد للرجل شيئاً في حبل الحديث فأشبع فضوله ثم قرغ منه بانقضاء الكلام ؟ ...

« فقل ... »

« حدثني عن خصال خمس ... »

« هات ما عندك ... »

« خذلك عثمان ؟ ... »

فأغضى الزبير برهة ثم قال بصرامة :

« أمر قدر الله فيه الخطيئة وآخر التوبة . »

« وييمتك علياً ؟ ... »

« ما وجدت من ذلك بدأ وقد بايعه المهاجرون والأنصار . . . وخشيت

القتل ... »

« وإخراجك أم المؤمنين ؟ . . »

« أما إخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره . »

« وصلاتك خلف ابنك ؟ . . »

« إنما قدمته عائشة أم المؤمنين ، ولم يكن لي — سوى صاحبي — أمر . »

« ورجوعك عن الحرب ؟ ... »

فتفرسه ملياً قبل أن يجيب :

« ظن بي ما شئت غير الجبن ! ... »

هنا فرغت جعبة الفضول والتساؤل ، فبدا ابن جرموز كمن اقتنع بما سمع ،

وسار صامتاً مع القافلة الصغيرة . ولكن نفسه الحبيثة هتفت به وقد حركها

ماركب فيها من طبيعة العدر :

« أضرمتها ناراً ثم أراد أن يلحق بأهله ؟ . . . قتلني الله إن لم أقتله ! » .  
ثم وارى بغضائه الآئمة خلف ابتسامه . الآن يفعل الحتل مالا تفعل الشجاعة ،  
والسكرها هنا أمثل . . . إنه ليبدى المطف ويظهر الرقة لرفيق الطريق ، ويمضي  
وإياه في الحديث ناصحاله ، ويعرضه وده في لفظ حلو . مالتزير علم بالعيب ليستشف  
ما وراءه . . . حتى إذا رآه قد وهت فرسه ، أو لاح كأنها قد عسر عليها نوعا  
قطع رمل الصحراء ، وأمامها منها حتى غابتها البعيدة أشواط طويلة شاقة ، رسم  
الغادر على شفثيه بسمة حانية ، وفي نظراته لمحة رحيمة وقال :  
« يا أبا عبد الله هل أدلك على أمر هو خير لك ؟ . . . »

« نعم . . . »

« إن دون أهلك فيافي ، نخذ نجيبى هذا ، وخذ فرسك ودرعك فإنهما  
شاهدان عليك بما تكره . . . »  
فترى الزبير برهة ثم أجاب :  
« حتى أنظر في ذلك . . . »

وأقبل عليهما المساء . ومضى طرف منه ولما يخرج الركب بعد من مشارف  
البصرة . إن دون مدينة الرسول مشقة تعي أجود الأفراس وأكرم الجياد ،  
والرمال تحت حوافر فرسه لينة رخوة ، تكاد تغوص فيها قوائمها فتعرن به ،  
وتوشك ألا تسير . فلو كان قد أعد للرحلة عدتها الحقة ، إذن لاختار ناقة تسبح  
على أديم هذه الصحراء الشاسعة كالسفينة . أما الآن فما أهون الظفر به على من  
أراد إدراكه . . .

ويبدو أن إلحاح ابن جرموز ظل يلاحق الزبير حتى نزل عند غرضه ،  
أو قصور مركبه عن بلوغه الغاية هو الذى دله على الأخذ بالنصيحة ، لأنه ما لبث  
أن بادل رفيقة نجيبه نظير درعه وفرسه ، وقد أنس إليه ولم يعد يخشاه .  
غير أنها طمأنينة موقوتة ، ما لبثت أن تبددت من فؤاده وعائده القلق  
والتوجس . . . فما هو إن نزل منزلا يستريح فيه ويقضى به بعض ليله ، حتى جاءه  
الذير في رجل من بنى كلب تحين غرة من ابن جرموز وهمس للزبير :

« يا أبا عبد الله ، أنت لى صهر ، وابن جرموز لم يعتزل هذه الحرب مخافة الله ، ولكنه كره أن يخالف الأحنف . . . وقد ندم الأحنف على خذله عليا ولعله يتقرب بك إليه . »

فوجم الزبير وشم رائحة الكيد حوله فى هذا الجو الذى علفت به أنفاس رفيق الطريق . . .

وراح الكلبى يتم حديثه :

« . . لقد أخذ منك درعك وفرسك ، وهذا تصديق ما قلت لك . »

« فما ترى يا أخا كلب ؟ . . »

« بت عندى الليلة ، ثم اخرج بعد نومه فإنك إن فهم لم يطلبوك . . »  
إلا أن المستريب الذى تتداوله أيدي الشك تضيق عليه دائماً رقعة الأمان . .  
وهل كان ليأمن الآن على نفسه من هذا العابر - الذى ودلو استضافه بين جدر -  
أكثر من أمنه عليها من ذلك الآخر ؟ . . أما إن كليهما الآن عنده متهم ،  
وغيرها أيضاً ، وبقية الناس حتى يبلغ مأمنه بعيداً ببلدة الرسول .

وأضى طرفاً من وقته ، ذلك المساء ، يستكبه سر الرجلين : أيهما غادر  
خائن وأيهما ناصح أمين ، محاولاً أن يقطع فيهما الشك باليقين . . ولكن ظنه  
لم يسعفه ، ولم يفتح له إلى تعرف الصواب . .

وكرة أخرى همس له الكلبى فى صوت نذير :

« يا أبا عبد الله إنى أرى أن ترجع إلى فرسك ودرعك فتأخذها ، فإن أحداً  
من الناس لا يقدم عليك أبداً وأنت فارس . »

غير أن الضياء جاءه بالسكينة . مشى فى نفسه الطمأنينة مشى إشراقة الصبح  
فى السكون المستيقظ فنى معها رنة النذير . أم أنعش البكور فيه شجاعته  
الوسنى فأودع الخوف دبر ظهره ؟ . . لقد كان الزبير دائماً ثبت القلب راسخاً  
جنانه لا يكاد يهزه وعيد ، فما يهوله الآن من رجل فرد يسير فى ركابه ويتمسح  
فيه تمسح هر أليف ؟ . . ولقد غاب الليل واهت باعجائه مسارب الدسيسة . .  
أما عينه فيقظى ، وأما حسه فرهف ، وأما جوارحه كلها فعلى بصيرة من رفيقه  
إن شاء إبداء غدره وكشف ما فى طواياه . .

وراحت البكرة ، وجاءت الضحوة والركب يسير . وخطت الشمس خطوها من الشرق تعد ظلة من اشعتها على القافلة حتى أوشكت أن تتسنىم الرؤوس . ثم مضت أيضا صمدا ومضوا قدما تحت وهجها المذهب ، والهدوء في البيداء الممتدة والأمن في القلوب .

عندئذ هتف هاتف منهم :

« الصلاة . . . الصلاة . . . »

فهذه هي الظهيرة حانت ، وحل موعد فريضتها اللحظة . .

ونوقفت القافلة . وراح ابن جرموز يردد نداء السماء حتى تهيأت لها الرقعة الصغيرة . ثم انثنوا معا يتخذون مسجدا لهم من رمل الصحراء يقرب ما بينهم وبين الله . . .

في تلك الآونة التي يبتعد فيها المرء بروحه عن دنياه ، ويتجرد من مادية جسده الثقيلة ، ويتحرر قلبه من شواغل الحياة حتى يغدو عنصرا من الصفاء والنقاوة ، ويدنو إلى خالقه بغير حجاب ، مستودعا إياه جل شأنه شعوره وديعة . . في تلك اللحظة التي تخمد فيها مطامع الجسد وتنشط آمال الروح ، وعلى هذه البقعة التي غدت باسم الله حرماً أقدس ، وظهر أديعها الركوع والسجود . . . في تلك البرهة الخافلة بالسلام ، وعلى هذه الأرض النقية المطهرة ، جرت نوازع الشر ، وسرح شيطانه ، بغير حائل من قداسة يرده فقد ركب مطية ذلولا إلى خبائثه : نفس ابن جرموز . . .

وحين سجدت عنق فيها جهة الزبير لله ، وقرت روحه ، وخشعت جوارحه ، قطع الغادر الأثيم الصلاة ، واستدير خلصة إمامه الآمن ، ثم ضربه برمحه ضربة مغتالة ، نفذ بها السن من الظهر إلى القلب حتى غاص فيه . . .

وحقت عليه عندئذ نبوءة الرسول . كتبت على روحه اللعنة والشقاء الأبدى يتبعانه منذ الآن إلى أن يغدو رمة بالية تتأذى من خبثها حجارة قبره ، ثم روحا معذبا تتداوله الزبانية في الأوابد . . .

أما نفسه فقد غاب عنها سوء ما اقترفته في حق الله . استبد بها شرها إلى غايته ، وحسبت نصراً ما أته يَجْمَلُ أن يتلوه نصر يشفي ما تحسه من الغدر ، فعدا صاحبها على الجدث الهامد فاحتز رأسه ، وأخذ ثوبه وسلبه ثم خلفه جيفة بيطن الفلاة يتولى الغلام مواراتها التراب .

وعاد ابن جرموز خجوراً مزهواً من رحلة غدره ، قد نال السلب والدرع والسيف ، تحب تحته فرس ضحيته . . . عاد إلى منتجع قومه ونفسه لا تنى تحذنه بالفوز الأعظم : ذلك المغنم الذي لا بد سوف يهبه الإمام إياه حين يستقضيهِ عن وزره . . .

وأقبل عليه الناس عندما قارب المضارب . فلما عرفوا من لسانه القصة ، آذتهم فعلته ، وأنكروا ضراوته ، وصاح أحدهم به في تقزز ونفور :  
« ويحك يا ابن جرموز ! . . فضحت والله اليمين . أتقتل الزبير رأس المهاجرين ، وفارس رسول الله ، وحواريه ، وابن عمته ؟ . . والله لو قتلت في حرب لعز علينا ذلك ، ولمسنا عارك . . . »  
فأشاح بوجهه استكباراً وقال :

« . . والله ما أخاف فيه قصاصاً ، ولا أرهب فيه قرشياً . وإن مثله على لهين ! . . . »

وانطلق يسير ، نحو البصرة ، ليقبض الجائزة من الإمام . . .

## ٦

حليف المموم لو ذاق طعم الوسن لنامت همومه ! . . لكن عينه الساهرة ردت الغمض . ففيها قذى يهيجها ويقرحها ، ودمع سخين ينثال ، وأهدابها غدت كشوك ! . . ليت عائشة تستطيع الرقود ساعة من ليل لعل ادكارها ينام . الفراش تحتها يؤرقها . ويؤذى جنبها المستسلم لغفوة عصية كأن حشوه قتاد . . ليس يثيرها الهوان الذي سبحت فيه ، ولا هذه الهزيمة النكراء قد أكلت هدفها واهتضمته . بل وقر التبعة الثقيلة التي ألقت على كتفها الأقدار . بكل فطرة مهذرة من جرح ، وبكل شلو مقطوع ، وبكل حياة استباحها الموت

الداهم في مجال الصراع طالعتها الرؤى المثيرة ، مرة بعد مرة ، في ساعات يحوها الطويل البادى بغير انتهاء ، بعشاعر أسى محض مرير . لكأن حياتها غدت بحيرة من الدمع ! ..

حتى البيت الذى استضافها اليوم كان بؤرة ألم . فلما نى صفية بنت الحارث تمؤه عليها بالعويل والنواح إن أسفر صبح ، وتهيم فى جنباته أنات بكائها المكتوم إن جن ليل تفجعا على زوجها عبد الله بن خلف . بن البصرة كلها صارت مأتما قائما ، تتجدد فيه مظاهر الشجن يوما فى إثر يوم ، كأن أهائها أنسوا للحزن واستطابوه ! .. وفيه هذا كله ؟ فيم الحرب التى نثرت المصارع وبثت الفواجع ؟ ولأية غاية من الغايات ؟

إنه سبب ودت بقلبها أن تنساه لو أجدى عليها النسيان . وأنى لها اليوم إغفاله ؟ . تتاجه المشثوم لا يكف يطالعها مع اللحظات وإن أشاحت بناظرها عنه ، فإن لضميرها لعينا تراه . . . وكانت النواة نزوة -- جمعة عاطفة عدت بها طور الحكمة فلم تزل تعدو حتى رمت بها وبأمتها بهذه الوهدة السحيقة . من لها اليوم بمن يبصرها بغمبة الكرم الذى آثرت به الإمام لعلها تثوب ؟ ..

الأحداث الآن بصرتها . . الكوارث التى أحقت بالناس لأنها ذات لحظة مشثومة أطنقت لسانها العنان تؤلب على صهرها ، ابن عم زوجها ، أحقاد خصومه . . ومع ذلك فأين الجنى الذى اجتذته بيد الكراهية . والحصاد الذى حصده بمنجل البغضاء ؟ . . إنها ترى ثمار فعلتها قانية الحمرة حضبها الدم ، ذابلة جافة تنصرها الموت . . فى الدائن تراها وفى البيد ، فى الغريب والغريب ، فى الدور والمضارب . . فى فمها أيضا تحس لها طعم العلقم ، وفى قلبها تستشعر لها برودة تجمد الحياة . .

لها الله ! .. ألا ينام عنها همها هنية ؟ ..

ما زال بالها يهيج الذاكرة كما رنت بذهنها إلى الجنوب ، نحو أرض الحجاز عة أخية حبيبة تستروح الأبناء ، ثمة أسماء . وحين تقطع الأخبار هذه النقة الواسعة من الرمال فسيكون من نصيبها الترمل ، ومن يدري ؟ ألا يكون أيضا

من نصيبها الشكل ! .. فهذه المفازة انشقت قبراً يضم زوجاً باسلاً قضى قضاء آبق فرار ولم يمت ميتة بطل . وفيها عدت قدما ابن طموح شاب تتلس له مسالك النجاة ولا نجاة ، هرب من الأسر إلى أسر ، وفرهاً على وجهه فرار أطباءه .. أفتغفر أسماء ؟ . . .

عائشة لا يهولها أن تنقم أختها منها أنها كانت سبب النكبة القاصمة . لم يعد بقلبها موضع لغير القلق الذي ملأه بعد فرار عبد الله بن الزبير ، ربيبها الأثير .. عندما بشروها بنجاته ، إبان الواقعة ، من سيف الأشر ، دفعت عشرة آلاف درهم لناقل الخبر نظير بشرائه . أما اليوم فكم تود لو دفعت نصف عمرها لمن يخبرها عنه . بل لتؤثر أن تغمض أجفانها غمض الموت إن أمنت عليه الذل والخوف والهلاك . فما من امرئ غيره يعلأ عليها دنياها التي أفعمتها الأحزان . . .

فكأن القدر عاد فهادنها بعد حربه المسعرة ورسم بسمة على شفاهاه أضاءت لها قتام القنوط . ها هنا رجل يسعى ، ويعشى بخطو المريب ، قد أقبل وفي وقاضه الخبر المرقوب . . .

وقال ذلك الأزدي ناشر آ رسالته :

« إني أعلم مكان عبد الله ! . . . »

فابتدرت من فرحة عينها حتى غامت بالدموع . . . وقالت عندما استطاعت الجواب :

« على بمحمد . . . »

« يا أم المؤمنين ، إنه قد نهاني أن أعلم به محمد بن أبي بكر . . . »

فلم تبال شيئاً من الأمر . ودعت إليها أخاها وأمرته :

« انطلق مع هذا الرجل حتى تبيئني بابن أختك . . . »

وحين جاءها الفتى الجريح ، وملأت عينها بعشده ، ثابت نفسها وعرفت الهدوء . الآن قد أمن سربه ، واحتقن دمه ، ففي كنفها سيطعم الطمأنينة ، وتتمد به الحياة ، ولن يستطيع أحد أو شيء أن يناله بمكروه . إنها لعلى يقين . عاودتها ثقتها في ذات اللحظة التي دخل فيها مثابها الآمن . . . وحتى ابن أبي طالب لن يخرق

عليها اعتدادها الوطيد ، فهو أسمى شأنًا من أن يفسد عليها فرحتها بربيبها الحبيب ، أظهر نفساً من أن يثار من عدو مغلوب . . .

وصدق حدس السيدة في الإمام . فقد نسي كل مساءة سلفت من الفخ الطموح في حقه ، ونسي عداؤه السافر البغيض ، وقذفه فيه وسبه إياه على رؤوس الأشهاد يوم الجمل حين أخش السب فقال للناس :

« . . قد أتاكم الوغد اللثيم على بن أبي طالب ! . »

عن ابن الزبير أغضى على كل الإغضاء ، وأوسع في صدره للصفح عنه . فلما أن استشفعته عائشة لم يزد على أن رمى ربيبها بنظرة ثاقبة نكراء وقال له في غير مبالاة :

« اذهب فلا أرينك ! . . »

بمثل هذه السماحة كان الإمام يلقي خصومه ، فتلك سجية فيه عزيزة في طباع البشر . بل قد كان أيضاً يمنحهم الود فوق رفقته ومغفرته ، ويأبى على رجاله أن ينالوا منهم بمنطق اللسان النابي ، دع القصاص والعقوبة وإن حقت عليهم قسوة الجزاء . . دخل البصرة فرأى لزاما عليه ، عن بر وليس عن مجاملة ، أن يزور عائشة حيث نزلت ليعرف بنفسه أطابت لها الإقامة ، فإذا به يسم شطر مقامها على الأثر بعد خروجه من بيت الله ، لم تشغله شاغلة ، حتى إذا انتهى إلى دار عبد الله ابن خلف ، وشهدته صفية ابنة الحارث ، قطعت نواحيها على زوجها القليل وراحت تصيح :

« يا على ! . . يا قاتل الأحبة ! . . يا مفرق الجمع ! . . أيتم الله بنيك منك كما أيتمت ولد عبد الله منه . . »

فلم يرد شيئاً على المرأة المحزونة . وما زاد على أن قال لعائشة عندما استقبلته ، بصوت هادئ رحيم :

« جبهتنا صفية . . أما أنى لم أرها منذ كانت جارية حتى اليوم . . »

نفسه طوعه ، راضها على الفضائل . بل الفضائل هي التي نبعت منه . . عرف كيف يستقبل العقوق بالبر ، والشر بالخير ، والإساءة بالحسن والمغفرة . وما من عدو له آذاه ذات يوم وأمن في الإيذاء إلا تلقاه ساعة ظفروه وانتصاره بصفح كريم .



وعندما فرغ من زيارته ، وهم أن يخلف مثاب عائشة ، لم يملك أن يرد  
بسمة ساخرة لعب طيفها على ثغره . . . أخسب القوم أن قد خدعوه ؟ . . . إنما  
غرم الوهم إذ ظنوه طعمة هينة وظنوا سكوته عليهم غفلة . . . فمن اللحظة الأولى  
التي اجتاز فيها الدار كان يعلم ما يكون . . . نمة في جو المكان شيء قد علق مع  
الأنفاس ، له رائحة العدر ، أو الخديعة ، أو المؤامرة حيك نسيجها على حياته .  
الأبواب المغلقة نفسها كأنها كشفت عن سرها له ، وأبدت ما ختمته الحجرات . .  
ومع ذلك فإنه استمسك بأناته ، وأغضى عينه ، وكنم عن مضيفته أنه فهم  
ما أخفته الدار .

ولما ودع السيدة ، وغدا على مبعدة من مثابها قليلة ، ألقى نظرة عابرة على  
الأبواب المغلقة وراءه وهو يشير نحوها واحداً بعد الآخر ، وقال :

« أما لهمت أن أفتح هذا الباب فأقتل من فيه . . ثم هذا فأقتل من فيه . . »  
فلقد كانت الحجر تضم طائفة من أعدائه ، جرحى أصحابه ، ضاق بهم فرارهم  
فآوتهم عائشة سرّاً لديها دون أن تعلمه . فمذا كان يديرها أن أحدهم لاتبهجه  
مواجهه ولا يطلق سهما على حين غرة من خلل أحد الأبواب إلى ظهر ضيفها  
فيرديه ؟ . . لعلها ظنت الخوف كفيلاً بشل جوارح أولئك المختبئين ، أو جباتهم  
مقعدتهم عن ركوب هذا المركب العسير . . أو لعلها حينذاك عاهدتهم على  
ألا يغدروا وفيهم بضعة ، حرية بالألا يقيدوها عهد ، غدرة فجراً . . . كيفما كان  
شأن السيدة مع صحبها أولئك فقد كان لزاماً عليها ألا تستغل في على طبيعته  
السمعاء وكان أولى بها وأكرم أن تجنبه الوقوف على حافة الهاوية . .

أما هو فلم يكن يهاب موقفه . فمذا يملك أن يحرمه ساعة من حياة سجلها  
الله له في صفحة عمره ؟ . . . إنما الموت قدر ، موقوت بأجل ، ليس تقدمه غفلة  
ولا يؤخره حذر . . .

وكانت ابنة الحارث ما زالت بمكانها ذاك عند الباب تنوح على زوجها وتبكيه  
فلما أن شهدت الإمام يغادر دارها عاودت شتمه بأقذع ما يستطيعه لسان عياب  
فانظر كيف لقيها ثانية بحمله وأناته وعندما سمع رجلاً استاء منها يصيح :

« والله لا تفلتنا هذه المرأة ! . . »

أصمماه غضبه حينذاك على الغاضب له ، وهتف به يذكره رأيه السالف  
بوجوب الرفق بالنسوة العاديات ، ثم قال يحذره وصحبه الحاضرين .

« لا يبلغنى عن أحد عرض لامرأة فأنكل به شرار الناس ! . . »

وانظره أيضاً كيف قابل تدبير عائشة ، أوسوء تدبيرها ، إذ آوت من  
عدوه من كان حرياً أن يفتك به غيلة لو لم تكن له فسحة من الأجل باقية . . .  
لحق به امرؤ ممن سمع حديثه عن ابنة الحارث ، فلقىه ببعض طريق العودة  
وقال له :

« يا أمير المؤمنين ، قام رجلان ممن لقيت على الباب فتناولا من هو أمض  
لك شتيمة من صفة . . »

فجزع وصاح :

« ويحك ! . . لعلها عائشة . . »

« نعم . . قام رجلان منهم على الدار ، فقال أحدهما :

جزيت عنا أمانة عقوقا . . . »

وقال الآخر :

يا أمانة توبى لقد خطئت . . »

فما أسرع ما بعث إليهما بالقعقاع بن عمرو فأحضرهما إليه . ولم يعلمهما برهة  
يفران فيها من غضبه . فلولا أن استشفع لهما الناس عند ذاك لأرداهما قتيلين  
جزاء على عيبيهما السيدة التي لم تسكف عنه عيبيها وأغرته به الضغائن . . ومع  
ذلك فلم تنقذهما من بطشه الشفاعة ، بل قال وهو محنق :

« لأنهنهما عقوبة ! . . »

وفعل . فقد أمر بهما فجلدا مائة مائة أمام الأشهاد . .

وكذلك نراه يغضى عن عدوه ويوسع لهم في صفحه ، ثم يشتد على أصحابه  
أيما شدة وأبلغها . ذلك لأنه أراد أعوانه على أن يكونوا قدوة بتأثرهم بمكارم  
الأخلاق ويسير في هديهم الناس . أما أولئك الذين كانوا ينالون منه فإنهم في عافية ،

بصبره أو بغفرانه ولعل خير ما يصور لنا سيرته في أخصامه ذلك القول الذي غدا شعاراً له ، وكان يردده دائماً بأمثال تلك المواطن :  
« متى أشفى غيظي إذا غضبت ؟ .. أحين أعجز عن الانتقام فيقال لي :  
لو صبرت ، أم حين أقدر عليه فيقال لي : لو عفوت ؟ .. »  
وهكذا كان أبداً دأبه : يؤثر الرفق والصفح والصبر عمن ألحق به المساءة والشر . إن قدر غفر ، أو عجز صبر . .

## ٧

ما وراء هذا التجمع ؟ .. دار صفية ابنة الحارث غدت خلية تطن فيها همسات خصومه ، أولئك الذين أبت عليهم المواجد أن يسيروا إليه يستأمنونه على أنفسهم ، ويرجون مغفرته ، وكلهم لقومه حينذاك رأس مدبر .  
ولكنهم كانوا أمانة لا يخشون عادية نعمته ، فيبينهم وبينه عائشة سياج ولو جال يوماً بياله أن يقتص منهم أو يثار لما وسعه الأمر وهم في نجوة عنه بتلك السيدة التي ما زال يراها صاحبة حق عليه . وإن يحول قط بخاطره الثأر فذلك يخالف سجاياه . إنه ليملك مصيرهم في يديه ، لو شاء ترك أو شاء أهلك .. ولكنه كان دائماً إلى العفو أميل ، فليس يستطيع قهر نفسه على ركوب ما تنفر منه .  
عقب نصره قالت له عائشة في ضراعة :  
« يا بن أبي طالب ، ملكت فأسجج . . »

فكان قولها صدى لإحساس قلبه ، ورسماً صادقا لما ألهمته من تصرفاته حيال أعدائه . فلم يعنف قط بامرئ منهم ظفريه ، بل وسعت مغفرته عدوانهم ، وأباحهم صفاء نفسه كفاء ما تجرعوه من غصة الهزيمة . أمن الخائف ، وحرر الأسير ، وأملى للهارب في جبل فراره إلى أن أتاحت له أرض ثابتة لا تميد تحت قدميه . . حق هذه الطائفة الغالية في عدااته أغضى عن ماضيها المليء بالضغينة والحقد عليه ، هي التي أججت سحر الحرب وأصلت أمتها الهموم والكوارث .

كان يعلم أن عقابهم عداله مطلوبة ، ولكنه كان يعلم أيضا أن العفو شعبة كريمة ، حرية بأن تسبق العدالة ، فالعادل الظافر أقوى منه الظافر العافر . ولن يزيد شيئا في بأسك أن تنال من عدو مهين

ومع ذلك فقد بدوا كأنما استباحوا منه هذه الأريحية النفسية إلى غير حدود ، وبلا احتراز ولا تعفف . ولو أنهم أنصفوا لجاءوا إليه سراعا ، في قلوبهم الندم ، وعلى شفاههم التوبة ، وفي أكفهم الطاعة ، ولكنهم عدوا ما هو جميل بأمثالهم من المغلوبين ، واتخذوا دار صفية بنت الحارث ندوة تسرح فيها همساتهم الناطقة بالدس والضغينة . وها هي عائشة تؤويهم إليها بدون إذنه ، كأنما تملك دونه العفو وتملك الثوبة . . .

لم يكن شأنهم ليكرمه حين نصره بعد أن دانت البلدة له وسجدت تطلب الصفح وتقدم الخضوع . غير أنها بلدة حديثة العهد بالولاء له حرية — إن منحت فرصة — أن تفتن عن الطاعة . فما زالت بها بقبه مريية ، ملكها القهر لم يملكها الولاء ، لا تفي تتطلع إلى ساعة تار ترد عليها ما ضيعته الهزيمة . وإنها لترنو بعين اللهفة فتدبم الرنو إلى دار ابنة الحارث ملاذ الزعماء المستظللين ظل عائشة ، عسى أن يخفق من هناك ، ذات يوم قريب ، لواء تمرّد جديد . . .

ولقد يحسن المرء بالسيدة الظن فيراها آوت أولئك الحفنة الباغية عن رحمة ولكنه لا يستطيع أن يأمن عليها من وسوسة البغاة وهمسهم في ضميرها بمعاودة المصيان ، فكلهم حاقدا أو موتورا . . . وكلهم قادر أن يهيج بصدرها مواجدها على على وضغنها القديم ، فتلك عواطف غائرة في النفس حق الأعماق ، سارية مع الدماء في الجوارح ، لم تجشها الهزيمة ، ولن يكفها شيء إن خلى بينها وبين الانطلاق . . إن في طبيعة البشر من أمثال هذه الشاعر كثرة موفورة ، تقود خطوهم دائما إلى الخطيئة . . . وعائشة ضرب في النسوة جامع الأحاسيس . أو هي هكذا على الأقل كلما نصبت من شعورها حكما فيصلا بينها وبين الإمام . ولقد طال حكم هذا الشعور بينهما ، في الماضي الغابر والحاضر المائل ، فكان الغلو الذي لا تكبحه كفة ينطلق بها مسرفاً في انطلاقه بغير روية أو قصد ، كأنه السيل الدافق ، لا يحكمه حابس ولا يمسكه سد . . . أفئن غدت اليوم طعمة لوسوسة بضعة من

دعاة الشر في أصحابها الموتورين تهيج ما نام من حفظيتها ، أليست حرية إذن بالإصغاء لهم ، حقيقة بتلبية نداء حقدتها القديم .

بلى ! . . . هذا أنسب عشاعرها ، أدنى إلى سخطها على وإن رأيناه يعد لها في رقاع كرمه ، ويجازيها على موقفها السالف منه برآ بنكران ، وعروءة بعضيان . فما الناس إلا عبيد العواطف ، إلا من عصم الله وحسن نفسه بسياج من الإرادة عصى على غلواء الأهواء . . . ولقد كانت فيها تحسب ولا تنكر ، تود لو كبحت نفسها عن الجموح في عدااء على بعض أشواطها البعيدة ، فلم تفدها هذه الرغبة في القصد ولم ترد عاطفتها عن الجموح .

وكان الإمام لا تغيب عنه هذه الحال ، ويتفرق هوناً بالسيدة العادية عليه فيعزو عدوانها إلى قلة تبصر ليست غريبة في طباع النساء . ومع ذلك فلم يكن لينسى لها ما هي به جديرة من احترامه وتوقيره كفاء قدرها بين الناس ومنزلتها عند رسول الله . . . وإنك لتضغى إلى حديثه عنها فتسمعه رأياً يجدرسم مشاعرها ثم لا يغمطها شيئاً من حقها . . . قال فأجمل المقال :

« . . . أدركها رأى النساء ، وضغن غلا في صدرها كمرجل القين ! . ولو دعيت لتنال من غيري ما أتت إلى . لم تفعل ! . . . ولها بعد حرمتها الأولى . والحساب على الله تعالى . . »

فإذا بلغ منها بعد هذا أن تستغنى إليها طائفة من غلاة عدوه وأعتاهم له خصومة يستظلون جناحيها ، ويحتفون حتى لتدبو خفيتهم درجة من التربص والمؤامرة . . . وإذا استباححت لنفسها من كرمه ما يحتلبه هيئته في عين الناس ، وييديها كمن يملك العفو دونه عن كل عاد عليه : كاشح أو سافر . . . إذا كان هذا وذاك فإنها إذن صاحبة مشيئته ، تجري على سلطانه كالقضاء فتنتقصه ، بل تشله وتقضى عليه ثم لا يكون من ورائها إلا إغراء العصاة وسفهاء الخلوم به ، في بلدة مغلوبة ، وبين ظهراى قوم قد قهرهم على الولاء .

لذلك كان حقاً عليه حيال إمرته وحيال أمته على السواء ، أن يخلى تلك الحلية التي راحت تطن بها همسات أعدائه ، فإن هي إلا مثابة للدميسة . . . ولقد

كان بوسعهم أن يعصف بلاجشها ولكنه كره ، لوفعل ، أن ينال من قدر السيدة التي منحهم الامان ، وأبى أن تهون كلمتها وإن بذاتها من وراء ظهره . ولم ير خيراً من تسييرها عزيزة الى دار لها بالحجاز ، وفي جوار قبر الرسول ، فيتفرق عنها دعاة العدوان .

على أن بقية من كبرياء العناد انحرفت بعائشة عن مسلك الحكمة . فلقد بدا كأنها أبت الامتثال للأمر بالرحيل . لعلها ظلت لا تعرف لعلها حقاً بأمره . هي قد أغراها بعصيانها اليوم وسواس الطائفة الذين آوت ، عسى أن ينالوا منه بالتمرد الجديد . وكيفما كان الحافز الذي جعلها ترفض العودة إلى المدينة فلم يقرها الإمام وأبى إلا أن تطيع أمره . . .

ودخل عليها ابن عباس ، رسولاً من لدنه . فما رأته حتى لقيته بما يشبه الازدراء أو قلة المبالاة . ثم لوت عنه جيدها نافرة ، ولم تقدم له وسادة ليجلس ، ولم تأذن له . . .

عندئذ مد هو يداً إلى متاعها فأخرج منه ما يجلس عليه . فأذنها جراته ونالت من كبريائها ، فصاحت به مغضبة :

« يا ابن عباس ، أخطأت السنة ، فقمعت على وسادتنا ، في بيتنا ، بغير إذننا . . . »

فليتها لم تهج لسانه بالكلام . . . ذلك اللسان الذي عرفته قبل غيرها بصيرا بجوانب الجدال ، فياض المنطق ، حار الألفاظ كالشواظ . . .

أجابها على الأثر ، في هدوء أشد إيلا ما لسمعها من فورة البراكين :

« وليس هذا بيتك الذي أمرك الله أن تقرى فيه . . . »

فلم ترد على حديثه بشيء . . .

وعاد يبلغها ما جاء فيه :

« إن أمير المؤمنين أرسلني إليك يأمرك بالرحيل . . . »

قطعت عليه جملة في تهكم واستنكار :

« أين أمير المؤمنين ؟ . . . ذلك عمر ! . . . »

« عمر وعلى . . . »

« أبيت . . . »

وتنبئنا رواية الخبر بتممة لهذا الكلام إن تكن وقعت فليست تجمل بمن كان مثل ابن عباس ، وإن أثارت السيدة ، وأمعت في إهاجة ثأرته . . فلقد طوف بتيرة أبي بكر فتعيف على الشيخ غير مقصد ، ونال من قدره بغير ما ضرورة أجازها الجدل أودعت إليها طبيعة الحديث . ولا نظنه إلا شطحة رواية ، أراد أن يضفي على خبره بعض المتعة ، فركب خياله السرف إلى حد أساء به إلى عبد الله . . .  
وندع جانباً ما تزره عنه لسان ابن عباس ولا تقرأه عليه . ثم نتناول بقية جدله فإذا في بعض أطرافها عنف مقبول ، أعاتته السيدة على أن يلقاها به . وهل حسبناء يصير لها على التزامها العناد وإباء الصدوع بأمر مولاه وإن أغرتها كبرياؤها بالعصيان ؟

قل لها وهو يذكر ما أته من خروجها على الإمام ، وتأليبها عليه نزع الأنفس وعدة القتال :

« . . والله ما كان أمرك إلا كحلب شاة حتى صرت لا تأمرين ولا تنهين ، ولا تأخذين ولا تعطين »

ووضعها بالفاظه حيث كانت ، ، وحيث يكون كل مغلوب . .  
عندئذ آلتها الحقيقة التي أسفر عنها كلامه الصريح ، وأحست بكبرياتها تنالها جروح سال عنها دمعها يبتدر . . . وحين وسمها أن تمتلك روعها ، أبت مع هذا أن تقر بالهزيمة ، وراحت تخفي قهرها خلف جواب تغمز به غريمها العاني وإن شابت نبرات غضبها الجامح رجفة البكاء . . .  
قالت له :

« إني ممجلة الرحيل إلى بلادى إن شاء الله . . . والله ما من بلد أبغض إلى من بلد أتم فيه . . . »

فلم يعهدها أن تستشعر لذة غمزتها ، وأسرع يجيب :

« ولم ذاك ؟ »

وتريث برهة عسى أن يأتيه رد استنكاره . فلما رآها اعتصمت بالصمت عاود حديثه بهدوء بطفته سخرته :

« . . . والله لقد جعلناك للمؤمنين أما ، وجعلنا أباك مديقا . . . »

فثارت به :

« يا بن عباس ، آمن على برسول الله ؟ . . »

« ما لي لا أؤمن عليك بمن لو كان لمننت به على . . . »

وحينذاك آثرت أن تلوذ بالسكوت لتكف عنها جدل صاحب اللسان

الإزعيل ! ..

## ٨

نهيأت عائشة للرحيل .

ما لها اليوم معدى عنه . طلع عليها فجر السبت غرة رجب فأرسلت على خيوط ضوئه عيناً دامعة ، ألمها لم تندق بليلاً ، تطوف نظراتها الساهمة بما يبدو لها من البصرة تحت نور البكور . . . أى شيء ها هنا أودعته الثرى الصامت ؟ . . . وأى مقام كان على أديعه ؟ . وبأية حال تهم أن تخرج الآن ؟ .

المنى المريضة انطوت في الرمال . كأنها كتبتها على صفحتها الرخوة ثم جاءت هبة ريح فمحت السطور . . . والمقام لم تلن لها جوانبه . نزلته مقهورة فبنا بها المنزل حتى خلفته مقهورة . . . غدت أداة تحركها الأيدي ليست لها على نفسها مشيئة . فتلك الأيام القلائل التي قضتها بالبلدة أظلمها هم وأنهاها هم ، كلا انقضى منها يوم أسلمها بعده إلى غد شر منه .

إنها لتشعر أن حياتها لم تعد لها خالصة . أصبحت كلها منة أسداها الصنع والترفق : عيشها ، وتفكيرها ، وحريتها . . فما تملك أن تعيش أو تفكر أو تتطلق إلا بقدر قدره . ليست الآن من أطاعتها الطاعة وأطاعها معها العصيان . . . ليست صاحبة الكلمة لانكاد حروفها تلتزم على شفيتها فتجيئها الجيوش والوفود والنفوس مؤثمة . . . ليست حتى ذات الدار المهيبة والدمار المصون في القلوب والعيون . . . بقي لها فحسب من حياتها أن تعيش عيشاً تفضلوا عليها به في حرية إن جنبتها مذلة الأسر فهي كأسر ، وبذهن يتبع الفكر ولا يبدع الفكر .



ثم ها هم اليوم أولاء ، يحبسون روحها في سياج من منهم منيع ، وما أبغض  
منة القاهر إلى قلب الغلوب . . . حتى الأشترا أيضا لم يعفها من تجرع غصة الذلة .  
أزجى إليها جميلا لو تقبلته لكان قدرها لديها ، ولكنها أبتة كل الإباء . . . إنها  
لتنعم بأن تجتر حقدتها على الرجل ثم تعود فتستره ، وتعيد نفسها الآن من قبول  
هبة خشية أن يخف تقورها منه ويقل سخطها عليه . . .

وكذلك استقبلت رسوله ، غضي نافذة الصبر مهتاجة . . .  
قال لها :

« يا أم المؤمنين ، مالك يقرئك السلام ويقول إن هذا البعير مكان بعيرك . . . »  
فساحت حاققة :

« لا سلم الله عليه . . . »  
وردت عليه الهدية .

ومع ذلك فلم تكن لتستطيع رفض كل ما قدموه أو تؤذيها الحاجة . . .  
رأت لزما عليها أن تنزل بكبرياتها درجة ، وإلا فمذا هنا يجهزها لكل هذه  
الشقة البعيدة حتى تبلغ الحجاز ؟

جهزها الإمام وأعد لها قافلة طويلة لا ينقصها فيها شيء . ثم منحها اثني  
عشر ألفاً من المال تستعين بها على الزمان . . .

وكانت هبة سخية حقاً . منة أخرى من مننه الكثيرة التي طوق بها جيدها  
على كره منها . . . غير أن ابن أخيه : عبد الله بن جعفر أبي إلا أن يثقل في وقر  
السيدة من المن والهبات ، فقد استقل المنحة ، وأخرج من لدنه مالا وفيرا يعي  
الإحصاء ، أفاءه عليها وهو يقول :

« إن لم يحجزه أمير المؤمنين فهو على . . . »

ووقفت عائشة مليا خافضة الرأس قبل أن يسير بها الركب ، أثقلتها أريحية  
غريبتها كما أثقلتها مروءته ونقاوة نفسه . فلم يحتجز عنها شيئا علم أنها تحتاج إليه  
من مركب أو زاد أو متاع ، ولا تهاون قط في توفير ما يحفظ عليها كرامتها من  
مظهر ومجد . بل قد بالغ في كرمه ما شاء حتى أباح كثرة من صحبها الذين حاربوه  
أن يرافقوها في الرحلة . . .

وحين أوشك الركب أن يتحرك قال لابنه :

« تجهز يا محمد قبلها . . . »

وأمر الحسين أن يسير معها نهارا وليلة .

عندئذ وقفت وهي تشرف من هودجها على الجموع التي أقبلت مودعة ، وقالت بصوت اختلج من فرط التأثر :

« يا بني . . . تعتب بعضنا على بعض استبطاء واستزادة ، فلا يعتدن أحد منكم على أحد بشيء بلغه من ذلك . . . »

ثم مدت بصرها حيث وقف الإمام ، ومضت تقول :

« . . . إنه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة

وأحمائها . . . وإنه عندي على معتبتي من الأخيار . . . »

فما سمع علي هذا منها حتى خاطب الجمع :

« يا أيها الناس ، صدقت والله وبرت . ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وإنها

لزوجة نبيكم في الدنيا والآخرة . . . »

علي أنها ، مع ما أكرمها به ، لم تنس أن تناله بمقذع اللفظ وهي ببعض

الطريق . فلقد أرسل معها حرما ضخما من عبد القيس أربعين فردا ، وقام علي

شأنها قيام العبيد والإماء ، فهايتها كثرته . وظلت كلما وقعت عينها على فرد منه ،

تهتف برمة وتقول مظهرة سخطها علي الإمام :

« هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي ! . . . »

ذلك أنها حسبت الحرس رجالا وكن فتيات تنكرن في ثياب الفتيان . . .

فلما بلغت غاية رحلتها ، ودخلت دارها ، أقبلن فكشفن عن رؤوسهن العمام ،

وهتفن ضاحكات :

« إنما نحن نسوة ! »

وكان هذا آخر عهدا بالرجل الذي حاربه بالبغضاء فخربها بالحلم والروءة ،

وغالبته بالعنف والتأمر فغلبها بأريحية نفسه وصفاء قلبه من الحقد والضغينة .

وكان أيضا آخر عهدا بالشئون العامة ، فقد أغلقت بابها عليها ، وقرت بيتها

بعيدا عن معترك الحرب والسياسة . . .

أما هو ففرغ لشأنه وقد خلت خلية الدسيسة ، وتفرق عنها ما كنها  
البغاة . . . فقد أباح بقيتهم صفحه ، ونسى كل ماسلف منهم من القدر والعدوان .  
اتسعت رحبة عفوه لأعتام عداوة له ولم يستشعر ندما على معروقه ، حتي مروان  
ابن الحكم ظفر بغفرانه وإن كان أعدى عدوه وأجدرهم أن ينال منه عذاب  
الهنون . . . جى به إليه مستضعفا ذليلا ، قد ضاقت عنه مسالك النجاة فلم يعمه  
بشيء ، وأغضى عابسا وهو يصنى لشفاعة الحسن والحسين فيه . . .  
واتهى الفتيان بعد قليل من استرحامه ، واستزال عفوه على الباغي المقهور ،  
ثم أردفا يقولان :

« يايحك يا أمير المؤمنين . . . »

فلم يزد على أن رشق عدوه بنظرة أودعها خلاصة ازدرائه . . .  
ومد مروان نحوه كفأ مرتجفة ، فيها خضوعه وذلته . ولكن عليا عف عن  
تناولها ، وأشاح عنها وعن صاحبها إلى سبطى رسول الله ، وإلى من حضره من  
رجاله حينذاك ، وقال بوجه إليهم الخطاب :  
« أولم ييايعنى بعد مقتل عثمان ؟ . . لا حاجة لى فى بيعته ، إنها كف  
يهودية . . . »

ثم علق عينيه بعد لحظات بذلك القادر الذى كانت حياته لا تساوى غير لفظة  
لسان أو إشارة بنان . وراح يتبعه فى مسرب انطلاقه بنظراته حتى اختفى عنه  
خلف المجهول . . .

غير أن اختفائه عن العيون لم يحجبه برهة عن بصيرة الإمام . إنه ليراه  
الآن بعين الإلهام ، ويحترق إليه أسجاف الزمن ، وأستار السنين ، وظلمة الغيوب .  
ثم يظل يتبع خطوه السارى فى المستقبل ، الموفى به إلى هايته ، الممتد بعده لدراريه . .  
ويسمع الحضور صوت الإمام ، عميقا خافتا كأعما يأتهم لفظه من قرار سحق  
بعيد الأغوار :

« . . . أما إن له إمرة كلمقة الكلب أنفه . . . وهو أبو الأكبيش  
الأربعة . . . وستلقى الأمة منه ومن ولده يوما أحمر . . . »  
ويصمت لسانه الناطق بنفثة البصيرة ، ويدع الحديث للزمان . . .

مطبعة الحرية - بيروت  
تلفون : ٣٢٠٤١٠